إدجار ألان بو

حكاية آرثر جوردن بيم

الرواية الطويلة الوحيدة التي كتبها إدجار ألان بو

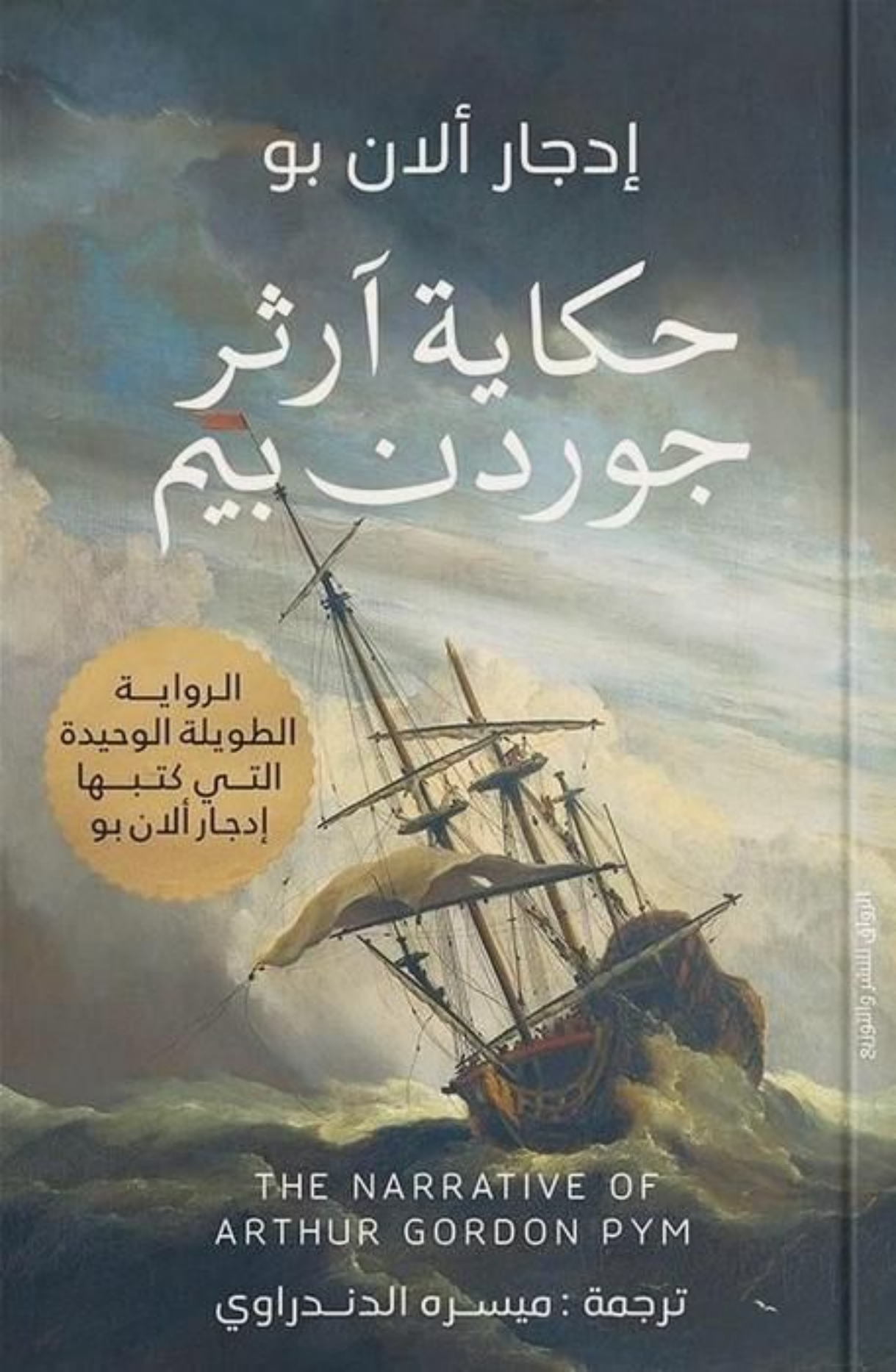

THE NARRATIVE OF ARTHUR GORDON PYM

ترجمة : ميسره الدندراوي

Remove Watermark Now

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر

من من كتب ومجلات ومجلدات

تابعوا موقعنا

#دوده_الكتب

pdfelement

اضغط علي اي جزء من الصوره

للدخول الى الموقع

تابعوا على التلجرام

t.me/book100100

حكاية آرثر جوردن بيم

إدجار آلان بو

ترجمة: ميسره الدندراوي

■ الطبعة الأولى .... يناير 2020

الغلاف: كريم آدم

التصحيح اللغوي: محمد جلال

رقم الإيداع: 2019/27985

الترقيم الدولي: 3 - 086 - 824 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع محفوظة

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

للنشر والتوزيع

حكاية آرثر جوردن بيم

رواية

إدجار ألان بو

ترجمة : ميسـره الدنـدراوي

إهداء المترجم

إلى

صانع الغراب

إدجـار ألان بـو

وها قد جاء اليوم الذي أترجم فيه إحدى كتاباتك

إلى

أحـمد خـالد توفيـق

فلولاك ما عرفت (بـو)

مقدمة المترجم

نحن أمام رواية استثنائية بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، رواية ألهمت أجيالا من الكُتَّاب وكان لها تأثير بالغ علَى عقول العديد من مبدعي القرن التاسع عشر، والعشرين، والحادي والعشرين علَى حدٍّ سواء.

تصنف هذه الرواية علَى أنها الرواية الطويلة الوحيدة التي كتبها سيد أدب التشويق وأحد أهم قامات الأدب العالميّ، وأحد جيل المؤسسين لحركة النهضة الأدبية في الولايات المتحدة، الأديب والشاعر والصحفي والناقد: (إدجار ألان بو).

يعرف أغلب أبناء جيلي الكاتبَ الكبير (إدجار ألان بو) من خلال كتابات الكاتب الراحل د. أحمد خالد توفيق، وهو الذي قدم ـ بشكل كبير ـ تصورا وتوثيقا لعالم (إدجار ألان بو)، قبل أن تصبح القراءة لـ (بو) فعلا منتشرا بين أغلب أبناء مواليد الثمانينيات والتسعينيات، وربما حتى مواليد الألفية الجديدة.

ولد (إدجار ألان بو) في مدينة بوسطن الأمريكية عام ١٨٠٩، وبعد ولادته بعام واحد، هجر أبوه الممثل السابق (ديفيد أرنولد بو) عائلته الصغيرة المكونة من زوجة وطفلين، وفي عام ١٨١١ توفيت والدته الممثلة السابقة (إليزابيث بو)، وأخذته عائلة رجل التجارة (جون ألان)، وتربى وسط العائلة كأنه أحد أبناءها، حتى إنه اتخذ اسمه الأوسط من اسم عائلة (ألان).

ولكن، ولأن حياة كاتبنا كانت عبارة عن سلسلة من المآسي، سواء ما تسبب هو فيها أو ما ساقته الأقدار إليها، فقد حدث ذلك الانشقاق عن عائلة (جون ألان) وهو في عمر الثامنة والعشرين، فالتحق بالجيش وبدأ كتابة الشعر والقصص القصيرة، وأرسلها إلى الصحف الأدبية الأمريكية، التي كانت وقتها هي النافذة الوحيدة لنشر هذه النوعية من الأعمال.

وفي عام ١٨٢٩، سُرِّحَ (بو) من الخدمة؛ بسبب فشله كضابط جيش، واتجه وقتها بكل تركيزه للأدب.

وفي عام ١٨٤٩، وبعد معاناة الإفلاس والفقر وديون القمار والخمر ومرض الكوليرا، جائت وفاة (بو) الغامضة متعددة التفسيرات، والتي تليق بحياته القصيرة الحافلة، وبوصفه واحدا من أعظم كتاب وشعراء الولايات المتحدة علَى مرِّ تاريخها.

يمتد تأثير (بو) ليس فقط للأدب والسينما والمسرح، ولكنه أصبح عنصرا مهمًّا ومكونا للثقافة الشعبية الأمريكية علَى مرِّ تاريخها، بل إن الأماكن التي ذكرها في أعماله، والأماكن التي كان يعيش فيها أو يزورها قد تحولت إلى مزارات سياحية مهمة، وخاصة قبره الكائن في بالتيمور.

وعلَى ذكر قبره ـ ولأن (إدجار ألان بو) ليس شخصا عاديا ـ فقد دأب زائر مجهول علَى وضع ثلاث وردات حمراوات وزجاجة من الخمر غير مكتملة أمام قبره في اليوم الـ ١٩ من يناير من كل عام، فيما يعرف بـ (بو تويستر) وقد ادَّعى (سام بوربا)، أحد عمال كنيسة وستمنستر ف ي بالتيمور حيث دفن (بو)،أنه بدأ التقليد في عام ١٩٤٩ وقال إن التق ليد بدأ من أجل جمع المال للكنيسة فقيرة الموارد.

وكانت آخر تلك الزجاجات ظهورا، في يناير من العام ٢٠٠٩ .

يقدر مجمل أعمال (بو) المنشورة ـ والباقية إلى يومنا هذا ـ بنحو أربع وأربعين قصيدة وتسع وثلاثين قصة قصيرة، وثلاث قصص طويلة، وخمسين مقالا أدبيا نقديا، ورواية طويلة واحدة، وهي رواية (حكاية آرثر جوردن بيم) The Narrative of Arthur Gordon Pym.

تعود فكرة الرواية إلى العام ١٨٣٨، عندما قابل (بو) صعوبة في الوصول إلى أي نجاح أدبيٍّ في وقت مبكر من حياته، من خلال كتابة القصة القصيرة، حيث لم يكن هذا اللون من الأدب القصير رائجا وقتها؛ ففكر (بو) في كتابة رواية طويلة مجاراة للواقع الأدبي الذي يعيشه.

نشرت الرواية في أول الأمر علَى مجموعة من الحلقات في جريدة رسول الأدب الجنوبي، ونشرت الرواية الكاملة في يوليو من العام ١٨٣٨.

وقد كالَ بعضُ النقاد الانتقادات السلبية والسخرية اللاذعة لـ (بو) وقتها؛ لكونها سوداوية للغاية، وملئية بالخيال المريض ـ كما وصفوه ـ في حين أشاد آخرون بمغامراته المثيرة للجدل، وأثنوا علَى العمل، معتبرينه فتحا أدبيا جديدا.

وفي السنوات التي تلت نشرها، تحولت رواية (بو) الوحيدة إلى مصدر إلهام لجميع كُتَّاب نهايات القرن التاسع العشر وبدايات القرن العشرين، وخاصة كُتَّاب أدب الخيال العلميّ والمغامرات، مثل: الكاتب الكبير (جول ڤيرن) صاحب روايتيّ (رحلة إلى مركز الأرض)، و(عشرون ألف فرسخ تحت سطح البحر)، والكاتب الشهير (هيرمان ملفيل) صاحب الرواية الأسطورية (موبي ديك).

وفي العام ١٨٩٩، أصدر الكاتب تشارلز رومان دايك روايته (اكتشاف غريب) والتي بدأها من حيث انتهت رواية (حكاية آرثر جوردن بيم)، وكأنها جزء ثانٍ من الرواية.

وامتد تأثير الرواية إلى أواسط القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، بل أن الكاتب الشهير (لافكرافت)، قال إنه استوحى تيمة روايته الشهيرة (عند جبال الجنون) الصادرة عام ١٩٣٦ من رواية (بو).

وفي عام ٢٠١٢ أصدر فريق موسيقى الميتال الألماني (أهاب) ألبوما غنائيا بعنوان: (العملاق). مستوحيا كلمات جميع أغانيه من الرواية التي صدرت عام ١٨٣٨!!

وصف الكاتب الكبير (ه.ج. ويلز) الرواية بأنها: «عمل عبقريٌّ للغاية، صدر من عقل ذكي جدًّا» بينما صنفت صحيفة الجارديان الرواية بالرقم ١٠ من قائمة أعظم الروايات المكتوبة بالإنجليزية علَى مر التاريخ، وذكرت تأثيرها البالغ علَى كُتَّاب، مثل: (هنري جيمس)، و(آرثر كونان دويل)، و(هيرمان ملفيل)، و(جول فرن)، و(لافكرافت).

تُرجمتِ الروايةُ إلى عشرِ لغات مختلفة، لكنها لم تترجم من قبل إلى اللغة العربية، علَى الرغم من أهميتها وقيمتها الأدبية الكبيرة، والاسقاطات التاريخية والنفسية التي تحتويها بين سطورها. وها هي الآن، تترجم للمرَّة الأولى إلى اللغة العربية.

المترجم

تمهيد

بعد عودتي إلى الولايات المتحدة منذ عدة شهور، بعد تلك السلسلة من المغامرات غير العادية التي مررت بها في البحار الجنوبية وفي أماكن عدة، ألقت بي الصدفةُ داخل مجتمع الصفوة المنتقاة من المثقفين ورجال المجتمع في ريتشموند، والذين أظهروا اهتماما كبيرا بكل ما مررت به، وكل المناطق التي زرتها، بل وألحوا عليَّ بشدة أن أروي تلك القصص، وأن من واجبي أن أمنح ما عرفته إلى العامة.

وعلَى الرغم من أن لدي العديد من الأسباب ـ التي لا تخص غيري في الواقع ـ كي لا أفصح عن ما عرفته، إلاَّ إنني أدركت إمكانية أن يذهب كل ما خبرته ـ ومعه أنا في الواقع ـ إلى طيِّ النسيان، وأنني إن حاولت أن أكتب ذلك لاحقا في مذكراتي، فلن تسعفني الذاكرة، وربما كان السبب الذي جعلني أحجم عن رواية قصتي، أنني لا أملك الأدلة الكافية علَى ما مررت به، باستثناء رجل واحد ـ وهو نصف هندي في الواقع ولا يعتد بشهادته في مجتمعات الصفوة! ـ لذا فلن أجد من يصدق ذلك سوى بعض أفراد عائلتي وبعض أصدقائي الذين يضعون ثقتهم فيَّ؛ أما العامة، فلن يروا فيما أرويه إلا الخيال الجامح، كما أن عدم الثقة في قدراتي ككاتبٍ، كانت من أهم الأسباب التي لم تجعلني أفكر في تنفيذ اقتراح السادة الناصحين، صفوة مجتمع ريتشموند.

ولكن، من بين هؤلاء السادة المحترمين، والذين أبدوا اهتماما بالغا بذلك الجزء المتعلق برحلتي إلى القارة القطبية الجنوبية، كان السيد (بو)،

الكاتب والمحرر بصحيفة رسول الأدب الجنوبي، التي تصدر شهريا برئاسة تحرير السيد (توماس وايت).

لقد نصحني السيد (بو) بشدة أن أقوم في الحال بكتابة كل ما تعرضت له وكل ما شاهدته، وأن أثق في الحِسِّ السليم وفي ذكاء القراء، وأنه بمجرد نشر كتابي، فإن فرص أن يتم استقباله علَى أنه ليس الحقيقة الكاملة، ستكون شبه معدومة.

وعلَى الرغم من حماسه ومحاولته إقناعي، إلا إنني لم أستسغ عرضه الكريم، لكنه منحني ما هو أكثر، لقد عرض عليَّ أن يقوم هو بصياغة الجزء الأول من رحلتي بكلماته الأدبية الرصينة، ثم نشرها في صحفية رسول الأدب الجنوبي تحت باب الأدب الروائي، وفي الواقع لم يكن لدي أيَّ تحفظات علَى هذا الاقتراح العظيم، فقط اشترطت أن يبقى اسمي الحقيقي كما هو، ولا مانع أن يظهر اسم السيد (بو) أسفل المنشور، وهكذا، في فبراير من العام ١٨٣٧، نشر أول فصلين من هذه القصة في رسول الأدب الجنوبي.

وقد دفعتني الطريقة التي تم بها تلقي هذه القصص، للقيام بنشر منتظم لهذه المغامرات في حلقات متتالية؛ لكنني وجدت أنه ـ وعلى الرغم من أني لم أتعمد ذكر أي خرافات أو إلقاء أيَّ أجواء ملحمية علَى حكايتي ـ إلا إن الجمهور لا يزال غير قادر ـ علَى الإطلاق ـ علَى معاملتها علَى أنها قصص حقيقية أو واقعية، بل وتم إرسال عدة رسائل إلى عنوان السيد (بو) معربة عن قناعات بالعكس تماما، بل وراح الجميع يمتدح عمله الأدبي المتقن، غير مصدقين أنها قصص حقيقية!!.

ومن ثَمَّ خلصت إلى أن حقائق روايتي ستثبت نفسها بنفسها مع الوقت، بعد أن تتوفر الأدلة الكافية عليها قريبا، علَى الرغم من خوفي وقلقي، واللذان يسببهما عدم تصديق العامة لها أو أخذها بروح الجد.

كتبت هذا التمهيد لأبين صحة ما كتب بواسطتي، وعومل علَى أنه عمل خياليٌّ، وكذلك لأبين أن الصفحات التي كتبها السيد (بو) بنفسه، والتي لم يتم تحريف أيّ من الحقائق فيها، هي من حقيقة ما حدث لي.

وأنه قام بصياغتها فقط؛ بناء علَى رغبتي الحرة.

المخلص

آرثر جوردان بيم

نيويورك، يوليو، ١٨٣٨م

الفصل الأول

اسمي: آرثر جوردن بيم.

والدي كان تاجرا محترما، يعمل في تجارة مستلزمات البحر في نانتوكيت بولاية ماسيشوتس، حيث ولدت، وجدّي من الأم كان محاميا معروفا وقتها، يعرف بأنه كان محظوظا في كل شيء؛ فلقد تكهن بنجاح كبير لأسهم بنك أدرجتون الجديد ـ كما كان يعرف وقتها ـ واشترى منها الكثير ونصح بها الكثير، وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق الأخرى، تمكن من التحصل علَى مبلغ مقبول من المال.

كان شديد الارتباط بي ـ في اعتقادي ـ من أي شخص آخر في العالم، وكنت أتوقع أن أرث معظم ممتلكاته عند وفاته.

أرسلني جدي وأنا في سن السادسة إلى مدرسة السيد ريكيتس القديمة، وهو رجل ذو ذراع واحدة فقط، غريب الأطوار ـ وهو معروف لدى كل شخص تقريبًا، زار نيو بدفورد ـ ومكثت في مدرسته حتى بلغت السادسة عشر من عمري، وعندها تركته وانضممت إلى أكاديمية

السيد رونالد، المقامة علَى التل المشرف علَى الساحل، تعرفت بها علَى ابن الكابتن برنارد، قبطان البحر، الذي كان يبحر ـ غالبا ـ في خِدْمات وكالة لويد وفريدنبرغ، وكان السيد برنارد رجلا مشهورا ومعروفا في موانئ نيو بدفورد، ولديه شبكة علاقات كبيرة، وكان ابنه وصديقي العزيز يدعى أوغسطس، أكبر منِّي بعامين تقريبًا، وقد شارك أوغسطس مع والده في رحلة صيد الحيتان مع فريق جون دونالدسون، ودائما ما يحكي لي عن مغامراته في جنوب المحيط الهادئ والأطلنطي.

اعتدت كثيرًا العودة إلى المنزل معه، وأن أبقى طوال اليوم، وأحيانًا طوال الليل، نحتل الغرفة نفسها، ونبقى مستيقظين حتى شروق الشمس؛ يخبرني قصصًا عن سكان جزيرة تينيان، وأماكن أخرى زارها في رحلاته.

في النهاية لم أتمكن أكثر من مقاومة رغبتي في الذهاب إلى البحر، وعندما بلغت الثامنة عشرة، ابتعت من مدخراتي قاربا شراعيًّا سميته آرييل، وبلغت قيمته نحو خمسة وسبعين دولارًا.

كان ذا سطح صغير، ومقصورة ضيقة، نسيت كم كانت حمولته في الواقع، لكنه يستوعب عشرة أشخاص دون الكثير من الازدحام. في هذا القارب خضنا مغامرة هي الأكثر جنونا في العالم بالنسبة لمراهقَيْن حالمَيْنِ؛ وعندما أفكر فيها الآن، أتساءل كيف أنني لا زلت علَى قيد الحياة حتى اليوم!

دعوني أروي هذه المغامرة كمقدمة لحكايتي.

في إحدى الليالي، كانت هناك حفلة كبيرة في منزل السيد برنارد، وكالعادة، لم نكن أنا وأوغسطس مهتمين بالحفلة أو بما يحدث فيها، فلقد شربنا مثل البراميل وصعدنا إلى غرفته، وكالعادة في مثل هذه الحالات،

جلست في غرفته مفضلا عدم الذهاب إلى المنزل، لكن أوغسطس كان يغط في النوم فوق فراشه، كما ظننت وقتها، ودون قول كلمة حول موضوعه المفضل عن البحار، ولكنه فجأة ـ وأنا علَى وشك الوقوع في فخ النوم ـ رفع رأسه مقسما أن آرثر بيم لن ينام الليلة أبدًا.

لم أكن شخصا كثير الاندهاش في حياتي قط، ولم أكن أعرف ما كان ينوي، واعتقدت أن الخمور والمشروبات الكحولية المتعددة التي شربها قد جعلته مختل الإدراك قليلا.

راح يتكلم ببرود شديد. مع ذلك، قال إنه يعرف أنه مخمور، لكنه لم يكن أكثر يقظة في حياته من الآن، وأنه كان متعبًا فقط، كما أضاف، أن الاستلقاء في السرير مثل الكلب في ليلة رائعة كهذه هو إهدار للوقت، وكان مصممًا علَى النهوض وارتداء ملابسه، والخروج؛ لنحظى بقليل من المرح في القارب.

بالكاد أستطيع أن أقول شيئا؛ كي أرد عليه، لكن الكلمات لم تكن قد خرجت من فمه حتى شعرت بكم هائل من التشويق والإثارة، واعتقدت أن فكرته المجنونة واحدة من أكثر الأشياء اللذيذة، والأكثر منطقية في العالم.

كانت الرياح تهب بشدة، والطقس باردا جدًّا ـ كما هي العادة في مدينتنا في أواخر أكتوبر ـ وعلَى الرغم من ذلك، قفزت من السرير وأنا شديد الحماس، وأخبرته بأنني شجاع ومقدام ومتعب كذلك، ولكني مستعد لأي نوع من أنواع المغامرة مع السيد أوغسطس برنارد.

لم نُضِع الوقت في ارتداء ملابسنا وركضنا إلى القارب، حيث كان مستلقيا في رصيف الميناء القديم المتعفن عند شركة بانكي وشركاءه،

ويكاد يغرق علَى جانبه في مواجهة أخشاب الرصيف الخشنة.

عدل أوغسطس من وضع القارب وأفرغه ـ حيث إنه كان ممتلِئا حتى نصفه بالماء ـ ثم تعاونا علَى رفع شراعه وتعديل مجاديفه، وانطلقنا به في قوة إلى البحر، مستغلين الرياح المنعشة القوية.

الرياح، كما قلت من قبل، تهب منعشة من الجنوب الغربيّ، والليلة ذات سماء صافية وباردة، وتولى أوغسطس القيادة، وكنت أقف إلى جوارِ الصاري ممسكا بحبال الأشرعة والقارب يتحرك بسرعة جيدة، حتى أننا لم نتبادل كلمة واحدة منذ أن غادرنا رصيف الميناء الصغير.

سألت الآن رفيقي عن المسار الذي ينوي اتخاذه في هذه الرحلة القصيرة، وفي أي وقت يعتقد أنه من المحتمل أن نعود. صمت ساهما بضع دقائق، ثم قال بقسوة: «أنا ذاهب إلى البحر ـ قد تريد الذهاب إلى المنزل إذا كنت تعتقد ذلك مناسبًا». عندما رفعت عينيّ نحو وجهه، أدركت في الحال أنه علَى الرغم من ملامحه الساهمة الطيبة، إلا إنه كان غاضبًا للغاية.

كان بإمكاني رؤيته بوضوح من خلال ضوء القمر؛ فقد كان وجهه صلدا كالرخام، ويده تهتز بشكل مفرط، لدرجة أنه بالكاد كان بإمكانه الاحتفاظ بالمقود.

لقد وجدت أن شيئًا ما قد حدث بشكل خاطئ، وأصبحت قلقًا للغاية.

في هذه الفترة لم أكن أعرف كثيرًا عن الإبحار بالقارب، وكنت أعتمد الآن بالكامل علَى المهارة البحرية لصديقي، كما أن الريح أيضًا قد زادت فجأة ـ حيث كنا نخرج بسرعة من زمام اليابسة إلى عُرْضِ

البحر ـ ومع ذلك شعرت بالخزي من الشعور بالخوف، وحافظت علَى صمتي القلق مدة نصف ساعة تقريبًا.

ومع ذلك، لم يعد بإمكاني الاحتمال أكثر من ذلك، وتحدثت إلى أوغسطس عن ضرورة العودة إلى الوراء، لكنه كما صمت من قبل صمت من جديد ساهما، فقد استغرق الأمر دقيقة تقريبًا قبل إجابته.

قال مطولاً ماطًّا حروف كلماته: «جنبا إلى جنب، لدينا الوقت الكافي، ولكننا سنبقى جنبا إلى جنب». كنت أتوقع ردًّا مماثلاً، لكن كان هناك شيء في طريقة إلقاءه لهذه الكلمات، ملأتني بشعور لا يوصف من الرهبة، فنظرت مرَّة أخرى إليه بانتباه، كانت شفتاه مزمومتين مضمومتين إلى بعضهما بعضًا تمامًا، واهتزت ركبتاه بعنف شديد، لدرجة أنه بدا غير قادرٍ علَى الوقوف.

«بحق الله، يا أوغسطس». صرخت خائفا.

«ما الذي يزعجك؟ ما الأمر؟ ما الذي ستفعله؟ « كلمات ممطوطة ثقيلة تأتي كأنها من عمق بئر سحيقة.

«ماذا دهاك؟». قالها وتعثر، وسقط إلى أسفل القارب تاركا الدفة.

«المسألة! ـ لماذا، لا شيء ـ المسألة ـ العودة إلى المنزل ـ أأ ـ ألا ترى؟». الكلمات تخرج متعثرة مثله.

الحقيقة الكاملة تومض أمام عينيّ

طِرْتُ إليه مسرعا وأوقفته علَى قدميه، كان مخمورا، مخمورا بوحشية، لم يعد بإمكانه الوقوف أو الكلام أو الرؤية، كانت عيناه غائمتين حمراوينِ تمامًا؛ وبينما أحاول أن أوقفه علَى قدميه، تدحرج مثل كرة البولينج

الخشبية إلى طرف القارب في الماء المتكوم من أثر اهتياج البحر، كان من الواضح أنه خلال هذه الأمسية الملعونة قد وقع في حالِ سكر أكثر بكثير مما كنت أظن، وأن سلوكه في الكلام عندما كنا في غرفته كان نتيجة لحالٍ شديدة من التسمم بالكحول، وهي حالٌ مثل الجنون، قد تمكن الضحية في كثير من الأحيان من تقليد السلوك الخارجيّ لشخص متزن، قبل أن تساهم العواملُ الخارجية في كشف حالته في الوقت غير المناسب تماما!

لقد كان الآن غير واعٍ تمامًا، ولم يكن هناك احتمال بأن يكون مدركا واعيا لعدة ساعات.

لا يكاد من الممكن تصور حجم خوفي ورعبي مما يحدث، فقد كنت أعلم أنني كنت غير قادر علَى إدارة القارب تمامًا في هذه الأجواء، وأن الرياح العاتية والمد والجزر القويين كانتْ تقودنا نحو الدمار، والعاصفة تتجمع خلفنا ولم يكن لدينا بوصلة ولا كتاب قواعد، ومن الواضح أننا إذا حاولنا تغيير مسارنا الحالي فينبغي لنا أن نصل إلى اليابسة قبل الفجر.

هذه الأفكار، مع حشد من الأفكار المتخبطة من أثر الكحول، جالت في ذهني بسرعة مذهلة، وفي بعض اللحظات شلتني إلى أبعد من إمكانية بذل أي مجهود.

القارب كان يتحرك مع الريح بمعدل سريع للغاية، ولا يوجد ما يمكن أن يوقفه.

كنت يائسا تماما، عاجزا عن التصرف، والقارب يتحرك مسرعا وواهنا في الوقت نفسه؛ لذا هرعت متعلقا بالصاري والقارب يقفز فوق إحدى الأمواج والماء يغمر سطحه في عنف.

اصطدام الماء المالح بوجهي، وبقائي ثابتا قدَّمَا لي أكبر خدمة في حياتي، وأنقذاني من الاستسلام. إن للبحر شحنة تمنحك العلاج من خوفك أحيانًا دون وصفة طبية، شعرت بالارتياح، وتلاشت لدي أفكار رعب الموت الفوري؛ لذا فلقد توليت القيادة الآن وأمسكت بزمام الدفة، وتنفست بحرية أكبر حيث وجدت أنه لا يزال أمامنا فرصة للنجاة في نهاية المطاف.

أوغسطس لا يزال ساقطا في آخرة القارب؛ ولأن هناك خطرًا وشيكًا قد يسبب غرقه وانقطاع تنفسه ـ الماء في عمق ٤٠ سنتيمترا تقريبًا حيث سقط ـ فقد سعيت لرفعه جزئيًا، وإبقائه في وضع الجلوس، بتمرير حبل حول وسطه، وربطه إلى عمود الصاري، وبعد أن رتبت كل شيء قدر استطاعتي في حالتي المزرية، أودعت روحي بين يدي الرب، وقررت أن أتحمل كل ما قد يحدث لي بكل ثبات.

بالكاد توصلت إلى هذا القرار، عندما بدأت ـ فجأة ـ أسمع صراخًا عاليًا وطويلًا، كما لو كان من حلق ألف شيطان، بدا وكأنه ينتشر في الجو كله حول القارب وفوقه.

لن أنسى معاناة الخوف والرعب التي مررت بها في تلك اللحظة أبدا، فقد وقف شعري منتصبًا علَى رأسي، شعرت بالدماء المتجمدة في عروقي، توقف قلبي تمامًا عن النبض، ودون أن أرفع عينيّ مرَّة واحدة لمعرفة مصدر الرعب الذي أصابني، فقد تعثرت في جسد رفيقي المغشي عليه، وسقطت علَى وجهي مغشيا عليَّ.

وجدت نفسي، عند استيقاظي من غيبوبتي، في مقصورة سفينة صيد الحيتان الكبيرة، المعروفة بـ (البطريق) راسية بالقرب من نانتوكيت.

كان العديد من الأشخاص يقفون فوق رأسي، وكان أوغسطس، أكثر شحوبًا من الموت نفسه، وعند رؤيته عيني تتفتحان وأعود إلى وعي، صرخ فرحا لنجاتي، بطريقة أثارت الضحك والدموع في البحارة، قساة المظهر الذين كانوا حولنا، وقد شرحوا لنا ما حدث لاحقا.

كانت السفينة العملاقة هي مَنْ أثار الأمواج وعدم الاتزان بقاربنا الصغير، وهي مصدر صرخات التحذير التي أثارت رعبي وأخلَّت بتوازني، لكنها لم تمنع اصطدامهم بنا وغرق قاربنا الضعيف، واستمرت السفينة العملاقة في مسارها كعملاق دهس نملة مسكينة، ولم يتوقف قائد السفينة الكابتن (إ. ت. بلوك) عن تحركه في مساره، وكاد أن يواصل السير دون إثارة المزيد من القلق بشأن هذه المسألة.

لكن لحسن الحظ، كان هناك اثنان من المراقبين اللذين أقسما علَى رؤية شخص ما علَى قيد الحياة، وجادلا في إمكانية إنقاذه.

تلا ذلك نقاش جعل بلوك غاضبًا بشدة، وبعد فترة قال إنه «ليس من شأنه أن يراقب أبدًا قشر البيض الطافي علَى الماء؛ وأن السفينة يجب أن لا تهتم بهذا الهراء، وإذا كان هناك رجل يغرق هناك، فهي غلطته وعليه تحمل مسئوليتها» هندرسون، المراقب الأول، تولى الأمر الآن، وكان ساخطا بشدة علَى قرار القبطان، وانضم له طاقم السفينة بأكملها، وقال الرجل ـ ساخطا ـ إنه يرى قرار القبطان في منتهى القسوة والدناءة، وأنه لا يمانع في أن يلف حبل المشنقة علَى رقبته عندما تصل السفينة إلى اليابسة، لكنه سيعصى أوامره حالا في سبيل إنقاذ روح.

ثم دفع هندرسون القبطان الشاحب، وأعلن العصيان عليه، وانضم له طاقم السفينة كله، وقاموا بالدوران محاولين إنقاذ الرأس الذي رأوه

يكافح الغرق، ليجدا جسدين يضربان الماء، علَى وشك الموت. رجلان محظوظان أنْ تَمَّ إنقاذهما بهذه الطريقة الدرامية.

وكما رأى القارئ، تم إنقاذي أنا وأوغسطس، ويبدو أن خلاصنا قد تحقق من قبل الحظ الجيد الذي يسميه رجال الدين الورعون: العناية الإلهية.

رست السفينةُ بالقرب من اليابسة، وأنزلت قارب الإنقاذ مع رجلين ليوصلانا إلى الشاطئ، ولاحظت في رومانسية ـ لا مجال لها الآن ـ أن القمر لا يزال يضيء بألوان زاهية، عندما بدأت السفينة تحاول استدارة طويلة وثقيلة أن تتخذ اتجاه الريح، وهندرسون يصرخ في طاقم السفينة محاولين تحريكها بمجاديفهم، وفي بضع دقائق من العمل الجادِّ ونحن نراقبها باهتمام، كانت قد اختفت خلف خط الأفق المظلم.

على الرغم من خطورة المحاولة، وأننا كنا موشكين علَى الموت، إلا إن أوغسطس كان منتعشا وهو يحكي لي عن ما قصه عليه البحارة. قصة ملخصها أن مسمارا ما تعلق في أخشاب البطريق، وعلق بين الدعائم النحاسية فراحت تجرنا معها، وأن البحارة سمعوا هندرسون وهو يصرخ صرخة الاستغاثة، وهم من واقع خبرتهم به يميزون ما الفارق بين صرخة الاستغاثة وصرخة الوقوع تحت تأثير الكحول وصرخاته الأخرى، وعندما قرروا أن يمدوا يد العون لمن يمكن أن يكونوا غرقى؛ بسبب ذلك التصادم، وجدوا جسدا يوشك علَى الغرق ووجدوا جسدا آخر طافٍ ومربوط بحبل إلى عمود خشبي، هذه الربطة التي أنقذت صديقي أوغسطس من الغرق ولفتت انتباههم إلى أنه ربما كان هناك ناجون.

كانت البطريق قوية بما فيه الكفاية لتواجه واحدة من أعنف العواصف التي مرَّت علَى نانتوكيت، لكن قاربي المسكين أرييل لم يكن كذلك.

تمكنت أنا وأوغسطس ـ لحسن حظنا ـ من الوجود علَى مائدة إفطار والده السيد برنارد في الوقت المناسب. الإفطار الذي كان ـ لحسن الحظ ـ متأخرًا بعض الشيء بسبب انتهاء الحفلة في ساعة متأخرة من الليل.

أفترض أن الجميع علَى الطاولة كانوا مرهقين للغاية من كثرة ما شربوه أمس، مرهقون لدرجة أنهم لم يلاحظوا مظهرنا المتعب المزري والذي قد ينكشف بسهولة شديدة أمام بعض التدقيق وقوة الملاحظة، ومع ذلك يستطيع تلاميذ المدارس العليا دائما إنجاز العجائب في مجال الخداع والادعاء، وكانت الحجج جاهزة ومرتبة لذلك، حال إن دقق أحدهم في مظهرنا.

أعتقد حقا ألاَّ أحد من أصدقائنا في نانتوكيت كان عنده أدنى شكٍّ في أن القصة الرهيبة التي يرويها بعض البحارة في البلدة عن قارب غرق في البحر بعد اصطدامه بالبطريق العملاق، وأن بعض الشياطين التعساء قد غرقت مع قارب صغير يدعى أرييل؛ هي قصتي أنا وأوغسطس.

لقد تحدثنا منذ ذلك الحين أنا وأوغسطس بشكل متكرر عن تلك المسألة، ولكننا لم نتذكر الخوف أو الرعب الذي عشناه، بل كنا نتناقش كأي مراهقين يظنان أنهما سَيِّدا البحر وملكاه؛ يحللان ما حدث لهما بمنتهى الدقة والمنطقية، وفي أحد محادثاتنا اعترف لي أوغسطس بصراحة، أنه في حياته كلها لم يشعر بخيبة أمل شديدة كما حدث يوم حادثة غرق أرييل، وكيف أن تسمم الكحول كاد يقضي علَى حياتنا، وأنه كان لابد أن نتريث ولا ننجرف خلف حماسنا الذي أججه الكحول وأنه ربما كانت هذه البداية ليست الأفضل علَى الإطلاق.

الفصل الثاني

حسنا، في غالب الأحوال تقود الدلالات إلى نتائجَ واضحةٍ، لذا فقد كان من المفترض أن تؤثر تلك الكارثة علَى شغفي بالبحر وولعي بالمغامرة عموما، إلا إنها رفعت من درجة حماسي لفعل كل شيء غريب وخطر، وخلال أسبوع، بدأت ذاكرتي ترحل هذه الأحداث إلى مُؤَخَّرِ عقلي وتستخرج منها كل النقاط المضيئة المثيرة للإعجاب والحماس، وخاصة ثباتي عند سقوط صديقي مخمورا غير واعٍ.

ازدادت محادثاتي ونقاشاتي مع أوغسطس بشكل كبير، فقد كان الشيطان متميزا في حكي القصص المثيرة عن المحيط ـ الآن أشتبه أن أكثر من نصفها كانت افتراءات محضة ـ وكانت له طريقة تثير حماستي وترفع من درجات خيالي إلى أبعد الحدود.

بعد حوالي ثمانية عشر شهرا علَى كارثة أرييل، كانت شركة لويد وفريدنبورغ منخرطة في إصلاح وتركيب السفينة «جرامبوس»؛ للقيام برحلة صيد الحيتان.

كانت متهالكة الهيكل، ونادرا ما أبحرت بشكل سليم مؤخرا، لم أكن أعرف لماذا حازت الأفضلية عن غيرها من السفن الكبيرة، هناك سفن جيدة تابعة للمالكين نفسيهما، ولكن هذا ما كان.

تم اختيار الكابتن برنارد ـ والد أوغسطس ـ لقيادتها، وأوغسطس يمشي إلى جواره متباهيا، وكثيرا ما حثني علَى اغتنام الفرصة المتاحة الآن؛ لتحقيق رغبتي في السفر. هو يعرف أنني أتحرق شوقا لفعل ذلك، ولكنَّ الأمر لم يكن سهل الترتيب كما قد يبدو، والدي لم يعارض مباشرة، لكن أمي لم توافق قط، بل إن الأدهى من ذلك، جدي الحبيب أقسم أن يقطع عنِّي أي أموال أو مساعدات إذا فكرت مرَّة أخرى في فعل ذلك.

هذه الصعوبات، ومع ذلك أصبحت الوقود المضاف إلى اللهب، كنت عنيدا صعب المراس، لذا فقد عقدت العزم علَى السفر ومواجهة جميع الأخطار، وبعد أن نقلت نيتي إلى أوغسطس، بدأنا في ترتيب خطة من خلالها قد أتمكن من ذلك، بينما في غضون ذلك، كنت أتجنب التحدث إلى أي فرد من عائلتي فيما يتعلق بالرحلة، ورحت أبين أنني ـ ظاهريا ـ مشغول بدراستي المعتادة، وكأنني قد تخليت عن عنادي وتصميمي علَى خوض الرحلة.

لقد أتقنت تمثيل دوري جيدا؛ مزيج من مشاعر الاستياء والحزن، وإظهار دهشتي من رد فعل جدي، والنفاق الشديد في تعاملي معه هو وأمي؛ كي لا يشعرا بأي شيء غريب. نفاق انتشر في كل أفعالي وأقوالي مدة طويلة، نفاق يمكنني من صرف انتباههما عن ترتيباتي التي تحركت بوتيرة بطيئة، ولكنها فعالة للغاية.

واستكمالا لمخططي في الخداع، ابتعدت مدة عن أوغسطس، الذي

كان يرافق والده في كل ترتيبات الإصلاح علَى سطح السفينة، ومع ذلك، كنا نتقابل ليلا في بعض الأحيان؛ لنتحدث عن ترتيباتنا ومخططنا.

وبعد مرور ما يقرب من شهرين، لم نجد أي وسيلة، وفجأة لمع في عقلي شيءٌ ما.

كان لوالدي صديق وهو السيد روس، يعيش في نيو بيدفورد، وقد اعتاد علَى إرسال دعوات لي ولوالدي؛ كي أقيم في منزله أسبوعا أو ثلاثة مع أبنائه: روبرت وإيميت. ولأنَّ الإبحار كان مخططا له في منتصف يونيو من العام ١٨٢٧، فقد تطوع أوغسطس نائبًا عن السيد روس في إرسال مذكرة صغيرة لأبي ـ يكتبها هو شخصيا بخطه المنمق ـ تدعوني للإقامة عنده لثلاثة أسابيع، وتطوع لأن يوصلها بنفسه علَى أنها جاءت مع البريد العاديّ!

وفي أثناء ذلك، كان أوغسطس يرتب لي مكان الاختباء علَى متن «جرامبوس». مريح بما فيه الكفاية لإقامة قصيرة، ثم أظهرُ بعدها، عندما تكون السفينة قد وصلت إلى عُرْضِ البحر، وأن تصبح عودتي أمرا غير وارد، واتفقنا علَى أن نكتب رسالة تصل إلى منزل والدي في الوقت المناسب، تشرح له المغامرة التي سأخوضها ورغبتي الشديدة فيها، بعد أن يكون قد فات وقتُ العودةِ.

ألم أقل لك عزيزي القارئ، لا يمكن تصور ما يستطيع طلبة المدارس العليا أن يفعلوه!

مرَّت الأيامُ وجاء منتصفُ يونيو، وصباح يوم الخميس كان أبي يستلم رسالة من السيد روس تطلب منه التكرم والسماح للعزيز آرثر بالحضور إلى نيو بيدفورد والمكوث مع عائلته، وأنه ينتظرني ببالغ الحرارة مساء يوم الإثنين.

وفي صباح يوم الإثنين كنت أغادر المنزل حاملا حقائبي، وعلَى زاوية الشارع البعيدة، كان أوغسطس ينتظرني لتنفيذ خطتنا، كانت الخطة بسيطة غير معقدة، لا بد أن أبتعد عن الطريق الرئيسي، وأن أستغل ضباب الصباح الباكر في أن أسلك الطريق الوعرة إلى رصيف الميناء، وبعد أن أعبر من جوار بئر السيد إدموند، الذي سيسخر من وجهي الممتلئ وصحتي الجيدة، ويطاردني بعد أن ألقي عليه إحدى دعاباتي السخيفة الصيبيانية حتى يسقط علَى وجهه وأنا أركض من كثرة الضحك، ثم نصل إلى السفينة الراسية بجوار الرصيف، والتي لن يكون علَى متنها في هذا الوقت المبكر سوى عامل أو اثنين، وقبل انقشاع الضباب، سيصل أوغسطس إلى جانب السفينة، ثم نتسلل إلى الاستراحة الرئيسية[1] عن طريق القمرة[2].

في الاستراحة، كان المكان فخما وراقيا، سجادة فخمة تغطي الأرضية الخشبية، وطاولة اجتماعات تستخدم ـ أيضا ـ لتناول الطعام، ومدفأة أنيقة، وسقف مرتفع يتجاوز المترين بقليل.

وإلى جوار الطاولة كان هناك باب صغير، يقود إلى غرفة طعام صغيرة تخصُّ أوغسطس ووالده، بدت لي كأجمل مساحة صغيرة للاختباء في حياتي، طاولة صغيرة بمقعدين وأرفف أنيقة تحتوي علَى عشرات من الكتب، وخزانة طعام بها أصناف رائعة.

---

(١) الاستراحة الرئيسية: هي المكان الذي يستخدمه القبطان أو قائد السفينة خلال السفر؛ للراحة وتناول الطعام، وتقع – تقريبا – في منتصف السفينة (المترجم).

(٢) القمرة أو القمرة الرئيسية: هي المكان الذي تتم منه قيادة السفينة، وفي السفن القديمة كان يعد كمكتب للقيادةِ، والذي يستخدمه القبطان والمساعد الأول، وتحتل المكان بين المقدمة والاستراحة (المترجم).

نظرت نحوها في انبهار، لكن أوغسطس صفَّر لي وأشار إلى السجادة الصغيرة، التي تغطي مكانا ما علَى الأرضية، فرفعناها سويا لنجد مساحة مربعة صغيرة من الأخشاب أعيد تصميمها؛ لتبدو كبوابة لمكان ما. ضغط بيده أحد الأطراف فارتفع طرفٌ آخر بمسافة صغيرة لا تتجاوز سمك أصبع، فرفعنا سويا ذلك الغطاء المربع، وحمل في يده مصباحا مُضَاءً بثقاب فوسفوريٍّ ضعيف، ذاتيّ الإضاءة، وأشار لي كي أنزل درجات سلم صغيرٍ، نزلت عليها في حذر؛ خشية السقوط، بينما هو يغلق الغطاء خلفنا وينزل معي إلى باطن السفينة، حيث الحوض الرئيسي[1].

كنت أتلمس خطواتي وأتعلق بمعطفه حتى تعتاد عيناي علَى الظلام، وما إن استطعت الرؤية ـ قليلا ـ حتى ظهرت أمامي أبعاد المكان.

كنا نقف الآن في مواجهة ما يشبه صندوقًا معدنيًّا كبيرا، يتعدى طوله المترين وارتفاعه المتر ونصف، وحوله تتكدس مجموعة من البراميل الفارغة والأثاث القديم والسجاجيد والحصائر مرتبة ومكدسة بطريقة تخفي جانب الصندوق بحرفية شديدة؛ مما جعلني أتأكد أن أوغسطس قام بترتيب ذلك بنفسه حتى يمنحني مكانا جيدا للاختباء إذا ما قرر أحدهم النزول إلى هنا. وفي ذلك الجانب من الصندوق انزلق أوغسطس وأنا خلفه، لنجد أنفسنا في غرفة صغيرة ضيقة، إلا إنها كانت مرتبة بعناية شديدة وموفر بها جميع ما أحتاجه من وسائل الإعاشة الضرورية، وبعض الأوراق وأقلام الحبر، وثلاث بطانيات سميكة وإبريق ممتلئ بالماء عن آخره، بل إنه وضع زجاجات من الخمور ونقائق لحم مجهزة

---

(١) الحوض الرئيسّي: هو فراغ كبير داخل السفينة يشغل ثلثي باطن السفينة من المقدمة حتى أسفل القمرة وبارتفاع يتعدى المترين أحيانا (المترجم).

للأكل وشرائح من لحم الضأن البارد، وزجاجة نبيذ.

شرعت علَى الفور في تفقد قصري الجديد كأي رجل مجتمع من عِليَةِ القوم، وأوغسطس غارقا في الضحك علَى قامتي المشدودة في فخر وكأنني عمدة نيويورك.

وقبل أن يخرج، ترك لي المصباح والثقاب الفسفوري وأشار إلى الجزء الذي يحتوي براميل الكيروسين، اللازم لإشعاله. وراح يدربني علَى طريقة تثبيت مسمار الباب الخشبي وطريقة فكه من الأسفل، ثم تركني علَى وعد بتفقدي كل عدة أيام.

حدث هذا في نهار السابع عشر من يونيو بالتحديد.

لم يكن ضوء النهار ينفذ إلى مكان اختبائي، ولا حتى الهواء النقي، لذا لم أعرف كم مر من الوقت عليَّ، إلا إنني قدرته من حساب عدد الساعات بعد النظر إلى ساعتي كلما صحوت من النوم، وقدرته في رأسي بيومين، إلا إنني اكتشفت أنني مخطئ في حسابي عندما سمعت نَقرًا خفيفا علَى الباب الخشبيّ، اقتربت من الباب وأوغسطس يهمس لي في هدوء:

« كيف حالك، هل كل شيء علَى ما يرام؟»

« كل شيء كما يجب أن يكون». قلتها بصوت خفيض. «متى ستبحر السفينة؟».

«بعد نصف ساعة علَى الأكثر». قالها أوغسطس وتابع وصوته يقترب كأنه ألصق فمه بالباب الخشبي». لقد بقيت حتى الآن ثلاثة أيام، وأنا لن أستطيع أن أتفقدك إلا بعد ثلاثة أو أربعة أيام أُخَر، كنت

أود أن أترك لك ساعة كبيرة، ولكني أخاف أن يسمع أحدهم صوت دقاتها، لذا عليك الاعتماد علَى ساعتك الصغيرة في تحديد الساعات وحساب الأيام».

بعد حوالي ساعة من رحيله، بدأت أقرأ في الكتب التي وضعها لي هناك، كانت منتقاة بعناية وكلها تتحدث عن رحلات بحرية جامحة وغريبة؛ لذا اخترت كتاب رحلة لويس وكلارك إلى كولومبيا، ورحت أقرأ علَى ضوء المصباح حتى غفوت، وعند استيقاظي لم أَعِ كم مرَّ من الوقت؛ كنت في حالِ انعدام وزن، وانتابتني الأفكارُ الغريبة عن ماهية وأهمية وجودي هنا، كنت قد أكلت من لحم الضأن البارد قبل نومي، مع ذلك شعرت بالجوع واضطراب في بطني، ورحت أحاول تمديد أطرافي التي آلمتني من ثنيها داخل الصندوق، رحت أقف بين البراميل الفارغة وصناديق الطعام محاولا أن أفرد جسدي، متعبًا ومشوشًا وفاقدًا للشهية. فكرت مئات المرَّات أن أفتح الباب الخشبي وأصرح بوجودي وأُنهي هذه المغامرة إلى الأبد، لكني رحت أفكر في تبعات جُبْني ويأسي وأفكر في الفرصة التي ربما أفوتها علَى نفسي، وبعد مرور ساعة من استيقاظي والصداع لا يزال يؤلم رأسي بشدة، قررت أن الانتظار منثنيا في صندوق معدنيٍّ وسط الظلام أفضل بكثير من انتظار أوغسطس ليعود من رحلته ويقصها عليَّ.

اقتربت من لحم الضأن وتناولت قطعة لأعوض بها جوعي، فقط لأكتشف أنه تعفن تماما وأصبح غير صالح للأكل!

تعكر مزاجي من جديد، إلا إني تذكرت النقانق العملاقة والتي ربما تكفيني لأيام أخرى، فرحت أقطع بعضها وألتهمه في نهم.

طوال الأربع وعشرين ساعة القادمة المملة، لم يأتِ أوغسطس ولا أي شخص، ولم أستطع أن أتهم أوغسطس بالإهمال، لقد أخبرني أنه لن يقدر علَى المرور كثيرا. ما أثار انزعاجي بشكل رئيسي هو أن الماء في إبريقي قد انخفض إلى النصف، وكنت أعاني - كثيرًا - العطش، بعد أن أكلت بحرية من النقانق بعد تعفن لحم الضأن.

شعرت بعدم الارتياح الشديد، ولم يعد بمقدوري حتى القراءة أو الكتابة، ولم تعد لي أي رغبة في النوم، لكنني ارتعدت لفكرة البقاء هنا بلا تغيير للهواء؛ خشية وجود بعض التأثيرات الضارة، مثل تأثير الوقود المتطاير في الهواء المحيط بي في حوض السفينة، في الوقت نفسه أخبرني صوت طنين عمل، وصل إلى أذنيّ كما لو كان من مسافة هائلة ،بعدم وجود عاصفة وأننا أخيرا أصبحنا في وسط المحيط.

لم أستطع أن أتخيل سبب غياب أوغسطس، فقد كنا بالتأكيد متقدمين بما فيه الكفاية في رحلتنا للسماح لي بالصعود أخيرا إلى سطح السفينة بلا مخاوف من إعادتي إلى البرِّ.

اعتقدت أن بعض الحوادث قد حدثت له ومنعته من تفقدي، لكنني لم أفكر في أي شيء من شأنه أن يفسر إهماله لي وأن أبقى سجينا ستة أيام، باستثناء - في الواقع - أنه مات أو سقط فجأة في البحر، وعلى هذه الفكرة لم أستطع أن أتحلى بأي درجة من الصبر، وتسرب الخوف إلى كل ثنايا جسدي.

رحت أفكر في حلٍّ لمعضلتي، وعليه فقد توصلت إلى قرار يرضي مخاوفي، سأنتظر ليوم إضافي آخر، ثم سأرفع الغطاء كما علمني أوغسطس، متلمسا بعض الهواء النقيّ وبعض الامدادات الإضافية من غرفة الطعام

الصغيرة، وربما أجده أمامي ونتجادل ويصب غضبه عليَّ، لكني لن أبقى سجينا بلا مؤن والأخ أوغسطس يمرح فوق سطح السفينة، التي تجوب البحار دون أن يترك لي طعاما يكفيني وماءً يروي عطشي.

وعلى الرغم من كل الأفكار والخواطر والنظريات، إلا إني سقطت في نوم أسود عميق! أو ربما كانت حالٌ من خيبة الأمل أدَّتْ بي إلى تعب شديد ونوم عميق مظلم.

كانت أحلامي أقل ما توصف به هو الشناعة.

كل أنواع الكوارث والرعب أصابتني في أحلامي.

تشكيلة من المآسي: خنق بين الوسادات حتى الموت، من قبل شياطين الجانب الآخر من العالم، حيث حملتني الثعابين الهائلة في أحضانها، ونظرت بصرامة ووحشية في وجهي بأعينها المشرقة المخيفة، ثم الضياع في الصحارى المقفرة بلا حدود.

ومن أكثر الأحلام المذهلة: انتشرت أمامي جذوع أشجار طويلة القامة، رمادية اللون بلا أوراق، ارتفعت في تتابع لا نهاية له بقدر ما يمكن أن تصل له العين، وكانت جذورها مخبأة في مستنقعات واسعة الانتشار، مياهها الكئيبة سوداء كالحة، وبدا أن الأشجار الغريبة تتمتع بروح شبه إنسانية، وكانت تلوح لي بذراعيها العظميين، وكأنها تبكي في المياه الآسنة من أجل الرحمة، وتصدر أصواتا توحي بأشد درجات المعاناة واليأس.

تغير المشهد فجأة، ووجدتني عاريًا ووحيدًا وسط سهول الزهارة المحترقة، عند قدمي رَبَضَ أسد شرس من المناطق الاستوائية.

فجأة فتح عينه البرية الفخيمة، وقفز راكضا نحوي وهو يكشر عن أنيابه اللامعة، ومن حنجرته صدر زئيرٌ جلجل الدنيا حولي.

قفز فوق صدري وألقاني أرضا في عنف، ووقف يحدق بي وأنيابه تلتمع في ضوء الشمس.

وفجأة وجدت نفسي مستيقظا جزئيا، أعي جدران المكان حولي والمصباح الخافت، إلا إنني شعرت بأقدام الوحش لا تزال فوق صدري، فرفعت رأسي لأجدني لا أزال أحلم كما كنت، والأسد أو النمر أو الدب أو أيًا كان، يقف فوق صدري منتشيا، ثابتا لا يتحرك.

لم أكن لأتحرك أو أصدر أي صوت، بينما احتفظ الوحش ـ أيًا كانت صفته التي تتحول كل ثانية ـ بموقفه دون محاولة أن يلتهمني، حينها كنت مستلقيًا عاجزًا تمامًا، وكنت أتخيل وفاتي تحت قدميه من الخوف، وشعرت أن قوتي الجسدية والعقلية تتركني بسرعة، كأنني كنت أهلك، أو سأفقد صوابي من الهلع الشديد.

حاولت النهوض، جسدي ثقيل كمئات البراميل، رؤيتي مشوشة متداخلة، حتى وإن بدأت العيون الخضراء الباهتة للوحش الرابض فوقي تختفي رويدا رويدا، وفي محاولة أخيرة للنجاة، ابتهلت إلى الربِّ الرحيم وأنا أزفر أنفاسي بقوة وأحاول رفع جذعي عن الأرض.

بدا أن صوتي يثير كل الغضب الكامن في هذا الوحش؛ فراح يضغط جسدي للأسفل من جديد، ولكن ما أثار دهشتي، عندما راح يأنُّ بنبرة طويلة ومنخفضة، ثم بدأ لعق وجهي ويديّ بشغف، وبمظاهر المودة والفرح كلها!

شعرت بالحيرة، ورحت أحدق نحوه في ذهول، الآن أرى أمامي كلبي

من نوع (التايجردوج) الذي كان يداعبني بالطريقة نفسها في فناء بيتنا.

إنه صديقي العزيز تايجر.

جرى الدمُ في أطرافي فجأة، وقفزت فرحا من فوق المراتب التي كنت أنام عليها، وأنا احتضن رفيقي وصديقي الودود، وألاعب رقبته المكسوة بالفراء ودموع الامتنان والخلاص تسيل أنهارا علَى وجهي المتعب.

نهضت من النوم مشوش الفكر وسؤال واحد يحوم حول عقلي المنهك، كيف وصل كلبي العزيز تايجر إلى هنا؟ حاولت البحث عن مئات الآلاف من التفسيرات بلا جدوى، ثم قررت أن أكتفي بجمال الفكرة. تايجر هنا ليؤنس وحدتي ويشاركني سجني علَى الأقل.

لسبع سنوات، كان تايجر هو رفيقي الذي لا ينفصل عنِّي، لقد أنقذته عندما كان جروا صغيرا، من براثن ذلك الشرير الصغير الخبيث في نانتوكيت، الشرير الذي كان يقوده بحبل مربوط حول عنقه؛ ليلقي به في الماء من باب التسلية، وبعد ثلاث سنوات ردَّ لي الدين عندما أنقذني من ذلك الوغد قاطع الطريق.

أمسكت الساعة وقربتها إلى أذني لأجدها قد تعطلت عن العمل، رائع، كنت متأكدا بأنني نمت ولكني لم أعرف كم من الوقت قضيته في حالِ نومي المضطرب، نهضت وأنا أحترق من الحمى، وكان عطشي يكاد لا يطاق.

رحت أتحسس الجرة التي تحتوي علَى مخزوني من الماء، لم يكن لدي أي إنارة تمكنني من التأكد بصريا، ويداي لم تخدماني في إشعال ثقاب فوسفوري أضيئ به ما حولي، وبعد أن استطعت السيطرة عليها في آخر الأمر، استغرق المصباح وقتا طويلا حتى يمكنني أن أميز ما يدور حولي.

عند تمكني من تناول الإبريق، اكتشفت أنه فارغ، وأنَّ تايجر، بلا شك قد شرب كل ما وجده من الماء، وكذلك التهم بقايا لحم الضأن الفاسد، الذي أتمكن الآن من رؤية عظمه داخل صندوق نومي الضيق.

راح قلبي يغرق في ظلمات من اليأس كلما فكرت في أني سأقضي وقتا لا يعلمه سوى الله دون ماء، جسدي ضعيف منهك لأبعد الحدود، حتى إن أي حركة بسيطة منِّي كانت تشعرني بالتعب والإرهاق.

ولأن المصائب لا تأتي إلا بالجملة، اهتزت السفينة بشدة، وكأن عملاقا يتلاعب بها، وتدحرجت براميل الوقود لتسد طريق الصعود إلى تلك الفتحة الصغيرة التي توصلني إلى غرفة طعام أوغسطس وأبيه القبطان، وأضيف لمشاكلي الصحية شعوري المتزايد بدوار البحر.

لذا وقبل أن يتحول صندوق نومي إلى فخ كبير قد أهلك فيه خلال أيام، عزمت علَى شق طريقي إلى الباب، ورحت أحث تايجر علَى البحث معي عن ذلك الثقاب الفوسفوري اللامع، لأنني لو حاولت خوض هذه الرحلة وسط براميل الوقود بمصباح كيروسين مشتعل، قد تتحول مأساتي الفردية إلى كارثة جماعية مؤلمة، نعم أريد الخروج من الفخ الذي وقعت فيه، ولكن أريد الخروج حيًّا وليس كأشلاء جثة طافية فوق سطح المحيط.

جائني تايجر وعلبة الثقاب الكبيرة بين شدقيه؛ كي يعطيني ضوءًا ضعيفا كأملي، ورحت أحاول الزحف وشق طريقي وسط البراميل المبعثرة المكدسة، إلا إن ذلك لم يزدني سوى ضعف وإرهاق، حتى إنني سقطت ساجدا علَى وجهي وكدت أغيب عن الوعي من شدة التعب.

رحت أحاول من جديد الزحف إلا إني أدركت أنه من المستحيل أن

أجد فرجة وسط هذه المأساة. لماذا إذًا لا أدفع البراميل؟ فكرة سخيفة سوف تستهلك كل ما تبقى لي من قوة، إلا إنها أملي الوحيد الباقي، وما إن بدأت ـ محاولا ـ دفع أحد البراميل حتى انزلقتُ واصطدم رأسي بأحد زوايا الصندوق المعدنيّ الكبير.

حاولت أن أنهض متمالكا ما تبقى لي من طاقة لا تزن فأرا، إلا إن السفينة دارت من جديد في عنف، فانزلق أحد البراميل فأغلق الطريق أمامي تماما؛ لقد انتهيت. لو كنت في أشدّ قوتي لم أكن لأتمكن من فتح طريق لأعبر فيه نحو الخلاص.

فليرحم الربُّ روح آرثر جوردن!

لم يعد أمامي أي خيارات سوى تسلق هذا الكومة من البراميل ومحاولة البحث عن أي فرجة أحشر بها جسدي لربما أستطيع أن أعبر، لكن هذا الحل يبدو غير منطقيٍّ وغير معقول.

في حالتي المنهكة نفسيا وجسديا وعقليا، من الوارد أن أعبر هذه الكومة فأجد نفسي في متاهة من براميل الوقود المبعثرة، وربما أُعْلَقُ في مكان ضيق تقتلني فيه رائحة الوقود النفاذة ـ التي تملئ صدري المنهك حاليا ـ لكن هذا هو الأمل الوحيد. خياران: بين الموت جائعا عطشانا أو الموت تائها، وجائعا عطشانا أيضا.

نصبت قامتي عازما علَى المحاولة، بالرغم من أن المهمة أكثر خطورة مما تخيلت.

على كل جانب من الممر الضيق، هناك جدار كامل من الخشب الثقيل المدعم بدعائم هشة، والذي قد ينهار في أي وقت، محطما رأسي أو إذا لم يحدث ذلك، فقد يتم غلق مسار عودتي، كما أن الصندوق الذي أنام فيه

أملس الأسطح وصعب التسلق. فكرت أنني ربما لو تسلقته لوجدت مجال رؤية أفضل وطريقا أسهل للزحف، حاولت دون جدوى، بكل وسيلة متاحة أن أصل إلى القمة، علَى أمل أن أجد طريقا سهلا للهرب، وفجأة، شعرت باهتزاز ما حولي وأنا أحاول تسلق ذلك الصندوق، وأن هذا اللوح يتحرك بشكل ما.

مددت يدي في جيبي وأنا أتذكر أنَّ سكين الجيب الحاد لا يزال هناك نائما في جيبي، وحاولت بشتى الطرق أن أنزع اللوح أو أحركه عن مكانه، وبعد نجاحي اكتشفت المفاجاة الكبيرة.

أنَّ مَا خلف هذا الصندوق هو طريق خالٍ ممهد يدور حول المكان، فقط علَي أن أتسلق صندوقين من المؤن حتى أصل إلى ذلك الباب الصغير. تصميم دائري منحني، طريق آخر أدور به حول البراميل المتكومة وأنا منحني الرأس أزحف علَى أربع، ثم ها أنا الآن أقف أسفل باب النجاة.

حللت المسمار في هدوء وأنا أحاذر من رفع الباب فجأة، فربما كان أحدهم يستخدم الغرفة الصغيرة الآن وليس أوغسطس.

ومع ذلك، ظل الباب ثابتا لا يتزحزح! وأصبحت مضطربًا إلى حد ما؛ لأنني كنت أعلم أنه كان يتطلب في السابق القليل من الجهد أو تقريبا لا جهد لرفع هذا الباب. رحت أدفع بقوة، قوة ممزوجة بالحزم والغضب واليأس، باذلا أقصى جهد ممكن، وكان واضحًا لي الآن، أن الثقب قد تم اكتشافه وتسميره فعليًا بسمار دائم، أو أنه قد تم وضع بعض الوزن الهائل عليه، والذي كان من غير المجدي التفكير في إزالته.

أحاسيسي كانت خليطا من الرعب والفزع الشديد. من دون جدوى

حاولت التفكير في السبب المحتمل لما حدث؛ لم يكن باستطاعتي استحضار أي سلسلة مترابطة من الأفكار حيث الموت من العطش، والمجاعة، والاختناق هم أبطال المرحلة، وأن العديد من الكوارث تتكوم فوق رأسي كتلك البراميل المتكومة أمام عينيّ.

لا حلَّ آخر أمامي، سوى أن أبقى هنا حتى أفنى من الجوع والعطش أو أن أعود أدراجي من جديد وأتكوم علَى البطانية إلى جوار تايجر محاولا التفكير في أي طريقة أو الاستسلام للموت، وفنائي هناك وسط اللا شيء.

عدت إلى حيث وجدت تايجر متمددا فوق البطانية ينظر لي وعيناه مليئتان بالحزن، جلست إلى جواره مربتا علَى رأسه، محتضنا إياه؛ علَّه يمنحني بعض الآمان الزائف، الآمان الذي يصطدم بالظلام والعطش والجوع وقلة الحيلة.

بعد أن لعق وجهي ويدي، أصدر صوتا ضعيفا حنونا، وتمدد علَى ظهره، رافعا قوائمه لأعلى، تخيلت أنه قد أصيب في رحلته أو جراء سقوط البراميل في المكان حولنا، فرحت أتفحص قوائمه ومخالبه، لا علامة علَى أي إصابة، تخيلت أنه جائع فمددت له بآخر قطعة من السجق، إلا إنه زام ورفضها وراح يتقلب في الأرض بغرابة ويحك فراءه بها، تفحصت باقي جسده لعَلِّي أجد إصابة لم أستطع أن أكتشفها، إلا إنني لم أجد شيئا!!

ما سر هذا السلوك الغريب يا ترى؟ هل يشعر بالعطش مثلي؟ هل هي وسيلة يعبر بها عن خوفه أو يريد أن يرفه عليَّ بها؟ ولكن هذا العواء الخفيض لا يصدر إلا من كلب متألم!

رحت أمرر يدي من جديد فوق ظهره، ولفت انتباهي ذلك الانتصاب للشعر علَى طول عموده الفقري؛ إنه خيط قماشي صغير مشدود في ذلك المكان، رحت أتتبع الخيط حتى وجدته ينتهي بسلسلة صغيرة جدًّا من المعدن رُبطتْ بالضبط أسفل كتفه اليسرى.

وفي نهاية السلسلة ، وجدت ما أثار دهشتي وأنسَانِي شعور الجوع والعطش.

ففي نهاية السلسلة الصغيرة، أسفل الكتف اليسرى قرب إبط تايجر المكسو بالفراء، وجدت ورقة ملفوفة بعناية

إنها رسالة!

الفصل الثالث

أول ما خطر علَى بالي أن هذه الرسالة أرسلها لي أوغسطس، وأن بعض الأحداث غير المتوقعة قد منعته عن تحريري من زنزانتي، وأنه ربما قد ابتكر هذه الحيلة؛ كي يخبرني بما حدث.

لذا، ممتلئ بفضولي، رحت أفتش كالمجنون عن أعواد الثقاب الفسفورية والمصباح الصغير.

كانت ذكرياتي مشوشة للغاية، علَى الرغم من أنني أتذكر وضعي لهذه الأغراض في مكان محدد قبل أن أقع في فخ المحاولة بلا جدوى للهروب من هنا، إلا إنني لم أعد أتذكر الآن، ربما من وقع الصدمة علَيَّ، وقضيت ساعة كاملة أبحث فيها، وتصاعد إحساسي بالخوف من ذلك المصير المجهول من جديد.

وعلَى امتداد بصري المحدود ـ بينما أتحسس طريقي ـ لاحظت ضوءا خافتا للغاية يأتي من اتجاه الصندوق.

شعرت بالدهشة تملأني، وسعيت إلى شق طريقي نحو ذلك الضوء،

حيث بدا لي أنه علَى بُعد أقدام قليلة من مكاني، وما كدت أتحرك حتى تهت عن مكان الضوء الخافت، وقبل أن أتمكن من رؤيته مجددًا، اضطررت أن أعود إلى جانب الصندوق متحسسا حتى أستطيع ملاحظته من جديد.

وبحذر شديد، وجدت أنه من خلال التقدم ببطء وبعناية كبيرة، في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي بدأت فيه في البداية ، تمكنت من الاقتراب من الضوء، مع الاحتفاظ برؤيتي له، ثم اتجهت إليه مباشرة ـ بعد أن سلكت طريقي عبر التواءات ضيقة لا حصر لها ـ ووجدت أنه يصدر من بعض شظايا أعواد الثقاب الفسفورية الملقاة بجوار برميل فارغ.

كيف وصلت أعواد الثقاب إلى هذا المكان؟!

وبجوارها وجدت قطعة أو اثنتين من الشمع متكسرة، يبدو أن تايجر راح يأكل الشمع من فرط جوعه عندما كنت أهلوس.

محملا بأطنان من اليأس، جمعت ما تبقى من أعواد الثقاب وعدت متحسسا طريقي من جديد نحو الصندوق الذي أسكنه، لأجد تايجر جالسا كما تركته منذ لحظات.

لم أعرف ما عليَّ القيام به، لا يوجد مصدر للضوء، لن أتمكن من قراءة أيّ من هذه الحروف، بل إنني بالكاد أميز أن هناك ورقة بيضاء في يدي، من حوافها التي أرى أطرافها، فقط بسبب اعتياد شبكيتي علَى الضوء.

كان سجني شديد الظلمة والكابة، ورحت أفكر في أكثر الطرق سخافة ولا معقولية للحصول علَى الضوء، وكأنني رجل يحلم في نومة عميقة بعد أن تعاطى الأفيون بكثافة، وراحت الصور تومض في عقلي المنهك واحدة تلو الأخرى.

في النهاية، خطرت لي فكرة ـ والتي تبدو عقلانية ـ فوضعت الورقة علَى ظهر أحد الكتب، وجمعت شظايا عيدان الثقاب الفسفورية التي أحضرتها من جوار البرميل، ووضعتها فوق الورقة، ثم بكف يدي، فركت البقايا بسرعة ولكن بثبات.

بدأ ضوء واضح ينتشر علَى الفور في جميع أنحاء الورقة إلا إنني لم أستطع أن ألمح أي كلمات، فقط فراغ أبيض كئيب، وتلاشت الإضاءة في بضع ثوان، وتوفي قلبي في داخلي كما توقف الضوء الخافت عن السطوع.

مزقت الورقة وألقيتها بعيدا في يأس، أنفي صار شبه مسدود وحلقي جاف لايقوى علَى بلع ما تبقي لي من مؤن ـ بسكويت البحر المالح اليابس لا غير ـ وعيناي زائغتان متعبتان من كثرة فتحهما علَى اتساعهما.

إلا إنني بعد ساعات من الأوهام والتخاريف والتفكير المختلط، أنار عقلي فجأة بفكرة عاقلة أخيرا.

ربما كنت فركت الجهة الخاطئة من الورقة، ربما كانت الرسالة مكتوبة علَى الجهة الأخرى.

لذا وعلى الفور، تحسست مكاني مسرعا، لأجد قطعة من طرف الورقة جانبي، فوضعتها تحت أنف تايجر وربت علَى رأسه حتى يفهم أني أطلب إحضار بقية الأجزاء، فانطلق يبحث حولنا وعاد لي بقطع ثلاث، كونت الرسالة الممزقة.

لحسن الحظ، لم أجد صعوبة في العثور علَى ما تبقى من أجزاء قليلة من الثقاب، فلقد علمتني الصعوبات التي واجهتها ضرورة توخي الحذر، وأخذت الآن الوقت الكافي للتفكير فيما كنت علَى وشك القيام به.

كان من المحتمل جدًّا ـ حسب رأيي ـ كتابة بعض الكلمات علَى هذا الجانب من الورقة التي لم يتم فحصها؛ ولكن أي جانب كان ذلك؟ لم يمنحني تركيب القطع معًا أي دليل علَى أي جانب، علَى الرغم من أنه أكد لي أن الكلمات ـ إنْ وجدت ـ سيتم العثور عليها جميعًا علَى جانب واحد، وترتبط ـ بطريقة مناسبة ـ ببعضها بعضًا.

كانت هناك ضرورة أكبر للتأكيد علَى صحة نظريتي؛ لأن الثقاب الفسفوري المتبقي لن يكون كافيًا علَى الإطلاق لمحاولة ثالثة.

لذا وضعت الورقة علَى الكتاب كما كان من قبل، وجلست بضع دقائق أدور الأمر في ذهني.

وأخيرًا، اعتقدت أنه لابد أن يكون للجانب المكتوب عليه بعض التباين علَى سطحه وهو ما قد يمكّنني من التمييز.

لقد عقدت العزم علَى إجراء التجربة مهما حدث، ومررت أصبعي بعناية فائقة علَى الجانب الذي يواجهني الآن، ومع ذلك، لم يكن هناك شيء ملموس، فقلبت الورقة وضبطتها علَى الكتاب، ربما كان هذا هو الجانب الصحيح في النهاية.

فركت الفسفور، وراح التوهج يبدأ.

بعد أن تم فركها في الفسفور، في هذه المرَّة ظهرت عدة سطور من الحبر الأحمر، الذي أصبح مرئيا بوضوح.

كان الضوء مشرقا للحظات ـ بالرغم من كونه مشرقًا بدرجة كافية ـ إلا إنه كان مؤقتًا، ومع ذلك، لو لم أكن متحمسًا للغاية، لكان هناك متسع من الوقت الكافي؛ لكي أطلع علَى الجمل الثلاث كاملة، لأنني رأيت هناك ثلاث جمل.

ومع ذلك، وبسبب قلقي وتسرعي لقراءة كل هذا مرَّة واحدة، نجحت فقط في قراءة سبع كلمات من السطر الأخير، والتي ظهرت كالتالي:

«الدم... حياتك تعتمد... البقاء صامتا»

ما معنى هذا التحذير الذي حاول صديقي نقله، فإن هذا النصح، علَى الرغم من أنه كان ينبغي أن يكشف عن قصة لكارثة لا توصف، إلا إنه لم يؤد إلا لإثارة خوفي ورعبي علَى نفسي، وليس علَى ما أصاب أوغسطس أو الآخرين.

و«الدم» ـ أيضًا ـ هذه الكلمة التي تأتي مرتبطة في جميع الأوقات مع الغموض والمعاناة والإرهاب.

تسببت المقاطع الغامضة في إثارة كآبتي وحزني ومخاوفي من جديد.

كان لدى أوغسطس، بلا شك، أسباب وجيهة تدعوه لإخفائي كل هذا الوقت، حتى أنني فكرت في حوالي ألفيّ سبب وجيه، لذلك لا أتذكر أيًا منها الآن!

في نوبة جديدة من اليأس رميت بنفسي مرَّة أخرى علَى المرتبة، لكنني لم أشعر بالراحة من كل هذا إلا بفواصل زمنية مؤقتة من التفكير ومحاولة استيعاب ما يحدث وما قد تعنيه تلك الكلمات.

ثم كيف جاء تايجر إلى هنا؟!

أنا هنا بلا مؤن، بالقليل من الماء الذي سينفد في أقل من أربع وعشرين ساعة، بلا أي طعام، لكن أكثر ما أثار دهشتي وربما رعبي هو ذلك السلوك الذي أتى به الكلب.

كان يفرك الفسفور المتبقي بأنفه ويزمجر، يزمجر ويرفع رأسه ناحيتي كما يبدو أنه محاولة لإثارة انتباهي، صرخت فيه طالبا منه الهدوء، فتحولت زمجرته إلى أنين خفيض، واستلقى إلى جواري وأسنانه تصطك، لا بد أنه في حاجة إلى الماء أو ربما علَى وشك الإصابة بالسُّعارِ، فكرت في إراحته من آلامه؛ لكن ذلك ليس حلا مطروحا في الوقت الراهن.

نهض وذهب مستلقيا بعيدا عني، أرى عينيه الشرستين تلمعان في الظلام، وأنيابه البيضاء تظهر من طرف فمه، كان علَى وشك مهاجمتي!

تناولت المتبقي من جلد الخنزير الجاف الذي كان يغلف النقانق يوما ما، وزجاجة النبيذ التي تبقى ربعها، وجرعت جرعة كبيرة من الماء، ثم حملت السكين وأنا أقترب منه، لكن الكلب عاجلني بقفزة صدمت كتفي اليسرى، وألقت بي علَى الأرض، ثم برك فوقي ولعابه يسيل علَى شدقه ويغرق عينيّ، كان لا بد لي أن أقاوم، وفي نوبة من نوبات حلاوة الروح غرست السكين في جانب الكلب المسكين ودفعته دفعا، ثم نهضتُ وأنا أمسك زجاجة النبيذ وقفزت فوق البراميل بكل ما أوتيت من قوة وصوت أنينه يصم أذنيّ.

نزلت خلف البراميل بالقرب من ذيل التوجيه، في مساحة ضيقة بين الأخشاب، واكتشفت ـ ساعتها ـ أنني أسقطت قطعة الجلد خلفي وأنني غير قادر علَى العودة. سقوطي أفقدني اتزاني، وحلقي جاف وقواي منهارة تماما، لذا في نوبة من نوبات الجنون جرعت كل النبيذ في الزجاجة ثم ألقيت بها خلف البراميل وانهارت قواي ساقطًا علَى الأرض.

إلا إنني ـ وكنت أظن أنه حلم ـ سمعت صوتا يهمس باسمي خلف الأخشاب، صوت أكاد أميز فيه نبرات أوغسطس. لا بد أنني

أهلوس! الصوت يأتي مصحوبا بمحاولة عبث بالخشب أشبه بفأر يحاول خدش حجر.

حاولت رفع صوتي أجيبه، إلا إن صوتي لم يخرج قط، الكلمات حُبِسَتْ في حلقي، حاولت الصراخ لكن صوت العبث بالخشب وصوت صديقي قد اختفيا تماما.

اللعنة عليك يا آرثر، لقد خارت قواك؛ حتى عندما جائتك النجدة لم تقدر علَى تلبيتها، الآن سيتركني صديقي ظانًّا أنني هلكت وانتهيت، سأموت وحيدا وأتعفن كما سيتعفن الكلب المسعور.

إلا إنني سمعت الصوت من جديد.

« آرثر، أجب بحق الشيطان».

في هذه المرَّة استجمعت قواي وصرخت، صرخت بصوتٍ عالٍ، صرخت كما لم أصرخ من قبل

« اصمت بحق الرب، توقف عن الصراخ، أنا قادم»

صوته بدا كأفضل قطعة موسيقية سمعتها.

ثم سمعت أصواتا متعددة وأصوات قطع وقطم. أصوات بدت لي كأنها ترانيم الملائكة، ثم فتحت كوة ما في الأخشاب وخرج منها أوغسطس، واضعا زجاجة ماء علَى طرف فمي الجاف، فرحت أعب منها بلا حساب حتى غرقت ثيابي وجسدي بالماء أكثر مما شربت.

ثم ناولني حبتين من البطاطس المسلوقة الباردة، التهمتهما علَى قطمتين، وأسند جسدي إلى الأخشاب ليجلسني.

شعاع ضوء خفيف تسلل من خلف وجه صديقي، فبدا لي كأنه مصدر النور الذي أنار ظلمتي.

«استرح قليلا يا صديقي». قالها في خفوت. «ولا تقلق، سوف أروي فضولك وأخبرك كلَّ شيء».

الفصل الرابع

استقرت السفينة في البحر يوم العشرين من يونيو ـ كما أتذكر ـ وهذا يعني أنني كنت هناك محبوسا مدة ثلاثة أيام قبل الإبحار!!

حسب كلامه، كانت الحركة كثيرة جدًّا والصخب علَى أشده في السفينة استعدادا للإبحار؛ لذا لم يستطع زيارتي ساعتها، وإلا اكتشف أمر حيلتنا الصغيرة، وربما ألقوا بي إلى البحر.

عندما جاء وهمس لي بالقرب من أخشاب الحوض الرئيسي، كنت قد أكدت له أنني كنت أبلي بلاءً حسنا قدر الإمكان، وعلى الرغم من ذلك، لليومين المقبلين شعر بقليل من عدم الارتياح من ناحية حالتي الصحية، ومع ذلك ما يزال يراقبني؛ متوقعا سقوطي في أيّ لحظة.

كان ينوي، طوال أربعة أيام ـ ولعدة مرَّات خلال اليوم ـ أن يخبر والده بالمغامرة التي دبرناها، لكننا ما زلنا علَى مسافة قريبة من نانتوكيت، ولم يكن من اليقين المعلوم لنا، ما إذا كان الكابتن برنارد قد يعيدني إلى الشاطئ فورا، إذا اكتشف أنني موجود علَى سطح السفينة.

إضافة إلى ذلك ـ عند التفكير في المسألة أكثر ـ فإن أوغسطس ـ كما أخبرني ـ لم يتخيل أنني قد أتردد، في مثل هذه الحال التي كنت عليها، للصراخ وقرع الغطاء الخشبيّ طوال هذه الفترة.

لذا فقد تركني بعض الوقت هناك، حتى أتيحت له الفرصة لزيارتي، كان ذلك حسب ما قال في اليوم الرابع من بداية رحلتي داخل ذلك القبر المظلم، وعندما زارني، كان صوت شخيري يصم الآذان ـ كما قال ـ وبأنه نادى علَى اسمي مرَّات عديدة، إلا إنني لم أستجب لنداءه، فأغلق الغطاء ورحل.

لكنني لاحقا، وبناء علَى مقولاته وعلَى حساباتي، ربما لم أكن قد استيقظت نهائيا خلال هذه الأيام، وربما كنت أتوهم كل ما حدث لي من الأساس!

لذا، فقد أغلق الغطاء الخشبي ساعتها، وعزم علَى الرحيل وزيارتي في وقت آخر، وعندما جاء بعد ساعات قليلة، وهبط برأسه من الفتحة، لم يسمع لي صوتا ولم يرَ ضوءا يأتي من عند الصندوق، ثم سمع تلك الجلبة تأتي من خارج الجناح، فأغلق الغطاء مسرعا وانشغل بالأصوات التي تقترب من الغرفة، وما إن أغلق الغطاء حتى ومضت أمامه تلك الطلقة القادمة من مسدس قريب، ثم اللكمة التي ألقت به علَى الأرض مباشرة فوق الغطاء.

يد قوية أمسكت به علَى أرضية الحجرة مع قبضة محكمة علَى حلقه، ومع ذلك كان قادرا علَى رؤية ما كان يجري من حوله.

رأى والده، مقيد اليدين والقدمين، وكان مستلقيا إلى جوار قدم مساعده الأول، رأسه مائلٌ إلى الأرض، وجرح عميق في الجبهة ينزف

بلا انقطاع، صامت بلا أيّ حركة وكأنه مات!

بينما مساعده الأول، يقف فوق رأسه مع تعبير شيطاني ساخر، وهو يفتش جيوبه، ويخرج منها محفظة كبيرة وجهازا يشبه البوصلة، عرف فيما بعد أن اسمه الكرونوميتر.

بينما حولهم، سبعة من طاقم السفينة ـ ومن بينهم الطباخ الأسمر ـ يفتشون الجناح بحثا عن أسلحة، وعندما وجودها تسلحوا بها كأنهم علَى وشك خوض معركة.

ثم ذهب الأشرار إلى سطح السفينة، آخذين صديقي معهم بعد أن كبلوا ذراعيه وراء ظهره.

تقدموا مباشرة إلى مُقَدَّم السفينة، وعندها يقف اثنان من المتمردين الذين يحملون فؤوسا، واثنان أيضا عند القمرة الرئيسية.

وعندها صرخ المساعد المتمرد: «هل تسمع ذلك الصوت بالأسفل، اقفز واندمج معه الآن، ولا تتذمر أو تصرخ، فلا أحد سينجدك».

مرَّت بضع ثوانٍ، حتى تقدم رجل إنجليزي من عمال السفينة، وتحدث بهدوء إلى المساعد؛ طالبا أن يفدي حياة أوغسطس بحياته!

الرد الوحيد كان ضربة من فأس علَى مُقَدَّم رأسه، ثم رفعه الطباخ الأسمر علَى بيده كما يرفع طفلا، وبلا رحمة ألقاه إلى البحر.

سماع دوي ارتطام جسده بالماء، أعطى تحذيرا بليغا للجميع، لاتحاولوا فعل أي شيء، الأمر قد حسم.

حالٌ عامةٌ من الضجيج والهرج اجتاحت باقي طاقم السفينة في الأسفل، ستة منهم ـ ممن لم ينضموا إلى ذلك التمرد ـ اندفعوا إلى الباب

المؤدي إلى مُقَدَّمِة السفينة، لكن المساعد زعيم التمرد أغلق الباب المؤدي قبل أن يصل الباقون، خلف هؤلاء الستة، وراح يحاول حثهم علَى الانصياع له ولمجموعته؛ حفاظا علَى حياتهم.

وعند محاولتهم الهجوم عليه، تعامل بقية المتمردون معهم، وتم إلقائهم علَى الأرض بعد ضربهم بالفؤوس والعصي، وهم منزوعي السلاح وقليلي الحيلة، لكن صراخهم جذب البقية، وراح جميع البحارة يصعدون إلى مَقَدَّمِ السفينة.

لكن، ولأن الذكاء يغلب العدد، وقف اثنان من المتمردين علَى الباب المؤدي للمقدمة من الممر الذي يؤدي إلى القمرة الرئيسية، وراحا يضربان كلَّ من يمر، واحدا تلو الآخر، بلا رحمة أو شفقة، وكأنها مجزرة ، نتج عنها قتل اثنين وعشرين، بحارا وعاملا مسكينا من عمال السفينة والصيادين الفقراء، بينما أوغسطس راقدا علَى بطنه مكبلا، ومعه أربعة من الستة الذين حاولوا قتال المتمردين.

وبعد أن نجح المساعد في إخماد التمرد العكسي، ذهب المساعد المتمرد ـ الذي يسمي نفسه قبطانا الآن ـ وأحضر مع الطباخ الأسمر برميلا من الروم، وراحوا يحتفلون بنجاح خطتهم الشريرة.

ثم بدأ النزاع عن مصير المتبقين من ركاب السفينة، الناجين الذين يرقدون مكبلين علَى بعد أربع خطوات، ويمكنهم سماع مصيرهم الذي يتحكم فيه الآن مجموعة من البحارة الثملين!

وراحت بعض الأصوات ـ التي لم يؤثر عليها الخمر بعد ـ تتعالى مقترحة إطلاق سراح الأسرى تمامًا، بشرط أن يتعهدوا بالانضمام إلى التمرد ويمكنهم ـ لاحقا ـ تقاسم الأرباح.

ومع ذلك، فإن الطباخ الأسمر ـ الذي كان من جميع النواحي شيطانًا مثاليًا، وكان يبدو أنه يمارس قدرًا كبيرًا من التأثير ـ إن لم يكن أكثر من المساعد قائد التمرد ـ لم يبدو عليه أنه استمع أو اهتم لأي اقتراح من هذا النوع، وكان مصممًا علَى إتمام عمله بالكامل؛ القتل.

لحسن الحظ، كان صوت من لم يعبث العطشُ إلى الدماءِ برؤوسهم أعلى حتى الآن، يقودهم رجل كان رئيسا لفريق بحارة، يدعى ديرك بيترز

ديرك بيترز، ابن لرجل من الأمريكيين الأصليين أو الهنود؛ ينتمي إلى قبيلة أبساروكاس، كانوا يعيشون في التلال السوداء عند أطراف ميسوري، وكان والده تاجر فراء، كما أعتقد أو علَى الأقل مرتبط بطريقة ما بالمشاركات التجارية الهندية علَى أطراف نهر لويس، وعلى الرغم من أنه صموت وقليل الكلام، إلا إن بيترز كان أحد أكثر الرجال الذين رأيتهم في حياتي شراسة في المظهر والأفعال.

كان قصير القامة، لا يزيد ارتفاعه عن أربعة أقدام وثماني بوصات؛ لكن أطرافه كانت من النوع الهرقلي الخشن، كانت يداه ـ علَى وجه الخصوص ـ سميكتينِ للغاية وكبيرتي الكفيّنِ؛ لدرجة يصعب معها الاحتفاظ بالشكل البشري لليد، وكانت ذراعاه ـ وكذلك ساقاه ـ مقوستين بأكثر الطرق تفردًا، وبدا أنه لا يمتلك أي مرونة في الحركة، بينما كان رأسه مشوهًا بالقدر نفسه، حيث كان ذا حجم هائل، وأصلعا تمامًا.

كأنه غوريلا بشرية صلعاء.

كان معروفا في أرجاء نانتوكيت بأنه شرس صعب المراس، يستخدم قوته البشرية بلا تفكير في جني رزقه، لكنه علَى متن جرامبوس، علَى

ما يبدو ـ وعلى الأخص في وقت التمرد ـ كان مليئا بمشاعر السخرية أكثر من أي شيء آخر، متمردا علَى سبيل المتعة في إذلال السادة الأغنياء أصحاب السفن والحط من قدرهم.

ربما استفضتُ في الحديث عن ديرك بيترز؛ لأنه كان العامل الرئيسي في الحفاظ علَى حياة أوغسطس وعلى حياتي لاحقا، ولأنه سيكون لديّ فرصة متكررة لأذكره فيما بعد في سياق حكايتي ورواياتي، والتي في أجزاءها الأخيرة سوف يتم تعريفها علَى أنها حوادث ذات طبيعة خارجة تمامًا عن نطاق التجربة الإنسانية، ولهذا السبب فهي أبعد عن حدود المصداقية الإنسانية، ولكني سأتابع الحكي، يائسا من الحصول علَى مصداقية لكل ما سأقوله، لكنني واثق من أنه بالوقت وبالتقدم العلميّ للتحقق مما قولته، ستثبت مصداقيتها لاحقا.

بعد الكثير من التردد واثنين أو ثلاثة من المشاجرات العنيفة الصاخبة، تقرر في النهاية أن جميع السجناء ـ باستثناء أوغسطس، الذي أصر بيترز بطريقة صارمة لا تقبل الخلاف علَى إبقائه حيًّا ـ يجب أن يبيتوا في بطن واحد من أصغر الحيتان!

نزل المساعد قائد التمرد إلى المقصورة لمعرفة ما إذا كان الكابتن برنارد لا يزال حيًّا، ثم جلبه إلى السطح. كان الكابتن شاحبا كالموت، لكنه تعافى إلى حدٍّ ما من آثار جراحه، وحاول أن يتحدث إلى المتمردين بصوتٍ لا يكاد يسمع، وناشدهم ألا يكملوا ما فعلوه، بل ناشدهم بالعودة إلى واجباتهم، ووعدهم بانزالهم أينما اختاروا، وألا يأخذ أي خطوات لتقديمهم إلى العدالة، لكنه بدا وكأنه يتحدث إلى الرياح.

أمسكه اثنان من المتمردين من ذراعيه، ثم اقتاد البقية الرجال الأربعة

المكبلين بجوار أوغسطس إلى المقدمة، علَى مرأى من أوغسطس الذي اندمج في صلاة محمومة طالبا من الرب أن يسمحوا له حتى بوداع أبيه قبل أن يُلقَى إلى البحر.

لكنَّ المتمردين، وبعد مشاورات عديدة، اختاروا لهم عذابا طويلا بدلا من موت مريح سريع، قرروا أن ينزلوا إلى البحر داخل قارب النجاة الصغير، بلا شراع، وبلا مجداف، وبلا بوصلة، فقط بحفنة من البسكويت البحري المالح وجرة ماء، ثم قطعوا حبل القارب الصغير وأطلقوه في البحر.

بحلول هذا الوقت ـ كان وقت قدوم الليل ـ لم يكن هناك قمر ولا نجوم في السماء بل بحر مسطح وقبيح يجري، بالرغم من أنه لم يكن هناك قدر كبير من الرياح، إلا إن القارب سرعان ما اختفى عن الأنظار.

حدث هذا، ومع ذلك، حسب حسابات أوغسطس السريعة التي سمعها من والده، في دائرة العرض ٣٥ درجة ٣٠ (شمالًا ، وخط الطول ٦١ درجة ٢٠) غربًا، وبالتالي ليس علَى مسافة كبيرة جدًّا من جزر برمودا، ربما يجدون من ينقذهم من الضياع في البحر.

غزت الفكرة عقل وروح أوغسطس، وراح يتمنى من كل قلبه أن يكون محقا، علَى الأقل ربما يجدون الساحل قريبا، أو أن تصدمهم سفينة كبيرة فتلاحظهم وينجوا والده من المصير الأسود.

والآن، أكملت السفينة طريقها إلى الجنوب الغربي، حيث تبتعد عن حملات القراصنة التي تنتشر من جزر الرأس الأخضر حتى بورتريكو، والتي يعرفها البحارة المتمردون جيدا.

لم يكن هناك أي اهتمام بأوغسطس، الذي كان ـ علَى الرغم من أنه

غير مقيد ـ يعني الذهابَ إلى أي مكان غير المقصورة. لقد عامله ديرك بيترز بدرجة من اللطف، وفي إحدى المرَّات أنقذه من وحشية الطاهي الأسمر، غير المبررة.

كان وضعه لا يزال واحدا من أكثر الحالات خطورة، حيث كان الرجال في حال سكر شبه دائمة، منتشين بما أنجزوه، ولم يكن هناك أي اعتماد علَى استمرارهم في إهماله أو عدم الاهتمام بحاله، ربما قرروا قتله في أي وقت.

لكنه كان في الوقت نفسه، قلقا بشدة علَى وضعي في باطن السفينة، لقد أخبرني أنه لم يكن يهدأ بالا من كثرة قلقه علَى حالتي، وأنا صدقته، فصداقتنا ليست موضع شك.

لقد قرر أكثر من مرَّة أن يخبر المتمردين بسرِّ وجودي علَى متن السفينة، لكنه أمسك لسانه عن ذلك، جزئيا من خلال تذكر الفظائع التي كان قد مر بها بالفعل وعن مصيري إذا ما قرروا قتلي، وجزئيا من خلال الأمل في التمكن من إعطائي فرصة للنجاة.

وفي ليلة اليوم الثالث منذ حدوث التمرد هبت عاصفة قوية من جهة الشرق، وتم استدعاء جميع البحارة إلى السطح للمساعدة، وخلال الارتباك الذي تلا هذا، شق طريقه إلى الأسفل دون ملاحظة، إلى كابينة الاستراحة، لكنه امتلأ رعبا عندما أكتشف أن هذه الاستراحة قد تم تحويلها إلى مكان تخزين لمجموعة متنوعة من متاع البحر وأثاث السفن والحبال القديمة، التي تم تخزينها بعيدًا؛ لإفساح مكان في السفينة، وأن كل هذه الأغراض، تتكدس بالذات فوق الغطاء الخشبي، للفتحة التي خبأني فيها، والتي من المستحيل إزالتها دون أن يلاحظ المتمردون ذلك.

عاد إلى السطح يجر أذيال الخيبة، عندما سد طريقه أحد المتمردين زاعقا فيه، يسأله وهو يهزه في عنف عما كان يفعله في الاستراحة، وكاد يفتك به لولا تدخل دريك بيترز من جديد.

لكنهم قيدوا أوغسطس بالأصفاد، وقيدت قدماه ببعضهما بعضا بالحبال، وألقي به إلى جوارِ حائط في الممر الموصل بين الاستراحة الرئيسية وأسفل مُقَدَّمِة السفينة[1] غير مسموح له بصعود السفينة من جديد، بينما صرخ الطاهي الأسمر فيه بوحشية منبها إياه أن السفينة أصبحت سجنه الأبدي، وأنه لن يخرج من هنا حتى يخرجوا هم منها.

لكن يبدو أن ما فعله الطاهي مع أوغسطس، كان أول الطريق للوسيلة التي ستنقذ حياتي لاحقا.

---

(١) يعتبر هذا الممر من الأماكن غير المستخدمة بشكل كبير داخل السفينة، حيث يعتبر مكانا لتخزين المؤن الخفيفة أو الحبال، وهو يقع أسفل المقدمة مباشرة ويمكن للجالس فيه رؤية كل من يصعد إلى السطح أو ينزل للقمرة الرئيسية أو الاستراحة الرئيسية (المترجم).

الفصل الخامس

لبضع دقائق بعد أن تركه الطاهي مقيدا، تملك اليأس أوغسطس، ولم يكن له أمل في أن يرى المرسى من جديد وهو علَى قيد الحياة.

لقد توصل الآن إلى قرار واضح: أن يخبر أول من يراه من الرجال عنِّي، وأن يتركني أغتنم فرصتي مع المتمردين بدلاً من الهلاك بالعطش، فسجني بدأ منذ عشرة أيام، ولم يكن إبريقي من الماء كافيا حتى لأربعة.

عندما كان يفكر في هذا الموضوع، ولجت الفكرة مرَّةً واحدة في رأسه، قد يكون من الممكن التواصل معي عن طريق الحوض الرئيسي الذي يقع فيه سجني.

في أي ظروف أخرى، كانت صعوبة وخطر الفعل ربما منعاه من المحاولة؛ لكنه الآن لديه احتمال ضئيل للحياة، وبالتالي القليل ليخسره، لذا فقد اتجه عقله بالكامل نحو تنفيذ هذه المهمة مهما كانت العواقب.

كانت الأصفاد بالنسبة له هي العائق الأول.

في البداية لم ير أي طريقة لإزالتها؛ ولكن بعد فحص دقيق، اكتشف

أن الحديد يمكن أن ينزلق عن يديه الأصغر من مقاس يد الرجل العادي البالغ، مع بذل القليل من الجهد وتحمل الألم، بمجرد الضغط علَى يديه من خلالهما.

وبعد أن نجح في ذلك، قام بفك الرباط عن قدميه، ثم أعاد ربطه حتى يمكنه إدخاله في قدميه بسرعة في حال إن جاء أحدهم فجأة، والأصفاد معلقة بيده اليسرى بينما تحررت اليمنى فقط. ثم شرع في فحص الحاجز الخشبي المؤدي إلى الحوض الرئيسي.

كان عبارة عن لوح صنوبر ناعم، يبلغ سمكه بوصة واحدة، ورأى أنه ربما يواجه مشكلة صغيرة في شق طريقه عبر هذا اللوح.

لكنه سمع صوتا يأتي من أعلى، من عند مُقَدَّمِ السفينة، فأدخل العقدة في قدميه، وجلس علَى الأرض مسرعا وهو يضع يده اليمنى من جديد في الأصفاد، فقط ليجد ديرك بيترز ينزل إلى الممر يتبعه الكلب تايجر، الذي ما إن رأه حتى نبح وربض على قوائمه في الممر.

تم إحضار الكلب من قِبل أوغسطس قبل الإبحار مباشرة، أوغسطس العزيز الذي كان يعرف ارتباطي بالحيوان، وكان يعتقد أنه من دواعي سروري أن يكون معي أثناء الرحلة.

منذ التمرد، لم يره أوغسطس قبل ظهوره مع ديرك بيترز، وقد أيقن بخسارته، علَى افتراض أن بعض الأشرار الخبيثين الذين ينتمون إلى عصابة المساعد المتمرد قد ألقوا به إلى البحر، لكن علَى ما يبدو بعد ذلك أنه زحف إلى حفرة أسفل القارب الصغير، ولم يتمكن من تخليص نفسه منه، وليس لديه متسع للدوران.

أخرجه بيترز أخيرًا، ومع وجود نوع من الشعور الجيد لدى صديقي

تجاه تصرفات بيترز مؤخرا، فقد شكره علَى إحضاره له كرفيق لأوغسطس خلال حبسه، وتركه بيترز ومعه في الوقت نفسه بعض الوجبات السريعة والبطاطس، مع جرة من الماء، ثم ذهب إلى سطح السفينة، ووعد أن يأتي بشيء من الطعام في اليوم التالي، وأوصى صديقي أن يهدأ ويستكين حتى لا يهدد حياته أي من هؤلاء السكارى علَى السطح.

عندما رحل، حرر أوغسطس يديه من الأصفاد وحرر قدميه. ثم راح يبحث بين المراتب التي كان يرقد عليها، حتى عثر علَى سكينه الصغير الذي خبأه فيها سابقا قبل التمرد، ثم بدأ يقطع بقوة عبر أحد ألواح التقسيم، بأقرب ما يمكن إلى مخزن المرساة[1].

اختار أن يقطع هنا، لأنه إذا قوطع فجأة، فسيكون قادرًا علَى إخفاء ما تم فعله من خلال تغطيته بالمراتب الكبيرة المتكومة إلى جواره، ومع ذلك، لم يقاطعه أحد خلال الفترة المتبقية من اليوم، وبحلول الليل كان قد قام بصنع القسم الأول من الفتحة.

ومع ذلك، فقد كان قريبًا من الفجر، قبل أن يكمل القسم الثاني من مهمته في صنع فتحة في اللوح ـ التي كانت تقريبًا بارتفاع قدم فوق القسم الأول ـ مما يجعل الفتحة كبيرة جدًّا بما يكفي للسماح بمروره إلى الحوض الرئيسي.

بعد أن وصل إلى هناك، شق طريقه ـ دون أي عناء يذكر ـ في الفتحة الرئيسية السفلية بين أخشاب المقدمة نحو الحوض الرئيسي، علَى الرغم

---

(١) يمكن الدخول للحوض الرئيسي من الممر عن طريق فتحة يمكن حفرها في اللوح الفاصل بين الممر ومكان تخزين مرساة السفينة، ثم الوصول إلى الحوض الرئيسي عن طريق الزحف في ممر ضيق بين أخشاب تدعيم المقدمة إلى الأسفل (المترجم).

من أنه اضطر إلى الزحف علَى طبقات من الواقيات الزيتية، ولم يتبق سوى مساحة كافية لجسمه بالكاد.

عند الوصول إلى الفتحة، وجد أن تايجر قد تبعه، وهو يضغط جسده المكسو بالفرو بين صفين من الصناديق. ومع ذلك الإنجاز، فقد فات الأوان لمحاولة الوصول إلى محبسي قبل الفجر، حيث تكمن الصعوبة الرئيسية في المرور عبر شبكة الأخشاب في الجزء السفلي من المقدمة.

لذلك قرر العودة، وانتظر حتى الليلة التالية، وحاول توسيع الفتحة بشكل مرن، بحيث يكون لديه أقل قدر ممكن من الصعوبة عندما ينبغي أن يأتي مرَّة أخرى.

وما إن عاد وحاول تخبئة الفتحة، حتى وجد تايجر يأنّ أنينا متواصلا، ويحاول بمخالبه خدش الفتحة، وكأن الحيوان الطيب شعر بوجودي هناك، علَى مقربة من ذلك المكان.

خطرت بباله الفكرة، لربما كان من الأفضل أن يرسل لي رسالة تحذرني من إصدار أي جلبة وكشف أمري للطاقم قبل أن يقدر هو علَى الوصول إليَّ، ولكن من أين يأتي بورقة وقلم؟!

ثم تذكر الرسالة المزورة، التي كانت سببا في إقناع أبي ليتركني أغادر المنزل لبعض الوقت، سوف يكتب علَى ظهر الورقة إذًا، وبقطعة خشبية ربما استطاع أن يخط بعض الحروف فوق الورقة.

لكن لا شيء ظهر، كان لا بد من توفير حبر، أو بديل للحبر، وكان الحل المؤلم الذي توصل إليه أوغسطس، جرح صغير في أصبعه بالسكين الرفيع، بين الظفر والجلد، ليسيل قليلٌ من الدماء، ويستخدمها كحبر

بديل في كتابة رسالته إليَّ. إذًا، كتبت الرسالة الآن، رسالة أوضحت أن تمردًا قد حدث، وأن الكابتن برنارد قد أرسل بعيدا عن السفينة، وأنه لا يجب أن أجازف بالقيام بأي فعل أحمق.

ثم أنهى الرسالة بهذه الكلمات: «لقد خططت هذا بالدم ـ حياتك تعتمد علَى البقاء صامتا». هذه القطعة من الورق التي كانت مربوطة بالكلب بواسطة خيط مسحوب من غطاء المراتب، وسلسلة ساعة أوغسطس التي سرقها المتمردون، ثم قام الآن بإزالة غطاء الفتحة، وربط الرسالة في تايجر، ثم أطلقه داخلها.

لم يكد ينهي هذه الترتيبات، حتى كان ديرك بيترز يهبط إليه، شديد السكر ولكن شديد المرح أيضا، وكان يحمل في يده تموين اليوم، بعض القطع من البطاطا وجرة ماء.

جلس لبعض الوقت وراح يثرثر، يثرثر عن المساعد الأول قائد التمرد، ومخاوفه من السجن، ومخاوفه من التمرد ذاته، كان سلوكه مثيرا للشفقة، ومتقلبا للغاية.

كان اليوم التالي شاهدا علَى بداية الانقسام؛ المتمردون انقسموا علَى أنفسهم إلى فريقين داخليين، فريق يقوده الطاهي الأسمر المتعطش للدم، وفريق يقوده المساعد السابق، المتعطش للمال.

كان فريق المساعد، يرى أن عليهم الاستيلاء علَى أول سفينة تقابلهم، وأن يتم تجهيزها في إحدى جزر الهند الغربية؛ للقيام برحلة قرصنة.

غير أن الفرقة الرئيسية، التي كانت الأقوى وقتها، وشملت ديرك بيترز والطاهي بين أنصارها، عازمة علَى متابعة المسار المحدد سلفا إلى جنوب المحيط الهادئ؛ هناك إما صيد الحيتان أو التصرف بطريقة أخرى، كما تشير الظروف، لكن القرصنة لم تكن من أولوياتهم.

كما أن وجود ديرك بيترز بين عناصر الفريق الثاني، منحته أفضلية كبيرة؛ لأنه كان كثير الزيارة لهذه المناطق، ملما بها وبمناخها وبمميزاتها وبكيفية التعايش معها، وبما يهمهم بشدة، ملما بطباع المرأة هناك، وبكيفية قضاء أوقات المتعة.

حتى الآن، لم يتم تحديد أي شيء علَى الإطلاق، لكن تخيلات بيترز المسلية كانت تسيطر علَى خيال البحارة المتحمسين، وأنَّ نِيَّةَ هذا الفريق سوف تكون في حيز التنفيذ قريبا.

في اليوم التالي، كانت الأمور هادئة في مقر إقامة أوغسطس، لذا مع حلول الليل، حرر يديه وقدميه من جديد، وبدأ في محاولته الثانية.

راح يفتش عن زجاجة روم خاوية حتى عثر علَى واحدة، فملئها بالماء من الجرة، ووضع في جيبه بعض قطع البطاطا التي أتاه بها بيترز، وقطعة من الشمع والمصباح الصغير الراقد إلى جواره، وبدأ رحلته؛ كي يصل إليَّ.

وشرع في شق طريقه، كما كان الحال من قبل، بين سطح السفينة العلوي وأوعية الزيت المرصوصة علَى جانبيّ الممر الرئيسيّ. وبعد أن عبر الأوعية أشعل قطعة الشمعة داخل المصباح الصغير، وهبط يتحسس بصعوبة بالغة طريقه داخل مخزن المرساة.

في لحظات قليلة أصبح قلقا من الرائحة الكريهة التي لا تطاق والتي جعلت الهواء شبه مسمم، لم يكن يظن أنه من الممكن أن أكون قد نجوت داخل حبسي لفترة طويلة مع تنفس هواء مضطرب مثل هذا، وراح ينادي باسمي مرارا وتكرارا ، لكنني لم أجب عليه، وراحت مخاوفه تتصاعد وتكبر.

كان هناك الكثير من الضجة، ضجة يبدو معها سماع صوته صعبا بل شبه مستحيل، لذا رفع المصباح عاليا وراح يمد يده به، ربما لاحظت الضوء القادم منه.

ومع ذلك لم يسمع شيئا منّي، وافترض موتي إلى حد اليقين. ومع ذلك، فقد قرر أن يجد طريقا للمرور - إن أمكن - إلى الصندوق، علَى الأقل كي يتأكد بما لا يدع مجالا للشك من حقيقة ظنونه.

استمر لبعض الوقت في حالٍ من القلق وهو يحاول إيجاد طريق، حتى وجد الطريق مسدودا تماما، وأنه لم يكن هناك إمكانية للوصول إلى الصندوق بأي شكل.

رمى بنفسه فوق الأخشاب وراح يئن كالاطفال، وتغلب اليأس منه تماما، ذلك حتى سمع صوت تحطم الزجاجة التي ألقيتها يأسا وغضبا، وكان هذا من حسن حظي، كان حادثا قدريا بالدرجة الأولى، لكني أدركت بعد سنوات، أن قلة حيلة أوغسطس وضعفه هما ما منعاه من الثقة بي، والثقة في أني قد أكون نجوت من شيء مثل هذا، ياللعار!

وهذا ما فعله، فبعد أن وجد الطريق مسدودا، ولم يسمع شيئا آخر، ظن أن هذه الحادثة عرضية تماما، وقرر إنهاء محاولته للوصول إليَّ والعودة إلى محبسه بالقرب من القمرة الرئيسية.

في الواقع، لم أستطع أن ألومه كثيرا؛ انقضاء الليل، وتآكل الشمعة التي تنير له الطريق، وخوفه من أن يتم اكتشافه من قبل الطاقم المتمرد، وانقضاء إحدى عشرة ليلة عليَّ، بقليل من الماء والسجق الجاف وبسكويت البحر؛ كلها كانت عوامل مساعدة تزيد من يقينه التام بأني قضيت أجلي ورحلت عن عالم الأحياء، أضف إلى هذا طبيعة الهواء في المكان، لا

يمكن لأحد أن يكون حيًّا ـ من وجهة نظره ـ في هكذا هواء مسمم ملئ بالوقود المتطاير، في مكان مغلق لا يتعرض للهواء الطبيعي في قاع سفينة!

لكنه قبل أن يرفع جسده بالكامل في طريق العودة، وبعد أن تملكه اليأس، حاول أن ينادي باسمي بأعلى صوت ممكن، في محاولة أخيرة للتأكد، غير عابئ بما يمكن أن ينتج عن هذا إذا سمع أحد أفراد الطاقم المتمرد صدى صوته وهو ينادي عليَّ.

لا رد، ولا حتى صوت بسيط، لذا، واثق الآن، أن أسوأ مخاوفه كانت قائمة علَى أسس جيدة، اتخذ طريق العودة من جديد، لكن سقوط السكين من يدي وسماع صوت دوي بعض الصناديق مرَّة أخرى تسببا له في التردد والتوقف للحظات.

تراجع من جديد إلى داخل الحوض، وراح ينادي باسمي للمرَّة الأخيرة بصوت مرتفع، والآن فقط تمكنت من إصدار صوت ضعيف متردد، الآن يسمعني، وتهللت أساريره لأنني لا زلت حيًّا، ربما ضعيفا أو مصابا أو علَى وشك الموت، لكنني لا زلت حيًّا.

وازداد فرحه وأمله، عندما وجد تلك الفرجة الضيقة التي أحدثها سقوط الصناديق بعد محاولتي الوصول إليه، لذا فقد شق طريقه وبصعوبة بالغة ـ بشجاعة وإقدام ينفيان يأسه السابق ـ حتى وصل أخيرا إلى الصندوق.

وهناك وجدني مستلقيا ألهث، في حال مزرية، أكاد أصرخ باكيا، فاقترب: «استرح قليلا يا صديقي». قالها في خفوت «ولا تقلق، سوف أروي فضولك وأخبرك بكل شيء».

الفصل السادس

جلس إلى جواري، ووعدني أن يحكي لي التفاصيل كلها لاحقا، لكننا الآن في خطر داهم ولابد أن نكون حذرين.

كان متخوفا أن يفتقدوا وجوده فنقع في مشاكل أكبر، بينما كنت أتلهف، مصرًّا علَى مغادرة هذا المحبس الكريه، فشقتنا طريقنا بهدوء بين الألواح من مكان ما أتى هو، ولم يكن في بالنا إجابة عن سؤال بسيط: ماذا سنفعل بجثة تايجر الملقاة في الصندوق؟

لذا قررنا أن نعود إلى الصندوق مسرعين حتى نتأكد من كل شيء، إلا إننا وجدناه لا يزال حيا، جسده ممدد، يتنفس بصعوبة، والدم يسيل منه.

لم يكن هناك وقت لفعل شيء، لكني لم أستطع التفكير في التخلي عن ذلك المسكين الذي كان سببا في إنقاذ حياتي ومنحني بعض الأمل للبقاء صامدا، لذا فقد جررنا جسده الضعيف المنهك، وتطوع أوغسطس بحمل جسده بين الصناديق حتى وصلنا إلى الفتحة من جديد، ومع إنهاك قواي وضعفي العام، دفع أوغسطس جسد تايجر بين الألواح،

ثم حمله علَى كتفه من جديد بينما أتبعه أنا زاحفا، حتى وصلنا إلى الفتحة التي صنعها أوغسطس في اللوح الكبير.

وفي الوقت الحاضر، اتفقنا علَى أن أبقى بالقرب من الفتحة علَى الجانب الآخر، والذي يتمكن من خلالها رفيقي أن يزودني بجزء من رزقه اليومي، وحيث يمكن أن تكون عندي مزايا تنفس جو نقي نسبيا.

لا بد أن أوضح أمرا هنا للقراء، قبل أن أكمل سردي للقصة، ما حدث داخل الحوض الرئيسي من سوء تخزين وغياب تام لأي وسائل أمان، لهو خطأ كبير من رجل بمثل خبرة الكابتن بيرنارد، فتخزين براميل الزيوت والوقود في هذا المكان، مع عدم اتخاذ أي احتياطات أمان ومع غياب أي تهوية، كان ينم عن قلة خبرة وإهمال شديد من رجل في خبرته.

ومع بزوغ نور الصباح، كان أوغسطس كما تركوه ليلا، مكبلا في أصفاده والحبل يلتف حول قدميه وهو يداري الفتحة بالمراتب وبجسده، ومع انتصاف النهار، نزل المساعد الأول والطاهي ومعهم ديرك بيترز إلى المكان.

وفي لحظة، جاء الطاهي إلى المكان الذي كان يستلقي فيه أوغسطس مداريا الفتحة بجسده، وجلس مسندا ظهره إلى اللوح، حتى أنني كنت أسمع كل شيء يقوله من مكاني خلف اللوح.

كل هذا الوقت كان تايجر يرقد إلى جواري، وبدا أنه يتعافى بعض الشيء ويستعيد عقله، لأنني يمكن أن أراه من حين لآخر يفتح عينيه ويلتقط أنفاسا طويلة متعبة.

بعد دقائق قليلة ذهب المساعد الأول والطاهي إلى أعلى، تاركين ديرك بيترز وراءهم الذي حالما ذهبوا، جاء وجلس إلى جوار أوغسطس في هدوء.

بدأ يتحدث بشكل اجتماعي مع (أغسطس)، وأجاب عن جميع أسئلة رفيقي بكل حرية وهدوء؛ قال له إنه ليس عنده شك من أن والده قد أُنقذ بكل تأكيد، وأنهم رأوا علَى الأقل خمس سفن في المدى البعيد وقت شروق الشمس، الأمر الذي سبب لي بعض السعادة في مخبأي، وبدأت الآمال تداعب رأسي.

عاد بيترز إلى سطح السفينة بعد حوالي ساعة، ولم يعد مرَّة أخرى حتى الظهر، عندما أحضر لـ «أوغسطس» بعض البودينج وقليلا من اللحم، وعندما تركنا بمفردنا، تقاسمناه دون أن أخرج من الفتحة إلى الخارج.

لم ينزل أحد آخر من السطح خلال النهار، وفي الليل دخلت إلى سرير أوغسطس المكون من بعض المراتب الجافة الصلبة، والتي كانت بالنسبة لي أكثر راحة في ذلك الوقت من أي سرير فاخر، حيث نمت بعمق ولطف حتى الفجر تقريبا، عندما أيقظني عند سماع ضجة علَى سطح السفينة، فحشرت جسدي في الفتحة وعدت مكاني للاختباء بأسرع ما يمكن.

عند الضحى، وجدنا أن تايجر قد استعاد قوته تقريبا بالكامل ، وأعطى إشارات علَى اختفاء رهاب الماء، مما يدل علَى تحسن حاله العقلية وبعد السُّعارُ عنه، فلقد شرب قليلا من الماء الذي عرضته عليه.

وفي نهاية النهار، كان قد استعاد كل ما كان له من قوة وشهية. تصرفه

الغريب كان سببه، بلا شك؛ غياب جودة الهواء وشبه تسممه في ذلك السجن، ولم يكن له علاقة بالسعار إذًا! حمدت الرب علَى ذلك ورحت أحاول تعويض المسكين عما فعلته ساعتها في ذلك الحبس المقيت.

هذا اليوم كان الثلاثين من يونيو والثالث عشر منذ أن خرجت «جرامبوس» من نانتوكيت.

في الثاني من يوليو جاء المساعد الأول إلى مكاننا، في حال سكر كالمعتاد، وفي حال انتشاء مفرطة من فرط السكر. جاء إلى أوغسطس وربت علَى ظهره بعنف، وسأله عما إذا كان يعتقد أنه يمكن أن يحسن التصرف إذا تركه طليقا، وما إذا كان سيعد بعدم الذهاب إلى الاستراحة الخاصة مرَّة أخرى. لهذا بالطبع، رد صديقي بالإيجاب، وعندما حرره الشرير المتمرد، وضع زجاجة الروم علَى فمه وأجبره علَى الشرب منها، ثم أخذه إلى الأعلى. كلاهما الآن علَى سطح السفينة، وأنا لم أرَ أغسطس لمدة ثلاث ساعات تقريبا. ثم جاء إليَّ مع الأخبار الجيدة؛ أنه قد حصل علَى إذنٍ للتحرك في السفينة في أي مكان إلى الأمام من الصاري الرئيسي، شرط ألا يذهب إلى الاستراحة من جديد.

أحضر لي أيضا عشاء جيدا والكثير من الماء، وكانت السفينة لا تزال تجوب البحر بينما ظهرت السفينة التجارية البريطانية القادمة من الرأس الأخضر، وكان الشراع الآن في الأفق، يُرى رأى العين، وقاربت لحظة تنفيذهم لخطتهم بالاستيلاء عليها أو بالاستيلاء علَى حمولتها، أيا كانت خطتهم.

وبما أن الأحداث التي حصلت في الأيام الثمانية القادمة قليلة الأهمية وغير مؤثرة علَى حكاياتي، فسوف أضعها هنا في صورة يوميات، بدلا من أن أحذفها كاملا، وأتمنى من السيد (بو) أن يتركها كما هي.

الثالث من يوليو:

قام أوغسطس بتزويدي بثلاث بطانيات، والتي صنعت بها سريرا مريحا في مخبأي. لم ينزل أحد إلا رفيقي أثناء النهار، وأخذ تايجر مركزه في المكان بعد الفتحة، ولم يكتشف أحد أين كان مختبئا كل هذا الوقت!

نام بشكل كبير، كما لو أنه لم يتعاف تماما بعدُ من آثار مرضه. نحو الليل، اصطدمت الرياح بالسفينة قبل أن يتم القبض علَى الشراع، وكادت تقلبها.

عامل ديرك بيترز أوغسطس طوال هذا اليوم بعطف كبير ودخل في حوار طويل معه عن المحيط الهادئ، والجزر التي زارها في تلك المنطقة. وسأله عما إذا كان يرغب في الذهاب مع المتمردين في رحلة لغرض الاستكشاف والترفيه في هذه الأنحاء، وقال أن الرجال يقتنعون تدريجيا بوجهات نظر فريق المساعد الأول؛ رحلة إلى جنوب المحيط لصيد الحيتان، لهذا يعتقد أوغسطس أنه من الأفضل أن يرد بأنه «سيكون سعيدا للذهاب في مثل هذه المغامرة». بما إنه لا شيء يمكن القيام به، وأنها ليست قرصنة بأي حال من الأحوال، إذا تغاضينا عن أن السفينة مقرصنة من أبيه المهزوم!

الرابع من يوليو:

ثبت أن السفينة البريطانية التي علَى مرأى البصر هي سفينة شراعية صغيرة من ليفربول، وسمح لها بالعبور دون أي اعتراض.

قضى أوغسطس معظم وقته علَى سطح السفينة؛ بهدف الحصول علَى كل المعلومات لمعرفة نوايا المتمردين. كان لديهم نزاعات متكررة وعنيفة فيما بينهم، في واحدة منها، جيم بونر ـ أحد البحارة عديمي

القائدة ـ ألقي خارج السفينة. حزب المساعد الأول كان يكسب الأرض يوما بعد يوم، بينما جيم بونر كان ينتمي لحزب الطاهي، والذي لم يكن يبترز مناصرا له بكل تأكيد.

الخامس من يوليو:

مع حلول الفجر، اشتدت الرياح علَى السفينة من جهة الغرب، وهبت عاصفة قوية، كان من أثرها أن سقط أحد البحارة في المحيط ولم يفكروا حتى في إنقاذه! وللطرافة كان ينتمي إلى عصابة الطباخ الأسود.

بقي علَى السفينة الآن ثلاثة عشر راكبا، ديرك بيترز، سيمور الطباخ الأسود، جونز، غريلي، هارتمان روجرز، ويليام آلين، أبشالوم هيكس، وبحار لم أتبين اسمه، وويلسون، جون هانت، وريتشارد باركر، بالإضافة إلى أوغسطس، والفرد الثالث عشر: أنا.

السادس من يوليو:

استمرت العاصفة طوال هذا اليوم، عواصف ثقيلة، مصحوبة بالمطر. وامتلأت السفينة بقدر كبير من الماء في أحشائها، وكانت مضخات تفريغ المياه تعمل باستمرار، وأجبر أوغسطس علَى أخذ دوره والمساعدة في ذلك.

فقط عند الشفق سفينة كبيرة مرَّت بالقرب منَّا، دون أن يتم اكتشاف مرورها؛ بسبب العاصفة الغاضبة، إنها السفينة التي كان المتمردون يبحثون عنها، وحاول المساعد الأول تنبيههم إليها، لكن صراخه وإشاراته غرقا في هدير العاصفة.

في الحادية عشرة، انقشعت العاصفة، تاركة ضررا بسيطا في حواجز السفينة وبعض الأشرعة، وقبل طلوع الصباح، أصبح الطقس معتدلا، وعند شروق الشمس كانت هناك رياح قليلة جدًّا.

السابع من يوليو:

لقد عانيت كثيرا من دوار البحر

بيترز أجرى محادثة طويلة هذا اليوم مع أوغسطس، وأخبره أن اثنين من عصابتهم (غريلي) و(ألين) ذهبا إلى المساعد الأول وأخبراه أنهما سوف يتحولان إلى قراصنة وأن هذه هي رغبتهما.

خلال جزء من هذا المساء، حصل تسرب علَى السفينة، ولم يكن بالإمكان عمل الكثير لمعالجته، تسربٌ سببه ضغط الماء عبر أحشائها، حاولوا كثيرا حتى تمكنوا من السيطرة عليه بشكل غير كامل.

الثامن من يوليو:

نسيم خفيف هبَّ من الشرق عند شروق الشمس، عندما وجه المساعد الأول السفينة إلى الجنوب الغربي، مع نية الإغارة علَى بعض من جزر الهند الغربية كأفعال القراصنة في هذه الأنحاء.

لم تكن هناك معارضة من قبل بيترز أو الطاهي ـ علَى الأقل لا شيء في حضور أوغسطس ـ كانت فكرة أخذ السفينة إلى الرأس الأخضر قد فترت وقلَّ الحماسُ لها.

التسرب كان من السهل السيطرة عليه الآن، بواسطة مضخة واحدة تعمل كل ثلاثة أرباع ساعة.

التاسع من يوليو:

طقسٌ جميلٌ جدًّا.

كل الأيدي تعمل في إصلاح الحواجز. بيترز أجرى محادثة طويلة مع أوغسطس، وتحدث بوضوح أكثر مما فعل من قبل، قال أن لا شيء يجب أن يحثه علَى الموافقة علَى توجهات المساعد الأول، وحتى ألمح إلى نيته في نزع السيطرة علَى السفينة من يديه. وسأل صديقي إذا كان يمكن أن يعتمد علَى مساعدته في مثل هذه الحال، الأمر الذي أجاب أوغسطس عليه بـ «نعم»، دون تردد.

ثم قال بيترز أنه سيتكلم مع بقية فريقه حول الموضوع، وذهب.

وخلال بقية اليوم، لم تكن لدى أوغسطس فرصة للتحدث إلى بيترز مجددا علَى انفراد.

الفصل السابع

سأختتم في هذا الفصل كتابة يوميات الأيام الثمانية التي تلت إنقاذي من سجني في حوض السفينة بمساعدة صديقي أوغسطس.

العاشر من يوليو:

الطقسُ ضبابيٌّ، مع هبوب تلك الرياح المتقطعة من الشرق.

مات هارتمان روجرز اليوم بعد أن أصيب بتشنجات غريبة، وذلك بعد شرب كأس من الشراب.

هذا الرجل كان من حزب الطاهي الأسمر، وواحدا ممن وضع عليهم بيترز اعتماده الرئيسيّ لتنفيذ خطته في إزاحة المساعد الأول، قائد التمرد علَى قبطان السفينة.

أخبر بيترز صديقي أوغسطس، بأنه يعتقد أن المساعد الأول سممه، وأنه يتوقع ـ إذا لم يكن حذرا بما فيه الكفاية ـ فإنه سيأتي دوره قريبا.

تبقى من فريق الطاهي، الطاهي نفسه، وديرك بيترز، وجونز، بينما

على الجانب الآخر كان هناك خمسة أشخاص.

كان بيترز قد تحدث إلى جونز حول استعادة القيادة من المساعد الأول وفريقه؛ ولكن الخطة قوبلت ببرود، لذا توقف بيترز عن الضغط في هذه المسألة أكثر من ذلك أو من مفاتحة الطاهي الأسمر في رأيه، لكن ما حدث ظُهر ذلك اليوم هو شجار متعمد من الطاهي وجونز مع بيترز، ثم أعلن الطاهي انحيازه للمساعد الأول رسميا، حينما هدد جونز بيترز بكشف أمره للمساعد الأول بلا تردد.

ومن الواضح أنه لم يعد لدى بيترز وقت ليضيعه الآن، وأعرب بيترز عن تصميمه علَى محاولة الاستيلاء علَى السفينة أيًّا كانت المخاطر، شريطة أن يقدم له أوغسطس مساعدته، وعندما فاتحه أكد صديقي استعداده للمساعدة في أي خطة لهذا الغرض، ووجدها فرصة مواتية لإخبار بيترز عن وجودي في مخبأي، واستعدادي للمساعدة أيضا، وهو ما انفرجت له أسارير بيترز، فهو لم يعد يثق في أي ممن علَى سطح السفينة، بل إن صديقه ورفيقه جونز صار يبترزه؛ كي لا يكشف خطته للمساعد.

ذهبا إلى الأسفل مباشرة، واقتربا من مخبأي، عندما ناداني أوغسطس بالاسم، وسرعان ما تعرفت أنا وبيترز علَى بعضنا، وتم الاتفاق علَى أنه ينبغي لنا أن نحاول استعادة السفينة عند أول فرصة جيدة، والقبض علَى جونز في حال النجاح، ثم قيادة السفينة إلى أول ميناء يقابلنا، وتسليمها.

وافقنا بيترز، فقد كان الإحباط قد ثبط من تصميمه علَى الخوضِ في مغامرة الإبحار في المحيط الهادئ ـ المغامرة التي لا يمكن إنجازها من دون طاقم بكل تأكيد ـ وفكر أنه أمام خيارين: إما الحصول علَى

تبرئة عند المحاكمة، بإدعائه الإصابة بدرجة من الجنون ـ وادعاء أن الجنون قاده لمساعدة التمرد ـ وإمَّا الحصول علَى العفو، إذا وجد مذنبا، من خلال شهادتي وشهادة أوغسطس.

لكن مداولاتنا انقطعت في الوقت الحاضر؛ بسبب صرخة: « كل الأيدي يجب أن تبحر الآن». التي صرخ بها المساعد الأول، وركض بيترز وأوغسطس إلى سطح السفينة.

كالمعتاد، الطاقم كان تقريبا في حالِ سكر شديدة؛ وكانت هناك عاصفة عنيفة وضعت السفينة علَى المحك، وملأتها بكمية من الماء استغرق الطاقم وقتا طويلا لتفريغها بالمضخات، ومع مرور الليل، ازدات الرياحُ عنفًا، لكن البحر كان مستقرا قليلا في طريق الإبحار بسبب اتجاه الرياح.

ومع الليل، جاء بيترز إلى الممر مع أوغسطس، واستأنفنا مداولاتنا، واتفقنا علَى أنه لا يمكن أن تكون هناك فرصة أفضل من الوضع الحالي لتنفيذ مخططاتنا؛ لأن محاولة في مثل هذه اللحظة لن تكون متوقعة أبدا. بما إن السفينة كانت مهددة بالرياح، لن يكون هناك إمكانية للمناورة بها الآن، وسيكون البحارة المتمردون مشغولون بمحاولة تثبيتها علَى هذه الوضعية.

كانت الصعوبة الرئيسية هي عدم التناسب في الأعداد؛ ثلاثة فقط منا، وفي المقصورة هناك تسعة أشخاص كلهم يدينون بالولاء للمساعد الأول، وجميع الأسلحة الموجودة علَى متن السفينة أيضا في حوزتهم، باستثناء زوج من المسدسات الصغيرة التي أخفاها بيترز، وسكين البحار الكبير الذي كان يعلقه دائما في حزام سرواله.

ثم إن المؤشرات الحالية، وكلام بيترز نفسه عن نظرات البحارة له، أخبره بما لا يدع مجالا لأي شك، أنهم علَى وشك التخلص منه، وأن الفرصة الحالية ربما لن تتكرر عند طلوع صباح ذلك اليوم.

ومع ذلك، كانت العوامل كثيرة جدا ضدنا للسماح لنا بتنفيذ خطتنا دون أكبر قدر من الحذر.

بيترز اقترح أنه ينبغي أن نصعد إلى سطح السفينة، وأن ندخل في محادثة عنيفة مع البحار المارقب ألين، وسوف نكون قادري علَى رميه في البحر دون عناء ودون أي اضطراب، ساعتها وقبل أن ينتبه البقية، سنكون أنا وأوغسطس فوق سطح السفينة ومعنا الأسلحة؛ كي نحمي ظهره من هجوم المتمردين الباقين عليه، وأنه إذا تعامل معهم واحدا تلو الآخر، فحتما سوف يتمكن منهم جميعا.

لكنني اعترضت علَى ذلك؛ لأنني لم أستطع أن أصدق أن المساعد الأول ـ الذي كان ماكرا ذكيا ـ سوف يسمح لنفسه من أن يتم توريطه بسهولة والصعود إلى سطح السفينة بالطريقة نفسها، التي غلب بها معارضيه سابقا، كما أنه لن يخاطر بأن تفقد السفينة اتزانها في هذه الأجواء أو تنحرف عن التيار الأساسيّ، فهو في النهاية بحار متمرس ويعرف ما يفعله، لكن ربما كانت هناك فكرة ما تجعلهم يتحركون ويقعون في الفخ.

ثم تذكر بيترز جثة المتمرد روجرز الملقاة بإهمال علَى سطح السفينة، الجثة التي تورمت وظهرت عليها علامات التسمم ولم يلق بها إلى البحر بسبب انشغالهم بما حدث من هبوب للعاصفة. كان لابد للجميع النزول إلى قمرة القيادة ورفع الشراع، والانشغال بمحاولة التجديف لإبقاء السفينة في المسار المحدد.

لذا، رحنا نتباحث في خطة بديلة لاقت القبول منا جميعا، وبعد أن رتبنا خطتنا، شرعنا في تنفيذها بأسرع ما يمكن.

بيترز ذهب إلى سطح السفينة، الرياح اشتدت وبدأت السفينة تتراقص قليلا، لكنه ـ وكما كان متوقعا ـ قوبل علَى الفور من قبل ألين، الذي كان سكرانا وغير واع لما يراقبه تماما، ضئيل الجسد قصير القامة، وبينما اقترب منه بيترز بمشية هادئة مرتاحة العضلات، وكأنه علَى وشك تجاذب أطراف الحديث معه، أمسكه من عنقه، وقبل أن ينطق بحرف واحد، ضرب برأسه الحاجز فسقط وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. وبعد أن خلع عنه قميصه المميز، ألقاه علَى الأمواج المتلاطمة الثقيلة، ثم دعانا وخرجنا إلى هناك.

أول الاحتياطات أن نسلح أنفسنا بشيء ما، يمكن حمله بيد واحدة بينما الأخرى تمسك بأي شيء يعطينا دعما للحركة فوق سطح السفينة في هذا الجو المتقلب الخطر.

وكان لا غنى أيضا عن أن نكون سريعين وحاسمين في عملياتنا، في كل دقيقة توقعنا أن يكون المساعد علَى أهبة الاستعداد لتشغيل المضخات؛ لسحب المياه التي بدأت تتسرب إلى الحوض من جديد، لأنه كان من الواضح أن السفينة يجب ألا يثقل وزنها بفعل الماء المتسرب وأن تتحرك بسرعة في مثل هذه الأجواء. بعد البحث لبعض الوقت، لم نجد شيئا نسلح به أنفسنا سوى أذرع تشغيل المضخات، والتي كانت ثقيلة وضارة بكل تأكيد، ثم لبسَ أوغسطس قميصَ ألين، وخلع عن جثة روجرز قميصها، وألقينا بها إلى البحر، ونزلنا أنا وهو عن السطح تاركين أوغسطس في مكان ألين تماما، وكأنه لم يتحرك من مكانه.

حالما وصلت إلى الأسفل بدأت بالتنكر حتى أمثل كأني جثة روجرز، القميص الذي أخذناه من الجثة ساعدنا كثيرا؛ لأنه كان مميزا وغير مكرر، أزرق مع خطوط بيضاء كبيرة تمر عبره.

بعد أن وضعت هذا علَيَّ، شرعت في تجهيز نفسي في تقليد التشوهات الرهيبة للجثة المتورمة، وسرعان ما تم ذلك عن طريق حشو ملابسي مع بعض ملابس النوم. ثم رتب بيترز وجهي، فركه أولا جيدا بالطباشير الأبيض، وبعد ذلك لطخه بالدم، الذي أخذه من جرح في أصبعه ـ وأصبح شكلي قريبا من الجثة، إذا رأها أحدهم في الظلام ـ واكتملت كل أدوات خطتنا.

الفصل الثامن

رحت أنظر إلى نفسي في جزء من الزجاج، والضوء الخافت من المصباح، واعتراني شعور غامض من الرهبة من مظهري، واهتزت روحي للحظات، من أثر العنف الذي أتوقع حدوثه، والذي لم يكن في مخيلتي عندما قررت أن أخوض تلك المغامرة مع صديقي أوغسطس.

صعدت مع بيترز إلى السطح، ووجدنا هناك كل شيء آمن، وتحركنا بالاستناد علَى الحواجز نحو المقصورة الرئيسية، ورحنا نراقب من خلال شقوق الخشب حال المساعد وفريقه، لقد أثبتنا الآن أنه من حسن حظنا أننا لم نحاول مفاجأتهم لأنهم كانوا في حالِ تأهب، وأثبتت وجهة نظري صحتها، لن يترك هؤلاء المقصورة في حال تأرجح السفينة كما هي الآن.

كانوا يتناقشون بجدية فيما يحدث، وعلى الرغم من أنهم كانوا سكارى ـ كالعادة ـ إلا أن حالَ السكر هذه المرَّة لم تكن شديدة كما سبق، وبمحاولة حصر أسلحتهم، وجدنا أن جميعهم لديهم سكاكين، واحد أو اثنان منهم يحملان مسدسات، والعديد من البنادق كانت ملقاة علَى مقربة، في متناول اليد.

استمعنا إلى حديثهم لبعض الوقت قبل أن نقرر كيفية التصرف. كانوا يناقشون خططهم الخاصة بالقرصنة، وكل ما كنا نسمعه بوضوح هو: أنهم سيتحدون مع طاقم سفينة شراعية ناحية جنوب المحيط، وإذا أمكن سيستولون علَى السفينة نفسها في حوزتهم؛ تحضيرا لبعض محاولات القرصنة علَى نطاق واسع، والتي لا يمكن لأي منا أن يحدد تفاصيلها.

واحدٌ من الرجال تكلم عن بيترز، عندها رد عليه المساعد بصوت منخفض لا يمكن تمييزه، وبعد ذلك أضاف أكثر بصوت عال أنه: «لا يمكن أن أتفهم وجوده الكثيف مع الكابتن السابق، أعتقد أنه من الأفضل أن ينضم إليه في البحر قريبا».

يمكن بسهولة إدراك أن التلميح بإلقاء بيترز إلى الأسماك لاقى قبولا حسنا من قبل العصابة كلها، وخصوصا جونز.

في هذه الفترة كنت مهتاجا بشكل مفرط، بقدر ما أستطيع أن أرى أنه لا أوغسطس ولا بيترز يمكن أن يحددا كيفية التصرف بعد ذلك، اتفقنا علَى خطة ولكنها ربما لا تنجح، تسليحهم عال ويمكنهم ـ بسبب اليقظة وقلة السكر ـ أن يميزوا كل شيء، إذًا لا بد من الارتجال قليلا، ولكن في اللحظة المناسبة التي نعجز عن تحديدها!

الضجيج الهائل الذي أحدثه هدير الرياح، منعنا من سماع ما قيل كاملا، إلا خلال فترات الهدوء اللا نهائية. في واحدة من هذه، سمعنا بوضوح المساعد يقول لواحد من الرجال إلى.. «اذهب إلى الأمام وتفقد ما يفعله ألين، وأحضر السجين؛ كي يكون تحت أعيننا هنا». لكن من حسن حظنا، لم يتمكن أحد من النهوض، لأن حالة من الهياج المفاجئ حدثت للسفينة، وراحت تتأرجح بشدة.

نهض الطاهي من فوق المرتبة ليحضر أوغسطس، عندما كان هناك تقلب هائل للرياح، والذي كنت أعتقد أنه سيحمل الصواري بعيدا. رمى به في أحد الأركان كأنه علبة صغيرة، فسقط علَى رأسه بينما انفتح الباب، وخلق الكثير من الارتباك. ولحسن الحظ، لم يرنا أحد، وكان لدينا الوقت لنتراجع بسرعة، ونرتب خطة عمل سريعة قبل أن يظهر الطاهي في الممر، أو قبل حتى أن يخرج رأسه من فتحة الاستراحة، لأنه لم يكن علَى ظهر السفينة. ولم يستطع من هذا المكان أن يلاحظ غياب ألين، ولذلك فقد خرج وهو يردد أوامر المساعد بينه وبين نفسه، كما لو كان ينفذها بالفعل، ورفع صوته مرددا الأوامر علَى ما أعتقد أنه ألين، فصرخ بيترز: «حسنا حسنا». بصوت مستتر، فذهب الطاهي إلى الأسفل علَى الفور، من دون أن يشك في شيء.

وقد بدأ مرافقي الآن في السير بجرأة نحو المقصورة، بعد أن خلع أوغسطس القميص ليعود إلى هيئته الأصلية، وقفل بيترز الباب وراءه، وقد استقبلهما المساعد بحميمية، وأخبر أوغسطس بأنه قد يأخذ منزلته في المقصورة ويكون واحدا منهم في المستقبل، نظرا لتصرفاته القويمة مؤخرا، ثم ناوله نصف كأس مملوءة بشراب، وطلب منه أن يشاركهم.

كل هذا رأيته وسمعته، فكنت أتابع أصدقائي في المقصورة فور إغلاق الباب، وقد أحضرت معي مقابض المضخة، التي قمت بوضع أحدها بالقرب من الممر؛ لتكون جاهزة للاستخدام عند الحاجة.

والآن، أركز بقدر الإمكان؛ لكي أعرف جيدا كل ما كان يمر في الداخل، وهيأت نفسي لمهمة الدخول ومفاجأة المتمردين عندما يوجه بيترز إشارة لي، كما اتفقنا.

بيترز يحاول توجيه دفة الحديث إلى الأعمال الدامية التي ارتكبوها منذ بداية هذا التمرد، وبدرجات تدفع الرجال إلى الحديث عن الخرافات المتداولة جدا بين البحارة.

لن أستيطع أن أشرح كل ما قيل، لكني كنت أرى بوضوح آثار المحادثة علَى الحاضرين. من الواضح أن الرجال كانوا مضطربين جدا، عندما ذكر أحدهم المظهر المفجع لجثة روجرز، اعتقدت أنه كان علَى وشك أن يفرغ معدته، بينما يسأله بيترز الآن: ما إذا كان يعتقد أنه من الأفضل أن يتم إلقاء الجثة إلى البحر الآن؟ لأنه من الفظيع أن تظل هكذا فوق السطح تتحلل وتنتفخ حتى تتصاعد منها الأشباح وتسكن السفينة.

وعندها كان تنفس المساعد المتمرد قد صار بطيئا ثقيلا، وأدار رأسه في بطء بين رفقائه، وكأنه يختار شخصا ما ليصعد وينفذ المهمة. ولكن لم يتحرك أحد، وكان من الواضح تماما أن العصابة بأكملها قد وصلت أعصابها إلى أعلى درجة من التوتر والخوف.

والآن، بيترز أعطاني الإشارة المتفق عليها. وعلَى الفور فتحت الباب في عنف، حتى أنني انتزعته من مفاصله من كثرة الاندماج، وخطوت في بطءٍ إلى داخل المقصورة أمام العصابة المتوترة.

ولا ينبغي أن يتعجب القاري ـ علَى الإطلاق ـ من التأثير الشديد، الناجم عن هذا الظهور المفاجئ عندما تؤخذ الظروف المختلفة في الاعتبار.

وعادة ما يُترَكُ في ذهن المتفرج علَى وقائع مماثلة أو القارئ لمثل تلك القصص، بصيصٌ من الشك في حقيقة الرؤية أمام عينيه، في حالات

مماثلة؛ ودرجة من الأمل، مهما كانت ضعيفة، أنه ضحية قصر النظر أو الخيالات الضوئية، وأن هذه الحالات من الظور أو التجسد ليست في الواقع من عالم الظلال القديم.

ولكن في الحالِ الراهنةِ، سيتبين علَى الفور أنه في عقول المتمردين لم يكن هناك حتى ظل أساس يمكن الاستناد إليه لتبديد الشك في أن ظهور روجرز كان في الواقع إحياء لجثته المتعفنة المنتفخة، أو علَى الأقل صورته الروحية من عالم الظلال.

لقد كانوا الآن في البحر أربعة وعشرين يوما، دون أن يكونوا علَى اتصال مع أي سفينة أيا كانت، فلا بد إذًا أن ما يرونه الآن حقيقي ـ أو هكذا اعتقد أغلبهم ـ أضف إلى هذه الاعتبارات الطبيعة التي تتسم بها العاصفة، والحديث الذي ابتكره بيترز، والانطباع العميق الذي كان يتركه مظهر الجثة الفعلية في الصباح علَى مخيلة الرجال؛ وأن اندماجي في التقليد ولو بإمكانيات بسيطة بدائية، والضوء المترنح الذي كانوا ينظرون إليَّ من خلاله، حيث كان وهج فانوس المقصورة يتأرجح بعنف، ويسقط علَى جسدي بكثافة، ولن يكون هناك أي شك بأن الخداع كان له تأثير أكثر مما توقعناه.

انتفض المساعد من فوق الفراش الذي كان يتمدد عليه، ومن دون أن يلفظ أي كلمة، سقط أرضا كأنه جلمود حجر، بلا أيّ حركة من أثر الرعب.

ومن بين السبعة الباقين، كان هناك ثلاثة فقط ممن تمالكوا أعصابهم، وبدوا شديدي الشكيمة قليلا.

جلس الأربعة الآخرون بعضَ الوقت ملتصقين إلى الأرض، المعارضة

الوحيدة التي واجهناها علَى الإطلاق كانت من الطاهي: جون هانت، وريتشارد باركر؛ لكنهما نهضا مهتزين؛ يقدمانِ قدما ويأخرانِ الأخرى، وأنهما يحاولانِ التأكد من حقيقة ما يريانه.

لكنَّ صوتَ الرصاصِ جاء من قبل بيترز، بينما قضيت أنا علَى باركر بضربة علَى الرأس من مقبض المضخة الذي أحضرته معي. وفي غضون ذلك، استولى أوغسطس علَى إحدى البنادق وأطلق النار ـ بلا تفكير ـ علَى أحد المتمردين، الذي يدعى: ويلسون.

ولم يتبق سوى ثلاثة منهم؛ ولكن في هذا الوقت كانوا قد بدأو يفيقون من غفلتهم، وربما بدأوا يدركون أن خداعا قد مُورس عليهم، لأنهم قاوموا بقوة عظيمة وغضب، ولكن بفضل القوة الهائلة لبيترز، صارت الأفضلية في النهاية لنا.

هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا: جونز،غريلي، وأبشالوم هيكس.

واستطاع جونز أن يلقي أوغسطس علَى الأرض وطعنه في عدة أماكن علَى طول الذراع اليمنى، وما كان علَى وشك فعله هو إرسال صديقي إلى عالم الأموات، لو لم يكن ذلك الصديق ظهر في الوقت المناسب، الذي لم نعتمد علَى مساعدته بالتأكيد في البداية، لم يكن هذا الصديق سوى العزيز تايجر.

اقتحم المقصورة، في أكثر اللحظات الحرجة بالنسبة لأوغسطس، ثم ألقى بنفسه علَى جونز، ثم ألقاه أرضا وراح يزوم في وجهه مكشرا عن أنيابه في لحظة، ثم قبض بأنيابه علَى عنق جونز في شراسة.

كنت مرهقا بفعل محاولتي التغلب علَى الخصوم الذين راحوا يتجمعون حولنا، بينما أنهى أوغسطس علَى جونز في لحظة، وكان بيترز يطيح بالخصوم بضربات سريعة ومركزة، حتى أنهى علَى أبشالوم بخنقه

علَى الأرض في شراسة لا تقل عن شراسة تايجر، بينما كنت أحطم رأس جريلي بضربة أخيرة من مقبض المضخة.

كان ريتشارد باركر الشخص الوحيد ـ من خصومنا ـ الذي بقي علَى قيد الحياة الآن، فبعد أن أولج سكينه في بطن الحيوان الشرس، وجد ضربة منِّي علَى رأسه أسقطته أرضا، وما إن التفت حتى وجدنا نحن فقط علَى أقدامنا، والبقية صرعى غارقين في دمائهم.

راح باكر ـ المصاب بضربة علَى رأسه ـ يتوسل طالبا الرحمة من بيترز، فقيد يديه خلف ظهره وقيد ساقيه بشدة.

لقد أصبحت السفينة تحت سيطرتنا الآن، بلا أي مقاومة، لقد نجحت خطتنا الما ورائية بشكل ممتاز.

كانت الساعة الآن الواحدة صباحا، وما زالت الرياح تهب بشكل كبير. من الواضح أن السفينة قد عملت بشكل أكثر من المعتاد، وأصبح من الضروري تماما القيام بشيء ما من أجل التخفيف عنها.

تركنا جثث الطاقم مستلقية في المقصورة، كان علينا العمل فورا باستخدام المضخات، وكانت ذراع أوغسطس مربوطة لتخفيف آلام جروحه، وقد فعل ما بوسعه، لكن ذلك لم يكن كثيرا. ومع ذلك، وجدنا أنه كي يمكننا فقط أن نمنع حدوث التسرب، علينا أن نتأكد من وجود مضخة واحدة علَى الأقل تعمل بشكل مستمر. وكما كان هناك أربعة منا فقط ـ باعتبار أن باركر سوف يعمل معنا حتى ولو كان هذا عملا حادا؛ لكننا سعينا إلى المحافظة علَى معنوياتنا وذلك حفاظا علَى حياته البائسة ـ وترقبنا بلهفة حلول النهار، لعله يأتي برياح أقل قوة ويمكننا علَى الأقل أن نوقف عمل السفينة لبعض الوقت.

وهكذا مررنا بليلة من القلق والإرهاق الرهيب، وعندما انكسر النهار لم تخف العاصفة قط، ولم يكن هناك أي دلائل علَى انحسارها.

الآن سحبنا الجثث إلى سطح السفينة ورميناها من فوق السطح، وكان اهتمامنا التالي هو التخلص من تلك الأجزاء التي تمثل مقاومة أعلى للرياح في المقدمة. وبعد الانتهاء من الاستعدادات اللازمة، قام بيترز بقطع بعض الأجزاء من الصارية والمقدمة، وألقينا بها إلى البحر دون أن نحدث أضرارا فادحة في السفينة، وقد وجدنا الآن أن السفينة لم تكن تقاوم التيار واتجاه الرياح كما كانت من قبل، وهذا دليل علَى أن ثقلها خف ويمكنها أن تبحر بسلاسة أكبر، ولكن وضعنا كان لا يزال محفوفا بالمخاطر للغاية، وعلى الرغم من أقصى الجهود، لم نتمكن من مقاومة التسرب من دون مساعدة المضخات المستمرة، أضف إلى ذلك أن المساعدة الصغيرة التي يستطيع أوغسطس أن يقدمها لنا لم تكن ذات أهمية حقيقية، وكنا قد وصلنا إلى مرحلة من الإرهاق والتعب، إلى درجة أن أيدينا كانت تنزف من الإجهاد، سواء في تشغيل المضخات أو التجديف أو حتى في محاولة ضبط الأشرعة التي كانت في حالٍ صعبة.

ثم قرر بيترز أن علينا صنع قارب صغير من هذه السفينة الهالكة لا محالة، لذا فقد قطع جزءا جديدا من الصاري، وبعض الأجزاء من المقصورة الرئيسية، إلا إن ذلك لن يكفي أيضا.

لذا ـ وخلافا لنصيحة باركر كبحار متمرس ـ بدأنا الآن في قطع أجزاء من مُقَدَّمِ السفينة من جديد، وأكملنا المهمة بشكل مطول بعد صعوبة كبيرة، وتركت لنا هذه المهمة ما يمكن أن نعتبره هيكلا لقارب.

كانت الرياح لا تزال تهب بعنف، لم تخف للحظة، والسفينة شبه

ممتلئة بالماء وكل جهودنا لإفراغها من الماء لم تكن تجدي نفعا، وبحلول الساعة الرابعة بعد الظهر كان من المستحيل تمامًا الوقوف أمام عنف العاصفة، وبما أن الليل قد أظلم علينا الحياة، فلم يكن لدينا أي ظل من الأمل في أن تتماسك السفينة حتى الصباح.

وبحلول منتصف الليل، ازداد ارتفاع مستوى الماء في السفينة بشكل مزر، حتى وصل الآن إلى السطح. وانهارت الدفة الخشبية ـ بعد ذلك بوقت قصير ـ إلى البحر الذي مزقها بعيدًا عن الجزء الذي يملؤه الماء تمامًا، حتى تهالكت الأخشاب وانتهت، ولم تعد قادرة علَى المقاومة.

كنا قد توقعنا جميعا أن الدفة ستتماسك بعض الوقتِ، لكن قوة البحر الهائلة وضعف الأخشاب بفعل تسرب الماء، وكذلك الصدئ الذي ألم بالخراطيم المعدنية التي تثبتها، قد أنهى على كل شيء في ساعات قليلة.

لم يكن لدينا وقت كاف لالتقاط الأنفاس بعد عنف هذه الصدمة، عندما هبت واحدة من أعظم الموجات التي رأيتها في حياتي الصغيرة، وفاضت علَى متن السفينة، واجتاحت مياهها الممرات والمقدمة والمقصورة، حتى امتلئ كل شبر من السفينة بالماء.

وأصبح الغرق قريبا لأبعد حد.

ولحسن الحظ، كان لدينا القليل من الوقت؛ كي نلقي بأجسادنا بشكل أفقي فوق السطح، حتى تعبر المياه فوقنا وكأننا في حوض استحمام، وبمجرد أن استعدت التنفس، ناديت بصوت عال علَى الجميع، فرد أوغسطس وحده، قائلا: «كل شيء انتهى، ورحم الله أرواحنا». لكن بيترز قد تمكن من الكلام أخيرا، عندما حثنا علَى الشجاعة، وأنه لا يزال هناك أمل، وأنه من المستحيل أن تغرق السفينة كلها لثقل حمولتها، وأنه

مع خفوت حدة العاصفة ربما نجونا في الصباح.

هذه الكلمات ألهمتني بروح جديدة؛ فعلى الرغم من أن الأمر يبدو غريبا، وعلَى الرغم من أنه كان من الواضح أن السفينة التي تحمل حمولات من براميل النفط لن تغرق إلا لو غمرت تماما بالماء بيد خفية جبارة، إلا إنني كنت حتى الآن مرتبكا للغاية بحيث أغفلت هذا الاعتبار تماما؛ والخطر الذي كان لدي لفترة من الوقت والذي كان يعتبر الأخطر؛ هو خطر التخبط. وإذ عاد الأمل إليَّ، استغللت كل فرصة لتقوية تمسكي بأي شيء قد يحميني من الانجراف نحو البحر.

كان الليل مظلما بقدر ما يجب أن يكون الظلام، وما أحاط بنا من شرخ وفوضى لا فائدة من محاولة وصفه. وكأنما ترقد السفينة علَى سطح البحر، أو بالأحرى كنا محاطين بكمية كبيرة من الرغوة المالحة، لا أبالغ إذا قلت أن رؤوسنا لم تكن بعيدة تماما عن الماء، وعلى الرغم من أننا كنا علَى مقربة من بعضنا بعضا، إلا إن أحدا منا لا يستطيع أن يرى الآخر، أو في الواقع أي جزء من السفينة نفسها، كنا كالمستلقين مربوطين علَى شاطئ لا نهائي تغمرنا المياه كل لحظة ثم تنحسر، وعلى فترات من الزمن ينادي الواحد منا علَى الآخر، لذلك سعينا إلى الحفاظ علَى الأمل في البقاء أحياء، ونقدم المواساة والتشجيع إلى بعضنا بعضا، وخاصة ذلك المسكين أوغسطس.

وبالنظر إلى حال أوغسطس الضعيفة، وكما كان الحال في ذراعه اليمنى، لا بد أنه كان من المستحيل عليه أن يضمن تمسكه بأي شيء لفترة طويلة، كنا نتوقع في أي لحظة ألا نجده بالقرب منا، أو أن تبتلعه الأمواج الغاضبة، ولكن تقديم المساعدة إليه كان أمرا غير وارد تماما

بالنظر إلى حالتنا جميعا. ومن حسن الحظ أن منطقته التي سقط فيها كانت أكثر أمانا؛ لأنه في جزء من أجزاء الصاري المرتفعة قليلا عن الماء، والذي حطمته الرياح - تقريبا - إلا من أجزاء بسيطة، لكنها مرتفعة بشكل كافٍ.

استلقينا صامتين ساكنين قدر المستطاع في هذا الموقف المخيف، وفي ضوء الصباح، ربما تظهر لنا بشكل كامل الفظائع التي أحاطت بنا، ونكون قادرين علَى فعل شيء.

مع الليل المبهم بلا نجوم، كان السطح الآن كالورقة، يدور تحت رحمة كل موجة، والعاصفة في ازدياد بلا رحمة، ربما تحولت لإعصار كامل في أي لحظة، ولم يظهر لنا أي احتمال دنيوي للخلاص.

لعدة ساعات، تمسكنا في صمت، ونتوقع مع كل لحظة أن تضيع أرواحنا وتبتلعها الأمواج، أو أن بعض الأمواج الضخمة، التي طافت في كل اتجاه من حولنا وفوقنا، ستدفع الهيكل الآن تحت الماء بحيث أننا سنفقد التنفس قبل أن يعود الهيكل ليطفو فوق السطح.

لكن، وبرحمة الله، ومع كل تلك المخاطر، بعد ذلك بفترة وجيزة، يمكننا أن نرى تناقصًا معقولًا في قوة الريح، ونور الصباح يأتي، والشمس تظهر ولو علَى استحياء، وللمرَّة الأولى منذ الجزء الأخير من المساء نشعر ببعض الأمان.

نادى أوغسطس علَى بيترز، الذي كان الأقرب إليه، سائلا إياه إذا كان يعتقد أن هناك أي احتمال عندنا للنجاة؟

نظرًا لأنه لم تتم الإجابة عن هذا السؤال من قبل بيترز، فقد ظننا

يبدو أن البحار الهجين قد غرق في مكانه؛ ولكن بعد تكرار السؤال في يأس، تحدث، علَى الرغم من إرهاقه البالغ وتباطؤ أنفاسه، وقال إنه كان يعاني ألمًا شديدًا، بسبب لفه للحبل الخشن علَى وسطه حتى يتمكن من إحكام تثبيت نفسه، ولابد عليه إما أن يجد وسيلة للتخفيف من قوة ربطه الذي تضاعف بفعل العاصفة أو الهلاك ميتا، لأنه كان من المستحيل أن يتمكن من تحمل هذا البؤس وهذا الألم فترةً أطول.

لقد تسبب هذا الرد في محنة كبيرة لنا، حيث كان من غير المجدي أن نفكر في مساعدته بأي شكل من الأشكال بينما استمر البحر في غمرنا، علَى الرغم من تباطؤ سرعة الرياح، لذا حثثناه علَى تحمل معاناته بثبات، ووعدناه باغتنام الفرصة الأولى التي تسنح لنا لتخفيف ألمه البالغ.

أجاب بأنه يعتقد أن ذلك سيكون بعد فوات الأوان، وأن كل شيء سينتهي قبل أن نتمكن من مساعدته؛ وبعد ذلك، بعد أن راح يئن لبعض دقائق، صمت، عندما خلصنا إلى أنه قد هلك، وأنه لابد قد مات متأثرا بذلك الضغط الهائل علَى بطنه وأنفاسه بفعل تلك الحبال السميكة الخشنة.

مع اقتراب المساء، كان البحر قد هدأ كثيرًا لدرجة أنه بالكاد ارتفعت موجة واحدة فوق الهيكل من اتجاه الريح خلال خمس دقائق، وخفت حدة الرياح كثيرًا، بالرغم من أنها ما زالت تهب علَى هيئة عواصف.

لم أسمع أيًا من رفاقي يتكلمون لساعات، والآن أنادي علَى أوغسطس، مرَّات ومرَّات، وأخيرا أجاب، بالرغم من أنه كان شديد الإرهاق، حتى أنني لم أستطع تمييز ما قاله. ثم حاولت النداء علَى بيترز وباركر، ولم يرد أي منهما علَيَّ، ربما هلكا بالفعل.

بعد هذه الفترة بدقائق، وقعت في حالٍ من اللا وعي، حيث تطفو الصور الأكثر إرضاءًا في مخيلتي وكأنني موشك علَى الرحيل، مثل: الأشجار الخضراء، والمروج الخضراء ذات الثمار الناضجة، ومسيرات الفتيات الراقصات، وقوات الفرسان واستعراضاتها العظيمة، والأوهام الأخرى التي طالما أحببتها وانجذبت إليها.

أتذكر الآن أنه في كل ما مر أمام عينيّ، كانت الحركة هي الفكرة السائدة، وبالتالي، لم أتخيل قط أي شيء ثابت، مثل: المنزل أو الجبل أو أي شيء من هذا القبيل. لكن كل ما مر بمخيلتي كان متحركا، مثل: طواحين الهواء، والسفن، والطيور الكبيرة، والبالونات، والأشخاص الذين يمتطون الخيول، والعربات التي تركض بقوة، والأشياء المتحركة المماثلة؛ كل ذلك في تتابع لا نهائي، فقط الأشياء المتحركة.

عندما تعافيت من هذه الحال، كانت الشمس أقرب ما يمكن أن أتوقعه، وكأنها تشرق فوق رأسي أنا فقط، وواجهت صعوبة في تذكر الظروف المختلفة المرتبطة بوضعي، وبقيت بعض الوقت مقتنعًا تمامًا بأني ما زلت في حوض السفينة، بالقرب من الصندوق، في محبسي السابق، وأن جثة باركر ـ التي صرت أراها بوضوح إلى جانبي الآن ـ كانت جثة تايجر عندما ظننت أني قتلته.

عندما استعدت وعي كاملا، أخيرا، وجدت أن الريح لم تكن أكثر من نسيم معتدل، وأن البحر كان هادئًا نسبيًا، ووجدت أن ذراعي اليسرى قد انكسرت بسبب شدة ضغط الحبل علَى الكوع، وتورمت اليد والرسغ بشكل هائل بسبب ضغط الحبل الذي كان يمسك بي من أسفل الكتف. كنت أيضًا أشعر بألم شديد من حبل آخر كان يلتف حول خصري، محطما بالكامل وكأن أجزائي وأطرافي كلها لا ترتبط ببعضها بعضا!

عندما نظرت مستديرا إلى رفاقي، رأيت أن بيترز لا يزال حيًا!! هذا الهجين الشرس لا يزال يمتلك الكثير من أرواح أجداده الأصليين، ولا يزال قادرا علَى التمسك بخيط الحياة والبقاء.

وعلَى الرغم من أن حبلا سميكًا كان يلتف حول أعلى بطنه ضاغطا على تنفسه وعلى أحشائه، وعندما ناديت عليه من جديد، قام بحركة ضعيفة لي بيده، مشيرًا إلى الحبل.

نظرت نحو أوغسطس، الذي لم يظهر أي إشارة إلى الحياة، وكان منثنيا تقريبًا وجسده شبه ملتف حول بقايا عمود الصاري.

تحدث معي باركر عندما رآني أتحرك، هذا اللعين حي كذلك! وسألني إذا كان لدي ما يكفي من القوة لتحريره من وضعه، فصرخت له بما امتلكت من القوة أنني سأحرر كل من أستطيع أن أحرره، فقط فليتحل بالصبر والشجاعة، وليتركني أحاول كل جهدي لذلك.

رحت أمدُّ يدي اليمنى عابثا بجيب بنطالي، الجيب المغلق بزر محكم، حتى وجدته؛ سكيني الصغير الذي أنقذني كثيرا في هذه الرحلة، السكين الذي حفر به أوغسطس فتحة إنقاذي، وكتب به رسالة الدم، ونجحت به في فك قيودي المحكمة الآن.

وعند محاولة الانتقال من مكاني، وجدت أن ساقي خذلتني تمامًا، ولم أستطع النهوض، ولا يمكنني تحريك ذراعي اليمنى في أي اتجاه، وعندما أخبرت باركر بذلك، نصحني بالهدوء بضع دقائق، والتمسك بيدي اليسرى محاولا تحريك جسدي، لإتاحة الوقت للدم؛ كي يتغلب علَى الخدر في ساقي.

وعند القيام بذلك، بدأ الخدر يتلاشى حاليًا حتى أتمكن من تحريك أحد

ساقيّ أولاً، ثم الأخرى، وبعد ذلك بفترة وجيزة استعدت الاستخدام الجزئي لكامل جسدي، ثم زحفت الآن بحذر شديد تجاه باركر، دون الاستناد الكامل علَى ساقي، وسرعان ما قطعت جميع الحبال عنه، وعندما تعافى بعد فترة قصيرة من الاستخدام الجزئي لأطرافه، تعاونا فورا على التخلص من حبال بيترز، لنكتشف أن الجرح العميق للحبل قد قطع حزام البنطال الصوفي الخاص به، ومر من خلال القميصين، وشق طريقه إلى أعلى الفخذ، والذي خرج منه الدم بسخاء أثناء إزالة الحبل، ومع ذلك لم يستطع الحبل أعلى بطنه أن ينفذ إلى جسده، ربما بسبب قوة عضلات بطنه وتحملها، ولم نقم بتحريكه من مكانه قيد أنملة، حتى نستطيع أنا وباركر أن نتحرك بحرية وقدرة علَى بذل جهود لايقاف هذا الدم السائل بغزارة.

لم يكن لدينا أمل كبير في أن يتعافى أوغسطس، لأننا لم نتأكد من وجود علامات علَى الحياة؛ ولكن عند الوصول إليه، اكتشفنا أنه قد اكتفى بمجرد فقدان الدم، حيث تمزقت الضمادات التي وضعناها حول ذراعه المصابة، ولم تستطع الحبال الملفوفة حوله أن تخترق أيا من أجزاء جسده أو أن تتسبب في وفاته.

بعدما فككنا الحبال من حوله، وخلصناه من الخشب المكسور والزجاج، قمنا بتثبيته في مكان جاف في مهب الريح، ورأسه منخفضة قليلا في مستوى جسده، حتى يتعرض للهواء قليلا فيجف جسده ويساعد يود البحر في تخفيف جرحه.

في حوالي نصف ساعة بدأ يسترد القليل من وعيه، علَى الرغم من أنه لم يكن حتى صباح اليوم التالي قد أعطى علامات علَى التعرف علَى أي واحد منا، أو كانت لديه قوة كافية للكلام.

بحلول الوقت الذي أصبحنا فيه متحررين من الحبال، كان الظلام شديدًا، وبدأت الغيوم تدمع مسرعة، بحيث كنا مرَّة أخرى تحت المخاوف البالغة من هبوب عاصفة جديدة، خشية أن يتحول الأمر إلى ضربة قاضية لنا، وفي هذه الحال لم يكن بإمكان أي شيء ـ سوى رحمة الرب ـ إنقاذنا من الهلاك، لكن من حسن الحظ، استمر الطقس معتدلاً للغاية خلال الليل، مما أعطانا آمالاً كبيرة في الحفاظ علَى أنفسنا قليلا، بينما لا يزال نسيم لطيف ينبعث من اتجاه شمال الغرب، من ناحية الولايات المتحدة، لكن الطقس لم يكن باردًا علَى الإطلاق.

جلسنا متقاربين، ندعم بعضنا بعضا بمساعدة الحبال المقطوعة حول الصاري المكسور، ونفكر في طرق للهروب من وضعنا المخيف.

لقد شعرنا باختلاف عظيم بعد أن نفضنا الماء عن ملابسنا المبتلة بالكامل، حتى أننا عندما وضعناها من جديد علَى أجسادنا ـ وبرغم البلل ـ شعرنا بالدفء والبهجة بشكل ملحوظ، حتى إن أوغسطس بدأ يشعر بالتعافي قليلا حينما ساعدناه علَى فعل المثل.

كانت معاناتنا الرئيسية الآن هي الجوع والعطش، وعندما نفكر فيما يمكن أن ندبره للتغلب علَى هذه المخاوف، كانت قلوبنا تغرق في اليأس والندم، الندم لأننا هربنا من مخاطر البحر الأقل فظاعة: الغرق.

لقد سعينا، مع ذلك، إلى محاولة تعزية أنفسنا علَى أمل أن يتم التقاطنا بسرعة من قبل إحدى السفن التي تمر من هذه البقعة، وشجعنا بعضنا بعضا علَى تحمل الشرور التي قد تحدث بثباتٍ.

فجر اليوم الرابع عشر، ولا يزال الطقس صافيًا وممتعًا، مع نسيم ثابت ولكنه خفيف جدًّا من الشمال الغربي. كان البحر الآن سلسًا

تمامًا وهادئا، وكان السطح جافًا نسبيًا، ويمكننا التحرك بحرية. لقد أصبحنا الآن أفضل بعد ثلاثة أيام وليال كاملة دون طعام أو شراب، وأصبح من الضروري للغاية أن نحاول القيام بالبحث عن أي شيء ليسد رمقنا.

نظرًا لأن السفينة كانت ممتلئة تمامًا بالمياه، فقد حاولنا ذلك بشكل يائس، لكن مع توقع ألا نستطيع الحصول علَى أي نتيجة.

صنعنا نوعًا من وسيلة البحث والسحب، من خلال بعض المسامير وقطع الحبال وتثبيتها إلى قطعتين من الخشب، ثم ألقينا بها في المقصورة، وجررناها جيئة وذهابا، علَى أمل ضعيف في أن نكون قادرين علَى التشابك مع بعض أوعية الطعام أو ربما أسماك علقت في أثناء العاصفة.

أمضينا الجزء الأكبر من النهار في هذا المخاض الأزلي دون أي تأثير، ولم نحصل علَى أكثر من بعض أغطية السرائر، التي تم صيدها بسهولة لكبر حجمها، في الواقع، كان كفاحنا أخرقا ويائسا للغاية لدرجة أنه من الصعب توقع أي نجاح قد ينتج عنه.

لقد جربنا الآن البحث أسفل المقدمة أو في الممر الذي كان أوغسطس محتجزا فيه، ولكن دون جدوى، وكنا علَى شفا اليأس، عندما اقترح بيترز أننا يجب أن نربط حبلًا بجسده، وأن يسمح له بمحاولة الحصول علَى شيء من خلال الغوص في المقصورة.

رحبنا بهذا الاقتراح بكل سرور وعلى أمل الوصول لأي شيء، بينما شرع هو علَى الفور في تجريد نفسه من ملابسه باستثناء بنطاله القماشي الداخلي ثم ثبتنا حبلا قويًا حول خصره، وأحكمنا ربطه حول كتفه بحيث لا يوجد أي احتمال للانزلاق

محاولة يائسة وغير مأمونة العواقب، بما أننا بالكاد لا نتوقع أن نجد الكثير، لكنه إن لم يجد في المقصورة نفسها أي شيء، كان من الضروري أن يسبح متحولا إلى اليمين، ويمضي تحت الماء مسافة عشرة أو اثني عشر قدما، في ممر ضيق، إلى المخزن الرئيسي، والعودة، كل هذا بنفس واحد وبلا أي هواء متاح.

كل شيء جاهز، نزل بيترز الآن إلى المقصورة، علَى سلم المرافق حتى وصل الماء إلى ذقنه. ثم انزلق بجسده، وتوجه إلى اليمين أثناء هبوطه، وسعى إلى شق طريقه إلى المخزن.

هذه المحاولة الأولى، كانت غير ناجحة تماما، فبعد أقل من نصف دقيقة من هبوطه، شعرنا أن الحبل يهتز بعنف ـ الإشارة التي اتفقنا عليها عندما يرغب في العودة ـ وفقًا لذلك، سحبناه إلى الأعلى علَى الفور، لكن بشكل غير منظم، فاصطدم بشدة بالسلم، وبالطبع لم يجلب معه شيئًا سوى تأوهاته وآلامه، ولم يتمكن من عبور إلا القليل من الطريق، حتى بدأت أنفاسه تتقطع ورئتاه تنشدان الهواء، وعند الخروج، كان مرهقًا جدًّا، واضطر إلى الراحة مدة خمس عشرة دقيقة قبل أن يتمكن من إعادة الكَرَّة، والنزول من جديد.

أما المحاولة الثانية فقد كانت أشد سوءا؛ لأنه بقي طويلا تحت الماء دون أن يعطي الإشارة، حتى أننا ـ خوفا علَى سلامته ـ أخرجناه دون أن يعطي الإشارة، ووجدنا أنه كان تقريبا في آخر السلم، إذ كان، كما قال، يشد الحبل مرارا وتكرار دون أن نشعر به. وربما كان ذلك بسبب تشابك جزء منه في الداربزين الخشبي عند آخر السلم.

كان هذا الدرابزين، في الواقع، يسد الكثير من الحلول، حتى أننا

عقدنا العزم علَى إزالته، أن أمكن، قبل المضي قدما، وبما أننا لم يكن لدينا أي وسيلة لإخراجها إلا بالقوة، فقد نزلنا جميعا إلى الماء قدر استطاعتنا علَى السلم، ونجحنا في سحبه وكسره بضربة واحدة.

المحاولة الثالثة لم تكلل بالنجاح بالقدر نفسه مع الاثنتين الأُوليَيْن، وأصبح من الواضح الآن أنه لا يمكن فعل شيء بهذه الطريقة دون مساعدة ثقل ما قد يكون معه الغطاس ثابتا، ويستطيع البقاء ثابتا علَى أرضية المقصورة أثناء البحث.

لفترة طويلة بحثنا عن شيء قد يصلح لهذا الغرض دون جدوى، ولكن بعد بحث مطول، وجدنا أحد سلاسل العواصف المعدنية، والتي تهتز لتتنبأ بهبوب العواصف قبلها بفترة قصيرة، ولم يكن من الصعب علينا ثنيها وتجهيزها لتحقيق الغرض المطلوب كثقل بسيط لا يعرقل العمل ويجعله يتمتع بقليل من الثبات.

وبعد أن ربطه بأمان بأحد كاحليه، بدأ محاولته الرابعة في النزول إلى المقصورة، وهذه المرَّة نجح في شق طريقه إلى باب غرفة تخزين المؤن، إلا إنه وجده مغلقا مع الأسف، واضطر إلى العودة دون التفكير في محاولة فتحه عنوة، إذ إنه ـ بالنظر لحالته الجسمانية المرهقة ـ لن يستطيع أن يبقى تحت الماء، في أقصى تقدير، أكثر من دقيقة واحدة.

لقد بدت سمائنا الآن قاتمة حقا، ولم يستطع أوغسطس ـ ولا أنا ـ أن نمتنع عن البكاء كالأطفال، كما فكرنا في مجموعة الصعوبات التي أحاطت بنا، والاحتمال الضئيل الذي كان قائما في النهاية هو أن نفلت، ولكن ضعفنا هذا لم يستمر، وجثونا علَى ركبتينا في تضرع إلى الرب الرحيم، نطلب مساعدته في التغلب علَى المخاطر الكبيرة التي تحيط بنا؛

حتى بدأ الأمل يطرق باب قلوبنا اليائسة من جديد، وبدأنا في التفكير
ل طرق بعيدة عن المعجزات الإلهية، طرق قد تمكننا من التغلب علَى
لك المخاطر، والعبور منها إلى البر.

الفصل العاشر

كنا مستلقين الآن علَى ظهر السفينة بالقرب من مدخل الممر، ونتناقش حول إمكانية شق طريقنا إلى المخزن الرئيسي، عندما نظرت إلى أوغسطس، الذي كان يستلقي في مواجهتي، لأجده قد أصبح شاحبا شحوبا قاتلا، وشفتاه كانتا ترتجفان بطريقة توحي باقترابه من حافة الجنون، أو حافة الموت.

تحدثت معه رافعا صوتي، ولكنه لم يرد علَيَّ، وبدأت أعتقد أنها الحمى، عندما لاحظت عينيه، التي كانت جاحظة تحدق علَى ما يبدو في شيء ما خلفي، فأدرت رأسي، ولن أنسى أبدا ذلك الفرح العارم الذي أسعد كل جسيمات وخلايا جسدي، عندما رأيت سفينة كبيرة عملاقة تقترب منا، علَى مسافة لا تتجاوز الميلين.

انتفضت واقفا علَى قدمي وكأن رصاصة اخترقتني فجأة إلى القلب، ومددت ذراعي باتجاه السفينة، وتجمدت علَى هذه الوضعية بهذه الطريقة بلا حركة، غير قادر علَى التعبير، وقد تأثر بيترز وباركر بالدرجة نفسها

من السعادة، ولكن ربما بطرق مختلفة وأكثر جنونا.

كان الأول يرقص علَى المتبقي من السطح كالمجنون، وهو يطلق أثر الألحان والنغمات خبلا من بين شفتيه، بينما انغمس باركر في البكاء مثل طفل مفقود وجدته أمه أخيرا!

كانت السفينة ـ التي كانت علَى مرأى البصر ـ عبارة عن بارجة شراعية كبيرة، هولندية الصنع والطراز، مطلية باللون الأسود، وعلى مقدمتها تمثال نصفي رخيص الصنع، ومن الواضح أنها قد شهدت قدرا كبيرا من الطقس القاسي السيئ.

عندما رأيناها لأول مرَّة، كانت ـ كما قلت سابقا ـ علَى بعد ميلين تقريبا، وكان النسيم لطيفا جدا، وما أدهشنا في الأساس هو أنها لم تكن لديها أشرعة مفرودة، وتتحرك ببطء شديد، وكان صبرنا كاد يصل إلى درجة الصفر.

الطريقة الغريبة التي توجهت بها نحونا، أيضا، كانت تشير إلى أنها ستتخطانا دون أن تلاحظنا، وكأنها ماضية في طريق محتوم، أو ربما رأتنا ولكنها لم تلاحظ أيًّا منا أو تتصور أي وجود إنساني علَى سطح هذا الهيكل الخرب الطافي بمعجزة إلهية.

كل هذا ونحن نصرخ ونصرخ بأعلى أصواتنا، عندما شعرنا بتباطئ أو تحول في مسارها، وكأنها غيرت رأيها، ثم وجدناها تتأرجح وتعود لطريقها من جديد!!

هذا السلوك الغريب تكرر مرَّة أو مرَّتين أخريين في هذه الأميال القليلة، حتى إننا كدنا نجزم أن الربان مخمور لا يرى بوصتين أمام عينيه!

لم نرَ أحدًا علَى السطح حتى وصلت إلى بُعد ربع ميل منا، ثم رأينا ثلاثة بحارة، يرتدون ملابس البحارة الهولنديين.

اثنان منهم كانا يجلسان مسترخيين بالقرب من المقدمة، بينما الثالث ـ الذي يبدو أنه ينظر إلينا بفضول كبير ـ كان رجلا طويلا ذا بشرة داكنة جدا، وبدا بطريقته في الإشارة إلينا أنه يشجعنا علَى التحلي بالصبر، وراح يومئ لنا بطريقة مبهجة، وإنْ كانت غريبة، ويبتسم باستمرار حتى تظهر أسنانه البيضاء بشكل مبالغ فيه. عندما اقتربت السفينة سقطت قبعة حمراء من علَى رأسه في الماء، لكنه لم يلاحظ أو لم يهتم. كان الأمر غريبا بدرجة مقلقة ـ على الأقل بالنسبة لي ـ فلم أعتَدْ من هذه الرحلة إلا علَى كل غريب وغير معتاد.

اقتربت السفينة الآن في بطءٍ الآن أكثر من أي وقت مضى، في الواقع أجد نفسي الآن أشعر ذلك الشعور نفسه، فلا يمكنني التحدث بهدوء عن هذا الحدث، فقلوبنا قفزت بعنف داخل أجسادنا، وتعالت منها ضربات كلها صيحات الشكر للرب الرحيم، فلم نكن نتوقع أبدا أن يحدث هذا، لولا مشيئته المجيدة.

وفجاةً ومرَّة واحدةً انتشر فوق المحيط من تلك السفينة الغريبة رائحة كريهة خانقة لا يمكن تصورها!

حاولت التنفس بعيدا عن هذه الرائحة، إلا إن ما قابلني هو وجوه رفاقي الباهتة كالرخام، لكن لم يتبق لنا الوقت الآن للتساؤل أو التخمين. كانت السفينة علَى بعد خمسين قدما منَّا الآن.

اقتربت الآن أكثر، فركضنا بعيدا إلى آخر سفينتنا البائسة لنتفادى ما يمكن أن ينتج عنه الاحتكاك بين السفينتين، والآن من مسافة عشرين

الماء، أصبح لنا رؤية واضحة لسطح تلك السفينة الغريبة.

هل يمكنني أن أنسى أبدا رعب هذا المشهد؟ خمسة وعشرون أو ثلاثون جثة بشرية، من بينهم العديد من الإناث، كانت متناثرة على السطح والحواجز، في حالٍ كريهة من التعفن، ورأينا بوضوح أن لا روح حية تعيش في تلك السفينة المشؤومة! ومع ذلك لم نستطع ألا نصرخ في الموتى طلبًا للمساعدة!

نعم، لمدة طويلة وبصوت عال رحنا نتوسل المساعدة من جثث متعفنة، تلك الصور الصامتة والمثيرة للاشمئزاز ستبقى بالنسبة لنا كرابيس تؤرقنا طوال العمر، لقد كنا نهزي بالرعب واليأس كالمجانين، وآلام خيبة الأمل واليأس تعصر قلوبنا عصرا.

بعد صرخات رعبنا المكلومة، تهادى إلى مسامعنا من قبل الصاري صوتٌ بشريٌّ مفزعٌ، ربما لم تسمع أي أذن مثله على الإطلاق!

في هذه اللحظة، عندما اقتربت المقدمة منا للحظات، رأينا في الحال مصدر الصوت.

لقد رأينا ذلك الرجل الطويل الذي لا يزال يميل على المقدمة، وما زال يومئ برأسه إلينا، لكن وجهه تحول الآن عنا حتى لا نتمكن من رؤيته.

ذراعاه ممدودتان فوق الحاجز المعدني، ويداه سقطت إلى الخارج، وركبتاه تعلقتا بحبل خشبي مشدود بإحكام بين رمح المقدمة الخشبي وعوارض المقدمة، بينما على ظهره، الذي تمزق منه جزء من القميص تاركا إياه شبه عارٍ، جلس هناك نورس بحر ضخم، ينهش من لحم

ظهره في عنف، ومخالبه ومنقاره متغلغلان في جسد الرجل!

وعندما دارت السفينة ببطء، منحتنا مظهرا مقربا أكثر، عندما ارتفع الطير العملاق فوق السفينة، وحام هناك بعض الوقت مع جزء من الدم المتجلط بين منقاره، وكأنه كبد، ثم سقط الشيء البشع من منقار الطير عند أقدام باركر.

عسى أن يغفر لي الرب، ولكن الآن، للمرَّة الأولى، تومض في ذهني فكرة، فكرة لن أذكرها، نظرت للأعلى، وعيون أوغسطس التقت بعيني بشيء من اللوم والخوف الذي أعاداني فورا إلى رشدي، لذا فقد قفزت إلى الأمام بسرعة، ومع ارتجاف عميق لجسدي بالكامل، رميت هذا الشيء المرعب في البحر.

الجسم المسكين الذي أخذت منه هذه القطعة، تمايلت أطرافه بسهولة جيئة وذهابا من الإجهاد من أثر نهش الطيور آكلة اللحوم، حركة تأرجح بسيطة ظهرت لنا وكأنها علامة ما علَى الحياة، لكن الجسد تمايل وسقط علَى جانبه، بحيث انكشف الوجه بالكامل أمام أعيننا.

لم أكن في حياتي شخصا يخاف من الجثث، لكن ما رأيته لم يكن شيئا عاديا، العيون بالكامل اختفت من محاجرها، واللحم متآكل من الوجه الداكن من فعل تعرض اللحم للشمس الحارقة، بينما الجلد واللحم متاكل من عند الفم تاركا الأسنان عارية تبتسم ابتسامة الموت الرهيبة، الابتسامة التي اعتقدنا أننا رأيناها من مسافة خمسين قدما.

السفينة، كما قلت بالفعل، مرَّت بجوار مُوخَّرِ سفينتنا المتهالكة، وأخذت طريقها ببطء ولكن بثبات، معها طاقمها الرهيب، ربما كان من الأولى أن نفكر في احتلال سطح السفينة عندما مرَّت بالقرب منا،

(ربما تنظيفها والتخلص من الجثث، لكننا بفعل خيبة الأمل والرعب لما رأيناه لم نحرك قدما من موضعها.

لقد سعيت جاهدا، منذ هذه الفترة، إلى الحصول علَى بعض الإجابات التي تروي حيرتي عن مصير هذه السفينة الغريبة، فكما ذكرت من قبل، أدى بناؤها ومظهرها العام إلى الاعتقاد بأنها كانت سفينة تجارة هولندية، كما أن ملابس الطاقم أيدت هذا الرأي.

ولعلنا كنا رأينا الاسم بسهولة علَى مُؤَخَّرِهَا، وفي الواقع، أخذنا ملاحظات أخرى، كانت سترشدنا إلى إظهار ماهية هذه السفينة؛ ولكن الرعب الشديد في هذه اللحظة أعمانا عن كل شيء، لدرجة أن نصف هيكلها قد عبرنا الآن، بمسافة تبعد كل لحظة.

من لون الجثث ـ الشبيه بلون الزعفران ـ والتي لم تتحلل تماما، استنتجنا أن كل ركابها قد هلكوا بسبب الحمى الصفراء، أو مرض فتاك آخر من النوع نفسه، ومن الممكن بالفعل أن السم أو أيا كان السبب قد دخل عن طريق الخطأ من أي نوع من الكائنات البحرية، أو من أكل أي من الطيور المحيطية، لكن أيا كان السبب، سيظل هذا المنظر المرعب يطاردني في نومي وفي صحوي، ويظل هذا اللغز سرًّا لن أقدر في يوم من الأيام علَى سبر أغواره ومعرفة ما وراءه.

الفصل الحادي عشر

قضينا ما تبقى من اليوم في حال من الخمول الغبي، يحدق بعضنا إلى السفينة المنسحبة حتى الظلام، ثم عادت آلام الجوع والعطش، وابتلعت كل الاهتمامات والاعتبارات الأخرى.

ومع ذلك، لم يكن هناك ما يمكن القيام به حتى الصباح، وسعينا جاهدين، بتأمين أنفسنا بقدر الإمكان، إلى انتزاع القليل من الراحة، وبعد أن نام أغلب رفاقي، بقيت أنا ممددا علَى السطح، محدقا في السماء، والتساؤلات والأفكار المتخبطة تغزو عقلي، كيف سنصل إلى تلك المؤن؟

كان الجو الآن هادئا جدا، مع هدوء البحر الناعم؛ كما عرفته أكثر من أي وقت مضى، الطقس دافئ ومبهج، ومع حلول ضوء النهار استيقظ الجميع وبدأنا نحاول من جديد، بيترز اقترح أنه من الممكن أن يكون قادرا علَى فتح باب المخزن بالقوة، شريطة الحصول علَى وقت كافٍ، لذا سيحاول كتم أنفاسه أكثر، وأوصانا أن نتجاهل تحرك الحبل قليلا، لأنه سيحاول حتى يهلك؛ فكلنا هالكون لا محالة لو لم ينجح!

نجح بسرعة في الوصول إلى الباب، عندما انفلتت واحدة من السلاسل من كاحله، وعاد جسده يخف في الماء من جديد، لذا يجب بذل كل الجهد في محاولة تثبيت رجله ليتمكن من ضرب الباب بقوة تسمح بفتحه.

وكما يظهر من الظروف المحيطة، باءت هذه المحاولة أيضا بالفشل، وراح يسحب الحبل بعنف متناسيا كلامه عن الهلاك لا محالة!!

كان منهكا جدا ومتضايقا من مدة بقاءه الطويلة تحت الماء، وأصبح من الضروري جدا أن يأخذ أحدنا مكانه في المحاولة من جديد.

تطوع باركر علَى الفور، لكن بعد بذل ثلاث محاولات مجهدة وغير فعالة، وجد أنه لن ينجح حتى في الاقتراب من الباب، وحالُ ذراع أوغسطس الجريحة جعلت من غير المجدي بالنسبة له أن يحاول حتى السباحة، إذًا فلا يوجد غيري.

كما أن بيترز قد ترك إحدى سلاسل التثبيت في الممر، ووجدت، عند بداية الغطس، أنه ليس عندي توازن كافٍ لإبقائي في الأسفل مثبتا. ولذا قررت ألا أحاول في محاولتي الأولى، أكثر من مجرد استعادة السلسلة الأخرى، ورحت أتحسس علَى طول أرضية الممر، شعرت بشيء صلب يلمس يدي، قنينة أو حاوية لشيء سائل، فحملته دون التدقيق في محتواه؛ لكي أعود فورا إلى السطح، وعندما بدأت أتفحص الجائزة أثبت أنها قنينة من النبيذ، وتخيلنا مدى المتعة التي قد نحصل عليها من قنينة نبيذ ممتلئة في الوقت الحاضر.

وباستخدام السكين، أزحنا الفلين الذي يسد فوهة القنينة، وأنتعشنا قليلا بعد أن دخل السائل إلى أجسادنا، ثم لففناها بقطعة قماش ممزقة من قميص بيترز، حتى نتفادى كسرها تحت أي ظرف من الظروف.

بعد فترة من الراحة بعد هذا الاكتشاف، نزلت مرَّة أخرى، والآن لاستعادة السلسلة، ثم ثبتها علَى قدمي مثل مثيلتها، وذهبت للمرة الثالثة، وحاولت لكن الإجهاد تملك منِّي، كان المكان كحوض ماء كبير لا يتسرب منه أي شيء، وربما كانت هذه المعجزة هي ما تبقي السفينة طافية كل هذا الوقت.

بدا الآن أن كل أبواب الأمل قد سدت تماما، لن يستطيع أحدنا أن يفتح الباب، لن يمكننا أن نتحمل الجوع والعطش أكثر من ذلك، القليل الباقي في زجاجة النبيذ لن يكفينا أكثر من ليلة أو ليلتين، ساعتها كنا قد أيقنا أننا هالكون لا محالة.

لعبت الخمر برأسهم قليلا، وصنعت تأثيرا كان قد زال عني من كثرة غطسي تحت الماء، فراحوا يتحدثون بشكل غير متناسق، وعن أمور غير مرتبطة بحالتنا، بيترز يسألني مرارا وتكرارا أسئلة حول نانتوكيت، وأوغسطس، أيضا، أتذكر، اقترب منِّي وطلب منِّي بجدية أن أقرضه مشط الجيب حتى يصفف شعره قبل وصولنا إلى الشاطئ!!

وبدا أن باركر أقل تأثرا، وراح يحثني علَى الغوص عشوائيا داخل المقصورة أو القمرة، ومحاولة التقاط أي شيء قد يفيد في حالتنا هذه، ربما زجاجة أخرى أو أي شيء.

لهذا وافقت علَى الفور، وفي المحاولة الأولى، بعد البقاء دقيقة كاملة، جلبت صندوقا جلديًّا متوسطا يعود إلى الكابتن برنارد، القبطان الأصلي ووالد أوغسطس، علَى أمل ضعيف أنه قد يحتوي علَى شيء للأكل أو الشرب، لكننا لم نجد شيئا، علَى أي حال، باستثناء صندوق من شفرات الحلاقة وقميصين من الكتان.

نزلت وسبحت مرَّة أخرى وعدت دون أي نجاح، وعندما رفعت رأسي خارج الماء، سمعت صوت تحطم قنينة الخمر علَى سطح السفينة، يبدو أن رفقائي الأعزاء قد استغلوا غيابي وأنهوا زجاجة النبيذ.

لمتهم علَى قسوة سلوكهم عندما انخرط أوغسطس في البكاء وسعى الاثنان الآخران إلى السخرية من المسألة علَى سبيل المزاح، لكن ضحكاتهما ذكرتني بضحكة الموت، حتى أنني آمل ألا أرى مرَّة أخرى ضحكات من هذا النوع؛ فقد كانت ضحكة الوجه المشوه مخيفة ومقبضة.

وفي الواقع، كان من الواضح أن الحافز، في الحال الفارغة لبطونهم، كان له أثر فوري وعنيف، وأنهم جميعا مخمورون للغاية ويريدون الاستلقاء مرتخيين، وسقطوا بسرعة شديدة في سبات شديد، مصحوب بتنفس قوي.

وجدت نفسي الآن، كما كنت وحدي في السجن في باطن السفينة، وأفكاري، بالتأكيد، كانت مخيفة وكئيبة. الموت من المجاعة أو في أول عاصفة أو غرقا، لا أمل.

الجوع القارص الذي واجهته الآن لا يمكن مواجهته، وشعرت بنفسي قادر علَى الذهاب إلى أي مدى من أجل استرضاء ذلك. لذا باستخدام السكين قطعت جزءا صغيرا من جلد الحقيبة، وحاولت أن أكله، ولكن وجدت أنه من المستحيل تماما أن أبتلع لقمة واحدة، لكني ربما خففت معاناتي عن طريق مضغ قطعة صغيرة وبصقها خارج فمي.

ومع حلول الليل استيقظ رفاقي، واحدا تلو الآخر، كانوا في حالٍ لا توصف من الضعف والرعب، مرتجفين من الجوع والبرد، وتفوهوا بأكثر صرخات الرجاء والرغبة من أجل قليل من الماء.

حالتهم أثرت عليَّ بدرجة إيجابية نوعا ما، وسببت لي الابتهاج؛ لأني كنت محظوظا، ولأن الظروف التي منعتني من الانغماس في النبيذ، أنقذتني قليلا من تلك الصرخات والهلوسات اليائسة.

لكن - ومع ذلك - سلوكهم أعطاني قدرا عظيما من عدم الارتياح والانزعاج؛ لأنه كان من الواضح أنه ما لم يحدث تغيير إيجابي، لم يكن بمقدورهم تقديم أي مساعدة في توفير سلامتنا المشتركة.

لم أتخلى بعد عن جميع الأفكار التي يمكن أن تقودني إلى أي اكتشاف بالأسفل، لكن لا يمكن استئناف المحاولة إلا بعد أن يكون أحدهم قد تمالك نفسه بما فيه الكفاية لمساعدتي في وضع نهاية الحبل أثناء نزولي.

كان باركر متيقظ الحواس أكثر من غيره، وقد سعيت بكل الوسائل إلى إثارة حماسه، وانطلاقا من اعتقادي أن الغطس في مياه البحر قد يكون مفيدا، دفعته دفعا وهو يتجاوب معي في استسلام، ودفعته إلى الغطس في المقصورة، ثم أخرجته علَى الفور.

كان لدي سبب وجيه لأهنئ نفسي علَى فكرتي في القيام بهذه التجربة؛ لأنه بدا منتعشا جدا ونشطا، وعند خروجه من الماء سألني بعقلانية، لماذا فعلت ذلك؟ وبعد شرح مقصدي، أعرب عن أنه مدين لي، وقال إنه يشعر بتحسن كبير، وبعد ذلك بدأ يتطرق - بحكمة - إلى وضعنا المأساوي، ثم عقدنا العزم علَى معاملة أوغسطس وبيترز بالطريقة نفسها التي قمنا بها علَى الفور.

ينبغي أن أشير هنا إلى أن فكرة الانغماس المفاجئ في الماء، قد جاءتني من خلال قراءة بعض الأعمال الطبية عن التأثير الجيد للاستحمام في حالِ كان المريض يعاني الهوس أو الخرف، حتى وإن كان السيد بو يعترض علَى ذلك!

وبعد أن وجدت أنني أستطيع أن أثق برفقائي في تثبيت نهاية الحبل، قمت مرَّة أخرى بمحاولة العثور علَى أي شيء في المقصورة، علَى الرغم من أنها أصبحت الآن مظلمة للغاية، كما أن موجة لطيفة ـ ولكن بها بعض القوة ـ هبت من الشمال جعلت هذا الهيكل غير مستقر إلى حد ما.

وخلال هذه المحاولات نجحت في جلب سكاكين، وعاء ماء ولكنه فارغ، وبطانية، لكن لا شيء يمكن أن نأكله.

تابعت جهدي، بعد حصولي علَى هذه المواد، إلى أن أصبت بالإنهاك التام، ولم أحضر أي شيء آخر، وأثناء الليل حاول باركر وبيترز بالتناوب؛ ولكن ليس هناك أي شيء يمكن أن يشرب أو يؤكل، لذا تخلينا الآن عن هذه المحاولات اليائسة، بدلا من إرهاق أنفسنا بلا جدوى.

قضينا ما تبقى من هذه الليلة في حالٍ من أشد حالات المعاناة النفسية والجسدية التي يمكن تخيلها. ومع فجر اليوم السادس، نظرنا بشوق إلى الأفق طلبا للراحة، وكان البحر لا يزال هادئًا، مع موجة طويلة فقط من اتجاه الشمال، كما كان البارحة. كان هذا هو اليوم السادس منذ أن تذوقنا الطعام أو الشراب، باستثناء زجاجة النبيذ، وكان من الواضح أنه لن يمكننا الصمود إلا لفترة قصيرة ما لم يتم الحصول علَى شيء.

لم أرَ من قبل في حياتي ـ ولا أتمنى أن أرى مرَّة أخرى ـ بشرا قد هزموا تماما، وتملك منهم اليأس مثل: بيترز، وأوغسطس. ولو التقيتهم علَى الشاطئ في حالهم الراهنة لأدرت وجهي إلى الناحية الأخرى مبتعدا عنهم، لا أستطيع أن أصدق أن هؤلاء هم الأشخاص أنفسهم الذين كنت أنفذ معهم خطتنا المحكمة منذ بضعة أيام قليلة، الجوع والعطش بدَّلا كلَّ شيء، حتى أوغسطس، بدا كأنه متسول بائس ينام علَى قارعة الطريق، خائفا من قذف الأطفال له بالحجارة!

باركر، علَى الرغم من أن معنوياته انخفضت بشكل محزن، وأصبح ضعيفا جدا لدرجة أنه لم يستطع رفع رأسه عن صدره، لكنه لم يذهب بعيدا كالاثنين الآخرين. لقد عانى بصبر كبير، ولم تصدر عنه شكوى، وسعى إلى إلهامنا بالأمل بكل طريقة يستطيع أن يبتكرها.

عن نفسي، علَى الرغم من أنني في بداية الرحلة كنت في حالٍ صحية سيئة، إلا إنني أشعر الآن وكأنني في ربيع مبهج، كأنني عدت طفلا من جديد، ربما كانت حالي العقلية محل شك، أو ربما كان عقلي يحاول إنقاذي من حالِ اليأس والجنون، ويتخذ نوعا من أنواع الدفاع الطفولي، أو ربما لأنني متمسك بالحياة بعد ما لاقيته في أيامي الأولى داخل بطن السفينة، وسط براميل النفط وقلة الإضاءة وضعف الهواء النقي.

في الظهيرة أعلن باركر أنه رأى اليابسة، وكنت بصعوبة بالغة أستطيع منعه من القفز في البحر، بينما بيترز وأوغسطس لم ينتبها لما قاله، علَى ما يبدو أنهما تائهان أو مصابان بصدمة الصمت البالغ.

وعندما نظرت في الاتجاه المشار إليه، لم أتمكن من إدراك أي مظهر لأي شاطئ.

في الواقع، كنت مدركا تماما أننا بعيدون عن أي أرض لكي ننغمس لا إراديا في أمل من هذا القبيل. لقد مرَّ وقتٌ طويل ـ بالرغم من ذلك ـ قبل أن أتمكن من إقناع باركر بخطئه.

ثم اندفع في فيضان من الدموع، يبكي مثل الطفل، مع بكاء بصوت عال وأنَّ أنينًا يمزق نياط القلوب، مدة ساعتين أو ثلاث، وعندما أصبح منهكا، سقط نائما كالجوال.

قام بيترز وأوغسطس بعدة جهود ـ غير فعالة ـ لابتلاع أجزاء من

الجلد، ونصحتهما بأن يمضغانها ويبصقانها، ولكنهما كانا منهكين للغاية لدرجة أنهما لم يتبعا نصيحتي.

واصلت مضغ قطعة من ذلك الجلد علَى فترات، ووجدت بعض الفائدة من ذلك؛ فكل الضيق كان علَى عدم توافر الماء، وقد ضبطت نفسي مرات عديدة أحاول ملء الدلو الفارغ من الماء الذي يغرق المقصورة، لكني تراجعت في اللحظات الأخيرة، متذكرا عواقب شرب الماء المالح، وكيف أنه لا يروي بل قد يزيد الأمر تعقيدا.

مرَّ اليوم علَى هذا النحو، لكن كل شيء انقلب رأسا علَى عقب، عندما لمحت فجأة ذلك الشراع إلى ناحية الشرق، بدت وكأنها سفينة كبيرة، وكانت قادمة نحونا تقريبا، لكونها علَى بعد ١٢ أو ١٥ ميلا بالتقريب.

لم يكتشفها أحد من رفاقي حتى الآن، وأنا لن أخبرهم عنها في الوقت الحاضر، خشية أن يخيب أملنا مرَّة أخرى.

بعد أن اقتربت منا، رأيت بوضوح أنها كانت متجهة إلينا مباشرة، مع أشرعتها الضوئية المملؤة بالهواء. لم أعد أستطيع السيطرة علَى نفسي وأشرت إلى رفقائي الذين قفزوا علَى الفور علَى أقدامهم، وأنغمسوا مرَّة أخرى في أكثر المظاهر إسرافا في البهجة، وبكوا، وضحكوا بطريقة غبية، وقفزوا من جديد، وشتموا أنفسهم وشتموني وشتموا الهيكل البائس، ثم سقطوا فوق السطح مستلقين من التعب.

رحت أمارس كل الأفعال المجنونة الممكنة، مثل التصفيق بيديَّ الصراخ وغيرها من أعمال مماثلة، لكن ما حدث بعدها أعاد لي كل الإحباط الممكن، فقد غيرت السفينة اتجاهها قبل أن تبلغنا ببضعة أميال قليلة، واتخذت اتجاها آخر، كان بعيدا كل البعد عنا.

مرَّ بعضُ الوقتِ قبل أن أتمكن من إخبار رفاقي المساكين بهذا النحس المحزن والخيبة في توقعاتنا، ولقد أجابوا علَى كل كلماتي بنظرة وإيماءة تدل علَى أنه لا يجوز خداعهم بمثل هذه التزييف، وأن السفينة قادمة لنجدتنا لا محالة، وأكثر ما أحزنني هو سلوك أوغسطس البائس، حيث راح يكذب كلماتي وينعتني بالأبله، ثم أشار إلى قطعة خشبية طافية في البحر مؤكدا أنها قارب النجاة من تلك السفينة، وأن عليه اللحاق بها، وحاول رمي نفسه إلى الماء وهو يصرخ في جنون وبؤس لا حد لهما.

وبعد الكثير من الصراخ، وبعد أن أصبحت الأجواء في درجة ما هادئة، واصلنا مشاهدة السفينة وهي تبتعد حتى فقدنا أخيرا رؤيتها، ثم أصبح الطقس ضبابيا، مع نسيم خفيف ينبعث من جهة الشرق، فاستدار باركر نحوي فجأة بتعبير علَى وجهه جعلني أرتجف.

وقبل أن يفتح شفتيه قال لي قلبي ما كان سيقول. واقترح، بعبارات قليلة مقتضبة، أن أحدنا يجب أن يموت، حتى يعيش الآخرون.

الفصل الثاني عشر

كنت أنكر لبعض الوقت إمكانية حدوث ذلك؛ أن يفرض الموت على أحدنا حتى يعيش البقية، وأنني أفضل الهلاك في أي شكل أو تحت أي ظرف من الظروف بدلا من اللجوء إلى مثل هذه الحلول، الموت بالقوة وبالإجبار.

ولم يسمع هذا الاقتراح سواء من قبل بيترز أو أوغسطس، ربما بسبب حالهما المتردية؛ لذلك أخذت باركر جانبا، وأنا أصلي للرب في سري؛ كي يعيد إليه عقله ويمنعه من فعل ذلك، وتجادلت معه فترة طويلة، ورحت أستحلفه بكل ما هو مقدس وبشري؛ كي يتوقف عن التفكير في هذا الحل المقيت.

سمع كل ما قلته دون محاولة مناقشتي، جامد الوجه متبلد الملامح، وقد بدأت آمل أن يقتنع بما قلته وأن تثنيه حججي عن فعل ذلك.

ولكن عندما كنت قد توقفت عن الكلام، قال إنه يعرف جيدا أن كل ما قلته كان صحيحا، وأن اللجوء إلى مثل هذه الحلول كان أفظع

من أن يرد في عقل أي رجل رشيد، ولكننا نتحدث هنا عن حياة ثلاثة أشخاص آخرين، لا بد أن يعيشوا، وأن هذا هو الأمل الوحيد؛ كي يصل الثلاثة الباقون إلى بر الأمان، وأن عليَّ أن أوفر على نفسي عناء المحاولة؛ كي أثنيه عن ذلك، وأنه لن تستطيع قوة في الأرض أن تثنيه عن هذا الحل الآن.

رحت أتوسل إليه وأتذلل له، إذا لم يكن ينوي التخلي عن فعله، على الأقل يمكن تأجيله ليوم آخر، ربما تظهر سفينة ما. ومرَّة أخرى حاولت أن أكرر كل حجة يمكنني ابتكارها، والتي ظننت أنها قد تؤثر على طبيعته القاسية وتصميمه البالغ، فقال إنه لن يقدر شخصيا على الاستمرار ليوم آخر، وأننا بالفعل قد تأخرنا كثيرا عن تنفيذ ذلك، وبدا لي وكأن الشيطان قد ركب رأسه الضخم وأصر على تنفيذ ما ينويه، لا بد من الحصول على الطعام والآن وليس غدا!!

والآن لم يعد أمامي سبيل معه، بل إن نظرات عينيه الجشعة تجاهي أنبأتني أنني ربما أكون ذلك الصيد الذي ينوي صيده، لقد أشار إلى صحتي وعافيتي وأنني أفضلهم تحملا وقوة الآن، ونظرات عينيه تشع جوعا، جوع آكلي لحوم البشر، الذي عرفته لاحقا.

لذا، فلن أكون مترددا ولو بحمل حبة قمح أن ألقيه في البحر إذا لزم الأمر.

وعلى الفور، هجم عليَّ بكل قوته، وطوق رقبتي وهو يخرج سكينا من جيبه، وبذل عدة جهود غير فعالة لطعني في معدتي؛ لكن قوته الضائعة - بالرغم من رغبة البقاء التي كانت تملأ شرايينه - منعته من فعل ذلك.

في هذه الأثناء، رحت أدفع بجسدي حتى أجبرته على الوصول إلى

جانب السفينة، مع عزمي علَى رميه خارج السفينة في اللحظة المناسبة. لكن بيترز ظهر في اللحظة الأخيرة، وانقض عليه ملقيا إياه في الأرض وفصلنا عن بعضنا وفض الاشتباك القائم، وسأل غاضبا عن سبب ذلك.

وقبل أن أنطق بحرف، راح باركر يصرخ عاليا باقتراحه المميت، يصرخ في وجه بيترز ووجه أوغسطس.

كان تأثير كلماته أكثر فظاعة مما توقعت.

كان أوغسطس وبيترز ـ اللذان يبدو علَى وجههما الاقتناع ـ قد ناقشا الفكرة مرارا بشكل سري، وخيبا أملي في أن يكون واحد علَى الأقل من الاثنين لا يزال يمتلك قوة كافية من العقل ليقف إلى جانبي في مقاومة أي محاولة لتنفيذ هذه الفكرة المروعة، وبمساعدة أي منهما، لم يكن لدي شك ولو ضئيل في قدرتي علَى منع إنجازها، وقد خاب أملي في هذا التوقع. أصبح من الضروري تماما أن أحرص علَى سلامتي الشخصية، حيث أن أي مقاومة إضافية من جانبي قد يعتبرها رجال في حالهم المرعبة عذرا كافيا لكي أكون أنا الفريسة المنتظرة.

لذا، فقد أخبرتهم الآن أنني علَى استعداد لتنفيذ هذا الاقتراح، لكني طلبت التأخير فقط لمجرد ساعة تقريبا، حتى ينقشع الضباب المحيط بنا قليلا، وربما ترانا تلك السفينة من جديد إذا لم تكن قد ابتعدت كثيرا، وبعد صعوبة كبيرة حصلت منهم علَى وعد بالانتظار فقط لهذا الوقت، مع الوعد بالمشاركة بكل هدوء في القرعة التي ستحدد من هو الضحية، وكما كنت أتوقع، ارتفع الضباب قبل أن تنتهي الساعة، عندما لم تظهر أي سفينة في الأفق، كنا علَى استعداد لسحب القرعة.

إنني أتردد بشدة في الحديث عن المشهد المروع الذي أعقب ذلك؛

وهو مشهد لا يمكن روايته بعد هذه الأحداث بأدق التفاصيل، لذا اسمحوا لي أن أحذف هذا الجزء من روايتي بقدر ما تسمح به طبيعة الأحداث التي سيتم الحديث عنها لاحقا.

كانت الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نجري بها هذه القرعة المروعة كانت عيدان القش، ولما كانت غير متوفرة، فقد تم صنع شظايا صغيرة من الخشب تحقق الغرض نفسه، وتم الاتفاق علَى أن أكون أنا حامل الوعاء، بينما رفاقي المساكين وقفوا بصمت في الطرف الآخر وأداروا ظهورهم نحوي.

كانت المرارة التي تملأ حلقي الآن لاتوصف، شعوري بالعجز الشديد عن حماية نفسي وحماية صديقي الذي ذهب عقله، ومرارة أنني قد أكون صاحب اليد التي ستساهم في إنهاء حياة مسكين تَعِسَ الحظ، عاش حتى يشهد هذه اللحظة ولحمه يستقر في معدة ثلاثة من المجانين التعساء، والمخيف أن هذا الشخص ربما يكون أنا!

لكن الآن، وبعد أن خضنا كل هذه الأهوال، لم أكن أملك طاقة ولو بسيطة لمحاولة إنقاذ نفسي وإنقاذ الآخرين من الموت، طاقتي نفدت وامتلأتُ ـ بدلا منها ـ يأسا وجوعا وانكسارا وألَما.

كنت أرتجف، الدموع محبوسة في عينيّ، وأصابعي ترتعش رافضة أن تلمس أيًا من قطع الخشب، وركبتاي سائبتان كأعواد القمح اللينة، وحلقي الجاف كأن شوكة مزروعة فيه، يعجز حتى عن إصدار صوت الأنين.

لا يزال عقلي يعمل بسرعة ويبحث عن ألف حل سخيف لتجنب هذه الفاجعة، فكرت بالسقوط علَى ركبتيّ متوسلا إليهم ألا يفعلوا

ذلك، أو أن نحاول فعل أي شيء آخر، أو أن ننتظر يوما آخر، فكرت أن أتوسل إليهم كي نقفز حتى في البحر جميعا ونموت في سلام، أفضل من أن نصبح همجا، آكلي لحوم بشر.

وبعد إضاعة وقت طويل في هذه الأفكار المعتوهة عديمة الفائدة، رفع باركر صوته طالبا أن أنهي هذه المأساة في أسرع وقت، وأن أكون أمينا في ما سوف أفعله.

كانت القواعد واضحة، من يسحب من الوعاء الذي في يدي أقصر عود من الخشب يكون هو الفريسة المنشودة، وسيقدم حياته طواعية وبلا أي مقاومة.

لم يعد التسويف ممكنا، ومع اقتراب قلبي من الانفجار في صدري من شدة الخوف، تقدمت إلى منطقة المقدمة وأنا أهز الدلو؛ كي تختلط الأعواد، وحيث كان رفاقي في انتظاري، أمسكت بيديّ الوعاء ورفعته ناحية أيديهم خلف ظهورهم.

بيترز سحب علَى الفور، لم يكن عوده هو العود الأقصر، وتضائلت احتمالات نجاتي الآن إلى واحد من ثلاثة.

استجمعت كل قوتي، ومررت الدلو إلى أوغسطس، الذي سحب أيضا علَى الفور، وكان أيضا ليس الأقصر. والآن أصبحت الفرصة النصف، النصف بالتمام؛ أنا أو باركر.

في هذه اللحظة، شعرت بأن شراسة النمر امتلكت صدري، وشعرت نحو زميلي المسكين، باركر، بكراهية شيطانية مقيتة متمنيا أن يكون هو الضحية لينال جزاء مقترحه الشيطانيّ.

لكن الشعور لم يدم، وبينما أرتجف وعيوني مغلقة، أخرجت العود المتبقي نحوه، وأخرجت العود الذي يفترض أن يكون مصيري فيه.

خمس دقائق كاملة مرَّتْ قبل أن نتمكن من معرفة القرار النهائي، لم أكن أعرف ما إذا كان معي أو ضدي، لم يتحدث أحد، ومع ذلك لم أجرؤ علَى النظر إلى العود النائم في براءة بين يديّ.

بيترز سحبني من يدي، وطلب منِّي أن أهدأ قليلا، كنت أرتجف ووجهي شاحب وعيناي مغرورقتان بالدموع، لكن نظرة واحدة لوجه باركر جعلتني أدرك كل شيء، أنا في آمان، وانقلب السِّحْرُ علَى السَّاحِرِ.

رحت أمسح عيني وأنا أنظر إليه، والآن حان الوقت لإكمال المأساة، مأساة شخص كان له دور رئيسي في تحقيق ذلك.

لم يبد أي مقاومة، حتى عندما طعن في ظهره فجأة من قبل بيترز، وسقط ميتا علَى الفور.

أعتقد أنني يجب ألا أطيل في الحديث عن ما أعقب ذلك علَى الفور. مثل هذه الأشياء يمكن تخيلها حسب مخيلة من يقرأ كلماتي الآن، فالكلمات ليست لها قوة لإثارة الرعب في العقول مثل الخيال نفسه.

يكفي أن نقول أن العطش قد يكون ارتوى من ما يملأ الدلو الآن، وبعد أن اُقتلِعَت اليدان والرأس والقدمان وألقي بها إلى البحر، أصبح لدينا وجبة ما، كنا نأكل منها لأربعة أيام لا يمكن أن تمحى من خيالي ما حييت، وستطاردني إلى الجحيم بعد أن أموت، الأيام الأربعة: السابع عشر والثامن والتاسع عشر والعشرون من الشهر الجاري.

في التاسع عشر، هطلت أمطار لنحو خمس عشرة أو عشرين دقيقة،

حاولنا التقاط بعض الماء عن طريق صنع قمع من القماش يسهل ملأ الدلو به، لكن الكمية التي أخذناها لم تبلغ أكثر من نصف جالون؛ ولكن حتى هذه الكمية الضئيلة زودتنا بقوة وأمل مقارنة بشرب الدم.

وفي الحادي والعشرين، اقترب ما لدينا علَى النفاد، الطقس صحو ودافئ، لكن ما تبقى لدينا من وجبتنا الآثمة لن يكفي كثيرا.

في الثاني والعشرين، بينما كنا جالسين علَى مقربة متجمعين معا بشكل كئيب متحلقين حول حالنا المؤسفة، ظهرت في ذهني فكرة ألهمتني بريق من الأمل. وتذكرت أنه عندما تم قطع الصاري الأمامي، من قبل بيترز، ناولني أحد الفؤوس في يدي، طالبا منِّي أن أضعه، إن أمكن، في مكان آمن، وإنَّ قبل بضع دقائق قبل أن تضرب السفينة تلك العاصفة المهيبة وتملأها بماء البحر، كنت قد أخذت هذا الفأس إلى المقدمة ووضعته في أحد فتحات المراسي الأمامية، ففكرت الآن أنه من الممكن، من خلال الحصول علَى هذا الفأس، قد نصنع فتحة علَى سطح السفينة فوق المخزن مباشرة، وبالتالي تزويد أنفسنا بالمؤن.

فكرة متأخرة بعد فوات الأوان، لكني لم أستطع أن ألوم نفسي علَى عدم الوصول إليها قبل أن نفقد باركر.

عندما نقلت هذه الفكرة إلى رفاقي، صدرت عنهما صيحة ضعيفة من الفرح، وذهبنا ثلاثتنا إلى المقدمة.

ربطت الحبل حول وسطي، وانزلقت بجسدي ناحية تلك الفتحة وهما يمسكان بي، وكانت فرحتي عارمة عندما وجدت الفأس عالقا بحبال المرسى في الفتحة، بعد أن انزلق من العاصفة إلى أسفل، فتناولت الفأس بيدي وشددت الحبل؛ كي يرفعونني إلى الأعلى من جديد.

بدأنا الآن القطع علَى سطح السفينة مع كل الطاقة التي تولدت من إحياء الأمل، بيترز وأنا أخذنا الفأس بالتناوب، لأن ذراع أوغسطس المصابة لا تسمح له بمساعدتنا بأي درجة.

كنا في حالٍ ضعف وإرهاق عظيمة، وبالتالي لا يمكن أن نعمل لمدة دقيقة أو اثنتين دون أن نستريح، فإنه سرعان ما أصبح واضحا لنا أن ساعات طويلة ضرورية لإنجاز مهمتنا، ولكي نتمكن من قطع فتحة كبيرة بما فيه الكفاية تضمن لنا حرية الوصول إلى المخزن، وأخيرا، نجحنا في تحقيق هدفنا قبل فجر اليوم الثالث والعشرين.

وقد تطوع بيترز الآن للنزول، وبعد أن قام بكل الترتيبات كما كان من قبل، نزل، وسرعان ما عاد ومعه جرة صغيرة، والتي ـ لبهجتنا العظيمة ـ كانت مليئة بالزيتون.

وبعد أن تقاسمنا هذه الحبات، والتهمنا منها أكبر قدر ممكن ليوم كامل، بدأنا نشعر من جديد بالحاجة إلى المؤن.

هذه المرَّة نجح أكثر من توقعاتنا، نزل إلى الأسفل، وعاد علَى الفور بقطعة لحم خنزير كبير وزجاجة من نبيذ ماديرا.

هذه المرَّة تناولنا النبيذ بحرص شديد، بعد أن تعلمنا من التجربة السابقة العواقب الوخيمة المترتبة علَى تعاطي جرعات كبيرة من الخمر، ولم يكن لحم الخنزير صالحا للأكل بشكل كامل، باستثناء ما كان بالقرب من العظم، بعد أن أفسده الماء المالح تماما.

قسمنا اللحم بيننا، حيث لم يستطع بيترز وأوغسطس كبح جماح شهيتهما؛ لكنني كنت أكثر حذرا، وأكلت جزءا صغيرا، متخوفا من

العطش الذي كنت أعرف أنه سيعقب تناول وجبتنا شبه المملحة بالكامل.

بحلول الظهيرة، كنا نشعر ببعض القوة والانتعاش، لذا فقد جددنا محاولتنا مرَّة أخرى، فنزلت أنا وبيترز بالتناوب، حتى الغروب، وخلال هذه الفترة كان لدينا الكثير من الحظ الجيد مكننا من أن نلتقط أربع جرار أخرى صغيرة من الزيتون، وقطعة أخرى من لحم الخنزير وإناء يحتوي علَى حوالي ثلاثة جالونات من نبيذ ماديرا الممتاز ـ وهو ما أعطانا المزيد من المتعة ـ بل وجدنا سلحفاة صغيرة من سلالة الجاليباجو، والتي تم اصطحاب العديد منها علَى متن السفينة من قبل الكابتن برنارد، عندما كانت سفينتنا ـ جرامبوس سابقا ـ عائدة من رحلة طويلة في المحيط الهادي.

تتميز هذه النوعية من السلاحف بميزة تشبه الجِمال في الصحراء؛ ففي كيس في أسفل الرقبة تحمل مخزونا من إمدادات المياه، وفي بعض الحالات ـ عند موتهم بعد مرور سنة كاملة من الحرمان من التغذية ـ قد يتم العثور علَى ثلاثة جالونات من الماء الحلو والعذب تماما في تلك الأكياس.

ومن الحظ الجيد والسيئ في الوقت نفسه، كانت السلحفاة التي رفعناها من المخزن لم تكن بحجم كبير، ربما تزن خمسة وستين أو سبعين رطلا. كانت أنثى، وفي حالٍ ممتازة، وسمينة جدا، ولديها أكثر من عشرة جالونات من الماء الحلو في كيس رقبتها، هذا كنز لا يمكن التفريط فيه، وركعنا أنا وأوغسطس علَى ركبتينا فرحا وابتهالا للرب الرحيم علَى هديته.

واجهنا صعوبة كبيرة في جعل الحيوان يخرج من صدفته العملاقة،

لأن مقاومته كانت عنيفة للغاية، بل إنها هربت من بيترز وحاولت أن تعود إلى الفتحة نحو الماء حين رمى أغسطس حبلا بعقلة حول حنجرتها وأمسكها بهذه الطريقة قبل أن تقفز إلى الحفرة من جديد.

وبعد أن أمسكنا بها، ثقبنا ذلك الكيس ونحن نحاول الحفاظ على حياة الحيوان البائس، وأخذنا منه بعناية قطرات ملأنا بها قنينة النبيذ السابقة التي انتهينا منها، ثم صنعنا سدادة بالفلين وصنعنا ثقبا صغيرا يُمكِّن كلا منَّا من تناول رشفة صغيرة، وحتى لا ينفد مخزوننا سريعا، ولكي تعتاد أنفسنا علَى هذه الكمية فقط كل يوم.

خلال اليومين أو الثلاثة الماضية، كان الطقس جافا ومريحا، وكانت المراتب التي حصلنا عليها من المقصورة، وكذلك ملابسنا، قد أصبحت جافة تماما، حتى إننا مررنا بهذه الليلة (الثالث والعشرين من الشهر) براحة نسبية، مستمتعين بالطقس الجيد وامتلاء بطوننا وري عطشنا، ثم قمنا بتأمين بعض غنائمنا بشكل جيد حتى لا نفقدها إذا هبت ريح الصباح العنيفة، ثم قمنا بربط سلحفاتنا الثمينة وهي نائمة علَى ظهرها، حتى لا تفقد حياتها ولا تقوم بالهروب منا من جديد في القاع.

وأخيرا، بعض من الراحة في خضم هذه الرحلة الرهيبة.

الفصل الثالث عشر

سأعود إلى كتابة حكايتي علَى طريقة اليوميات، فربما تكون طريقة بسيطة لفهم الأحداث المتلاحقة بشكل أكبر.

الرابع والعشرون من يوليو:

كنا في هذا الصباح محملين بشكل كبير بالقوة والنشاط، علَى الرغم من الوضع الخطير الذي كنا ما زلنا فيه، فنحن علَى بعد كبير من الأرض، دون طعام يكفي لأكثر من أسبوعين حتى مع الحرص والاقتصاد، تقريبا دون ماء يكفي لأكثر من بضعة أيام، وسفينة مخوخة تحت رحمة أي رياح بسيطة أو أمواج عالية قد تهب، لكن إذا عقدنا مقارنة بسيطة بوضعنا الآن ووضعنا منذ عدة أيام، لكان هذا هو أفضل الشرور طيبة وخيرا.

عند شروق الشمس كنا نستعد لتجديد محاولاتنا للحصول علَى شيء من المخزن، عندما تمطر قليلا، كنا نوجه اهتمامنا إلى صيد الماء عن طريق الورقة التي علَى شكل القمع والتي استخدمناها من قبل لهذا الغرض، فلم يكن لدينا أي وسيلة أخرى لجمع الماء.

وفي الظهيرة كانت الريح قد تحولت إلى نسيم قوي، وفي الليل إلى عاصفة عنيفة مصحوبة برياح غاضبة شديدة، لكن التجربة علمتنا أفضل طريقة لتنظيم جهودنا والحفاظ علَى ممتلكاتنا الثمينة، وقد نجحنا في هذه الليلة المروعة بطريقة مقبولة، علَى الرغم من إنهاكنا الشديد وخوفنا من أن تعاود الرياح الهبوب أو ألا يكون طقس اليوم التالي دافئا يسمح لنا بتجفيف ثيابنا وأمتعتنا البسيطة.

الخامس والعشرون من يوليو:

هذا الصباح تضاءلت العاصفة إلى نسيم لا يتعدى علَى التقريب العشر عقد فقط، وهدأ البحر معها بشكل كبير بحيث استطعنا أن نبقي أنفسنا جافة علَى سطح السفينة. لكن من حزننا الشديد، وجدنا أن جرار زيتوننا، وكل لحم الخنزير، قد غُمِرتْ بالماء ساعة العاصفة، علَى الرغم من الطريقة الحصينة التي حاولنا حمايتها بها.

على الرغم من ذلك، صممنا علَى عدم قتل السلحفاة، واكتفينا في الوقت الحاضر بإفطار من بعض الزيتون، وكمية من الماء نمزج نصفها مع الخمر، فوجدنا ارتياحا من الخليط، فهو لا يسبب تلك الحال من السكر العنيف والغياب عن الوعي كما كان يفعل الخمر القوي.

البحر كان لا يزال صعبا جدا علَى تجديد جهودنا للنزول إلى المخزن والحصول علَى تموين جديد. فقد كانت السفينة لا تزال تتراقص مع النسيم، والبحر علَى الرغم من هدوءه إلا إنه كان متقلبا، وبعد أن أمطرت قليلا، ثم هدأت، كان الوضع لا يزال صعبا علَى النزول إلى المخزن الآن.

وفي هذا السياق، مررنا بيوم كئيب وغير مريح، وظهرت الشمس

عند الظهر شبه متعامدة، وفي المساء، رأينا العديد من أسماك القرش، وقد انزعجت نوعا ما من الطريقة الجريئة التي اقتربت بها واحدة كبيرة جدا من الهيكل وكأنها تدرسه، ثم راحت تضربه بمُقَدَّم رأسها وكأنها تحاول الحصول علَى صيد بشري منهك ملقى فوق سطح السفينة، ثم ابتعدت عندما ألقى بيترز عليها قطعةً من الخشبِ.

السادس والعشرون من يوليو

صباح اليوم، خفت الرياح كثيرا، ولم يكن البحر شديد الخشونة والعنف كما سبق، لذا صممنا علَى تجديد محاولتنا البحث في المخزن، وبعد عمل شاق كبير طوال اليوم، وجدنا أنه لا يوجد شيء آخر يمكن العثور عليه، فكل محتويات الغرفة قد انجرفت بعيدا عن مكان الفتحة؛ نتيجة الاهتزاز والعواصف المتلاحقة، وربما انجرفت إلى داخل المكان الذي كنت مسجونا فيه، وهو ما أصابنا باليأس والحزن.

السابع والعشرون من يوليو:

سطعت الشمس يومها بشكل ممتاز، وهو ما جعلنا قادرين علَى تجفيف ثيابنا، ثم قمنا بالاستحمام قليلا في البحر الهادئ حول السفينة، ولكن بكثير من الحذر، خوفا من أن تقترب أسماك القرش من جديد، والتي كانت تسبح قريبة من السفينة طوال ساعات النهار الأولى، لكن الاستحمام منحنا الكثير من الانتعاش ورفع قليلا من معنوياتنا المحطمة.

الثامن والعشرون من يوليو:

الطقس لا يزال جيدا، لكن السفينة بدأت تميل إلى جانبها قليلا بشكل مقلق جدا لدرجة أننا خشينا من أنها في نهاية المطاف ستنهار من الأسفل إلى الأعلى.

قمنا بإعداد أنفسنا لحالِ الطوارئ هذه، فقمنا بربط السلحفاة وجرة المياه المتبقية وجرتيّ الزيتون بالسلاسل الكبيرة عند المقدمة، حتى إذا انهارت السفينة إلى الأسفل يمكننا أن نبقى علَى المقدمة قليلا. البحر ناعم جدا طوال اليوم، مع القليل من الرياح أو دون رياح علَى الإطلاق.

التاسع والعشرون من يوليو:

حالٌ من الاستمرار للطقس الجيد نفسه.

ذراع أوغسطس الجريحة؛ بدأت تظهر أعراض التعفن علَى الجرح، ولكن لا ألم حاد. لا شيء يمكن أن يعمل لراحته ما عدا فرك جروحه بالقليل من الزيتون والماء المالح، ومع هذا لم يبدو أن هناك فائدة من ذلك. فعلنا كل شيء في وسعنا لراحته، وضاعفنا حصته من الماء.

الثلاثون من يوليو:

يوم حارٌ جدًّا، دون رياح.

قرش ضخم ظل قريبا من الهيكل طوال الضحى، وقمنا بعدة محاولات فاشلة للقبض عليه بواسطة حبل المشنقة الذي كان أوغسطس قد صنعه للقبض علَى السلحفاة سابقا.

حالُ أوغسطس صارت أسوأ بكثير، وكان يصلي باستمرار ليرتاح من معاناته، متمنيا التعجيل بالموت. هذا المساء أكلنا آخر زيتوناتنا، ووجدنا الماء في إبريقنا فاسدا جدا وملوثا، بحيث لا يمكن شربه إلا بإضافته للكحول، لذا صممنا في الصبح علَى قتل السلحفاة.

الحادي والثلاثون من يوليو:

وبعد ليلة من القلق والتعب المفرط بسبب وضع أوغسطس السيئ،

لأنا إلى قتل السلحفاة وقطع لحمها. وقد تبين لنا أنها أصغر بكثير مما كان يفترض، وعلى الرغم من أنها في حالٍ جيدة، إلا إن كل اللحم الناتج عنها لا يزيد عن عشرة أرطال.

وبهدف الحفاظ علَى جزء من هذا اللحم لأطول فترة ممكنة، رحنا نقطعه إلى قطع صغيرة، وملأنا بها جرات الزيتون وجرة الخمر الخاوية، وبهذه الطريقة نتخلص من حوالي ثلاثة أرطال من السلحفاة، عازمين عدم لمسها حتى نستهلك الباقي؛ وهكذا يدوم الكل ثلاثة عشر يوما.

هطلت الأمطار، مع الرعد الشديد والبرق عند الغسق، ولكنها دامت لفترة قصيرة جدا لدرجة أننا نجحنا فقط في الاحتفاظ بربع الدلو من الماء، وكل هذا بموافقة مشتركة بيني وبين بيترز، أعطي لأوغسطس، الذي بدا الآن وكأنه في الرمق الأخير، وشرب الماء من الدلو عندما رحنا نصب بهدوء داخل فمه وهو مستلق علَى الأرض من شدة التعب، فلم يعد عندنا الآن شيء قادر علَى حمل الماء سوى الدلو، إلا إذا اخترنا أن نفرغ خمرنا من الجرة الباقية أو نفرغ الماء الذي حصلنا عليه من السلحفاة، وهو ما رفضه بيترز بشدة.

حالُ أوغسطس تسوء ومعاناته تزداد، فذراعه كانت سوداء تماما من المعصم إلى الكتف، وقدماه كانتا باردتين مثل الثلج، وتوقعنا كل لحظة أن نراه يلفظ آخر أنفاسه، هزاله الشديد كان مرعبا، لدرجة أنه علَى الرغم من أن وزنه كان مائة وسبعة وعشرين رطلا عند مغادرته نانتوكيت، إلا إنه الآن لم يكن يزن أكثر من أربعين أو خمسين علَى أقصى تقدير، وعيناه غائرتان غارقتان في رأسه، وجلد خديه كان متدليا فوق أطراف فمه، حتى إنه كان يعاني صعوبة في الأكل أو حتى كي يبتلع أي سائل.

الأول من أغسطس:

استمر الطقس الهادىء نفسه مع شمس حارة جعلتنا نعانى بشكل كبير العطشَ. الماء في الإبريق كان متعفنا جدا ويعج بالآفات والطحالب، ومع ذلك، اضطررنا إلى ابتلاع جزء منه عن طريق خلطه مع النبيذ.

وجدنا أن أكثر الطرق فائدة لترطيب أجسادنا والتخفيف من آلام العطش عن طريق الاستحمام في البحر، ولكن لا يمكن أن نقوم بذلك علَى فترات طويلة بسبب استمرار وجود أسماك القرش.

رأينا الآن بوضوح أن أوغسطس لا يمكن إنقاذه؛ كان يموت على ما يبدو من هيئته البائسة وأنفاسه الثقيلة البطيئة، ونحن لا يمكننا أن نفعل شيئا لتخفيف معاناته، التي بدت كبيرة.

حوالي الساعة الثانية عشرة، رحل صديقي ورفيقي أوغسطس بعد أن اهتز جسده في تشنجات قوية مرعبة.

وفاتُه ملأتنا بالكثير من التشاؤم وكان لها تأثير كبير علَى أرواحنا لدرجة أننا جلسنا بلا حراك بجانب الجثة طوال اليوم - إن لم يكن حتى بعض الوقت بعد الظلام - حتى واتتنا الشجاعة لرمي الجسد خارج السفينة - بعد أن حاولت الصلاة عليه - وألقينا بجسده إلى الماء عندما رأينا الوهج من ضوء الفوسفور الذي كان محاطا به، والذي كشف لنا بوضوح أن سبعًا أو ثمانٍ من أسماك القرش الكبيرة تتعارك على فريسة جديدة، وسمعنا صوت أنيابها العملاقة وهي تمزقه ودماؤه تغرق البحر حولنا.

جرينا، وتقلصنا داخل أنفسنا في أقصى درجات الرعب من هذا الصوت.

الثاني من أغسطس:

الجو الهادىء نفسه، والمثير للخوف.

كنا في حالٍ مثيرة للشفقة، فضلا عن الإرهاق الجسدي، والماء في الإبريق الآن عديم الفائدة تماما، فقد كان شبيها بكتلة هلامية سميكة؛ لا شيء سوى الديدان المرعبة الممزوجة بالطحالب، لذا فقد رميناه خارجا، وغسلنا الإبريق جيدا في البحر.

لا يمكن تحمل عطشنا الآن، وحاولنا عبثا أن نخففه بالنبيذ، فبدا فقط كأننا نضيف الوقود إلى اللهب، وسعينا بعد ذلك إلى التخفيف من معاناتنا بخلط النبيذ بمياه البحر؛ ولكن ذلك أدى علَى الفور إلى عواقب أكثر عنفا وسوءا، حتى لا نحاول مرَّة أخرى.

خلال اليوم كله سعينا ـ بقلق ـ إلى الحصولِ علَى فرصة للاستحمام، ولكن من دون نجاح؛ لأن السفينة الآن محاصرة بالكامل من جميع الجوانب بأسماك القرش التي التهمت رفيقنا المسكين في المساء السابق.

لقد كنا نحصل علَى رفاهية وبعض السلوى التي لا توصف في الاستحمام، وكان قطع هذا المورد بطريقة مخيفة جدا أكثر مما يمكننا تحمله.

كانت القروش العملاقة تتقافز حول السفينة، وتضرب برؤوسها الأخشاب محاولة زعزعتها أو إسقاط أيّ منَّا إليها، حتى ونحن ملتزمين الهدوء بعيدا عن الحافة التي كانت تميل نحو الماء كل يوم أكثر من ذي قبل.

لا أحد منا يمكنه ردعها عن هدفها كما يبدو، حتى عندما ضُرِبَ واحدٌ منهم بالفأس من قبل بيترز وجرح الكثير منها عندما قفزت محاوِلَةً الاقتناص.

سحابة ظهرت عند الغسق، لكن، وزيادة لألمنا الشديد، مرَّت دون تفريغ نفسها من الأمطار.

من المستحيل تماما تصور معاناتنا من العطش في هذه الليلة، ومررنا بليلة بلا نوم، سواء بسبب العطش المؤلم أو خوفا من أن تنزلق أجسادنا فتصبح قريبة من هذه الوحوش الغاضبة بالأسفل.

الثالث من أغسطس:

لا أمل للإغاثة، والمؤخرة والمنتصف لا يزالان يغوصان ناحية الماء أكثر وأكثر، حتى أننا الآن لا يمكننا الحفاظ علَى قدم فوق سطح السفينة علَى الإطلاق سوى في أطراف المقدمة.

انشغلنا بتأمين نبيذنا ولحم السلحفاة، حتى لا نفقدهما في حال تدحرجنا، ورحنا نثبتهما بمسامير عوارض المقدمة، لكون هذا المكان أكثر أمنا من موقعهما السابق تحت السلاسل بالنظر إلى الظروف الحالية.

عانينا معاناة كبيرة من العطش طوال اليوم، ولا فرصة للاستحمام بسبب أسماك القرش، التي لم تتركنا للحظة واحدة.

حتى أننا وجدنا أنه من المستحيل النوم.

الرابع من أغسطس:

قبل حلول النهار بقليل، شعرنا أن السفينة راحت تميل بعنف ناحية الغرق، وحاولنا بكل الطرق أن نبقي علَى أنفسنا في المقدمة.

في البداية كان الهبوط بطيئا وتدريجيًّا، وحاولنا أن نمسك بالحبال التي ثبتناها إلى المقدمة بشكل جيد، ولكننا لم نحسب بما فيه الكفاية معدل تسارع هذا الهبوط؛ ففي الوقت الحالي أصبح الهبوط عنيفا إلى الحد

الذي لن يسمح لنا بمواكبته؛ وقبل أن يعرف أي منا ما الذي سيحدث، وجدنا أنفسنا وقد ارتطمنا بالبحر بشراسة، ونجاهد الغبار وبقايا الخشب المتناثر حولنا، مع الهيكل الضخم الذي انقلب فوقنا مباشرة.

عندما سقطت تحت الماء اضطررت إلى فك قبضتي عن الحبل؛ واكتشفت أنني كنت تحت السفينة تماما، منهك القوى والعزيمة وبالكاد كنت أقاتل من أجل الحياة، وأعددت نفسي للموت المحقق في بضع ثوان، ولكن حساباتي لم تكن دقيقة من جديد، إذ لم آخذ في الاعتبار الارتداد الطبيعي للهيكل عندما انقلب، وزوبعة الماء التي سيثيرها ارتطامه بالماء، والتي جعلتني أصعد إلى السطح بعنف أكبر مما كنت قد غرقت تحته.

وعندما قذفني التيار المضطرب إلى الأعلى وجدت نفسي علَى بعد عشرين ياردة من السفينة كما استطعت أن أخمن، السفينة التي كانت مستلقية تتأرجح بشدة من جانب إلى آخر، وكان البحر في كل الاتجاهات حولها مضطربا، ومليئا بزوابع وباضطرابات قوية، وعيناي تجوبان الماء حولي بحثا عن رفيقي الأخير، لكن لم أرَ بيترز.

كان أحد براميل النفط يطفو علَى بعد بضعة أقدام منّي، وهناك العديد من الأغراض الأخرى، بينما كان رعبي الرئيسي الآن بسبب أسماك القرش، التي كنت أعرف أنها قريبة منّي.

من أجل ردع هذه الوحوش ـ إن أمكن ـ قمت بضرب الماء بقوة بيديّ وقدميّ معا بينما كنت أسبح في اتجاه السفينة المقلوبة، منشئا عاصفة من الزبد؛ كي تنجذب إليه الأسماكُ المتوحشةُ بينما أكون قد وصلت أنا إلى السفينة.

وكما توقعت، وبمساعدة من أقدار الرب الرحيم، استطعت أن أشق طريقي ناحية السفينة المقلوبة، بينما الوحوش تبتعد عنها متوجهة إلى عكس اتجاه سباحتي ناحية عواصف الرغوة، وبعد مجهود عصيب، وصلت إلى جانب السفينة في أمان، علَى الرغم من ضعفي الشديد بسبب الجهد العنيف الذي بذلته، ولكن في الوقت المناسب، ظهر بيترز فجأة فوق السفينة، منهك القوى لكنه يحمل في يده حبلا رماه لي، فأسرعت أتعلق به، وأساعده كي يرفعني معه إلى ظهر السفينة.

وبعد أن نجونا بالكاد من هذا الخطر، أصبح اهتمامنا الآن موجها نحو الخطر المروع الآخر - ألا وهو الجوع المطلق - فقد اكتسح مخزوننا بالكامل رغم كل اهتمامنا بضمان سلامة هذا المخزون، ولم نعد نرى احتمالية الحصول علَى المزيد، لم نكن بإمكاننا الحصول علَى أي شيء سوى اليأس، ورحنا نبكي بصوت عالٍ مثل الأطفال، ولم يحاول أيٌّ منا تقديم أيَّ دعم معنوي للآخر.

ثم تروينا قليلا في تقييم وضعنا الحالي، فإن انقلاب السفينة لم يكن بالامر السيئ بالكامل - حتى مع ما يترتب علَى ذلك من خسارة للخمر ولحم السلحفاة - فباستثناء اختفاء المراتب وباقي ملابسنا، إلا إننا وجدنا القاع كله علَى بعد قدم أو ثلاثة أقدام مغطى بكائنات البرنقيل البحرية الكبيرة، والتي أثبتت أنها طعام ممتاز ومغذ جدا.

وعلى هذا فقد تبين من جانبين مهمين أن الحادث الذي كنا نخشاه إلى حد كبير كان مفيدا وليس مجرد كارثة؛ بل فائدة فتحت لنا إمدادات لم يكن بوسعنا أن نصل إليها، والتي يمكن أن تكفينا باستخدام معتدل، خلال شهر، ويسهم كثيرا في راحتنا خلال هذا الموقف الغريب.

ولكن علَى الرغم من ذلك، فإن صعوبة الحصول علَى المياه الآن جلبت معها الضيق والكدر من جديد، ولكن لكي نكون مستعدين للاستفادة قدر الإمكان من أي أمطار قد تسقط، فقررنا استخدام قمصاننا، نخلعها ونستخدمها كوسيلة لامتصاص الماء، ثم عصرها والقرب من الفم؛ لنستفيد بأي قطرة ماء قد تروي عطشنا.

لم تظهر خلال النهار أي علامات تدل علَى أيّ سحابة، وكانت معاناة عطشنا لا تطاق تقريبا، وفي الليل، سقط بيترز قرابة الساعة في النوم، لكن معاناتي الشديدة لم تسمح لي بغلق عينيّ للحظة واحدة.

الخامس من أغسطس:

نسيم ناعم هب علينا فلطف الأجواء قليلا، ووجدنا خلال النهار كمية كبيرة من الأعشاب البحرية، وهو ما أعطانا عدة وجبات لذيذة.

كانت ناعمة جدا، فأكلناها بالكامل، ووجدنا أنها تثير عطشنا أقل بكثير من البرنقيل.

لم نجد أثرا لأسماك القرش بين الأعشاب البحرية هذا الصباح، مما أتاح لنا الاستحمام، وبقينا في الماء مدة أربع أو خمس ساعات، خففنا فيها من معاناتنا من العطش، وبحلول المساء كنا قد انتهينا وارتاحت أجسادنا قليلا، وتبادلنا النوم لبضع ساعات.

السادس من أغسطس:

هذا اليوم، باركنا الرب بأمطار سريعة ومستمرة، تمتد من الظُّهر إلى ما بعد الإظلام.

هل ندمنا الآن بمرارة علَى خسارة الدلو والجرة؟ بالتأكيد؛ لأنه

علَى الرغم من قلة وسائل اصطياد الماء، ربما كنا قد ملأنا واحدا، إن لم يكن كليهما.

وكما كان الحال، فقد كنا نحرص علَى إرضاء هواجس العطش بإغراق القمصان بماء الأمطار؛ لكي تصبح مشبعة، ثم نعصرها بشدة حتى نجعل السائل السحري ينساب إلى أفواهنا.

السابع من أغسطس:

في وقت النهار، رأينا كلنا في اللحظة نفسها أشرعة تظهر إلى الشرق، ومن الواضح أنهم قادمون نحونا! بدأنا فورا في صنع كل إشارة تقدر قوتنا المنهارة عليها، عن طريق التلويح بالقمصان في الهواء، القفز إلى أعلى بما تسمح به عضلاتنا الضعيفة، بل والهتاف بأعلى صوت تتحمله حناجرنا الجافة المتشققة، علَى الرغم من أن السفينة لم يكن من الممكن أن تكون علَى بعد أقل من خمسة عشر ميلا.

ومع ذلك، فإنها لا تزال قريبة منا، وشعرنا أنه إذا ما احتفظت بمسارها الحالي، يجب أن تقترب في نهاية المطاف من هيكلنا الطافي، شبه الغارق.

بعد ساعة تقريبا من اكتشافها لأول مرَّة، ظهر لنا هيكلها بوضوح، لقد كانت طويلة، منخفضة، ذات مظهر منمق، مع كرة سوداء في شراعها، وكان لديها علَى ما يبدو طاقم كامل.

كنا علَى وشك الشعور باليأس التام، فلا يبدو من ما يجري علَى سطحها أنها تراقبنا، وكنا نخشى أن نترك لنهلك تماما، وأن تنحرف عن مسارها كما فعلت من قبل.

ولكن في هذه الحال، تحت رحمة الرب الرحيم، كان مقدر لنا أن نكون أكثر سعادة؛ لأننا في الوقت الحاضر كنا ندرك تلك الضجة الهائجة والنشاط الذي دب علَى سطح السفينة الغريبة، والتي رفعت بعد ذلك العلم البريطاني فوق الصاري الرئيسي، والريح تحملها في طريقها، تحملها إلينا مباشرة.

بعد نصف ساعة أخرى وجدنا أنفسنا علَى سطح السفينة، ووجدنا أنفسنا نسمع حكاية عن السفينة بولي من بوسطن، والتي يجب أنْ أشير إلى أنَّ مصيرها، من نواح عديدة، مشابه بشكل ملحوظ لمصيرنا، والتي سوف أحكي عنها ـ قليلا ـ في السطور التالية.

هذه السفينة المحملة بشحنة من الخشب أبحرت من بوسطن، بالتحديد من سانتا كروا في الثاني عشر من ديسمبر عام ١٨١١، تحت قيادة الكابتن كاسنوا، وكان هناك ثمانية أشخاص علَى متن السفينة إلى جانب القبطان، وهم المساعد الأول، وأربعة بحارة، والطاهي، جنبا إلى جنب مع السيد هانت وخادمة سمراء مراهقة تعتني بها.

في الخامس عشر، تعرضت لعاصفة من الرياح العنيفة من الجنوب الشرقي، وأخيرا انقلبت، ولكن الصواري العالية المتينة عدلت من وضعها ومنعتها من الانقلاب الكلي لكنها تحطمت تقريبا، وظلت بلا أي مؤن أو مساعدات لمدة مائة وواحد وتسعين يوما (من الخامس عشر من ديسمبر وحتى العشرين من يونيو) حتى تم إنقاذ الكابتن كاسنوا، وصمويل بادجر ـ الناجيين الوحيدين ـ عن طريق سفينة الكابتن فيذرستون العائدة من رحلة، من ريو دي جانيرو في البرازيل.

عندما أُنقذا، كان ذلك في دائرة العرض ٢٨ درجة شمالا، وخط

الطول ١٣ درجة غربا، بعد أن انجرفا مع الحطام لأكثر من ألفي ميل!

لم يمر الكثير من الوقت حتى بدأت المؤن تنفد من السفينة، وبدا أن الجميع سوف يهلكون.

وفي التاسع من يوليو تقابلت السفينة مع البارجة درومير و، التي يقودها الكابتن بيركنز، والذي ترك الناجين في كينيبيك، شمال الأطلنطي.

وفي النهاية، عرفنا من الروايات المختلفة أنه من غير الطبيعي أن تطفو سفينة لهذه المسافة الشاسعة علَى طول المحيط الأطلنطي ولا يتم اكتشافها! كانت قد مرَّت بعشرِ سفن كبيرة لم تلحظ أي منها وجود هذه السفينة، حتى عندما اقتربت واحدة منهم ورأهم بحارتها رَأيَ العينِ، لكنهم لم يفكروا في الاقتراب منها، البرد والجوع والعطش كاد يقضي علَى ركابها، وحتى عندما التقتطهم درومير و، لم يكونوا في حال تسمح لهم بالكاد أن يبقوا علَى قيد الحياة، ثم تركوا بلا أي رحمة في خليج ماين، حتى التقطتهم منقذتنا.

منقذتنا التي يقودها الكابتن جاي، والذي يسير رحلات تجارية من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادي.

منقذتنا هي السفينة جاين جاي، من ليفربول.

الفصل الرابع عشر

جاين جاي كانت مركب شراعية جميلة المظهر، حمولتها مائة وثمانون طنا، حادة الجوانب علَى نحو غير مألوف، وخلال هبات الرياح، في الطقس المعتدل، كانت من أسرع ما رأيت من سفن من أي وقت مضى.

طاقم من الثلاثينيات، كلهم بحارة قديرون مدربون، بالإضافة إلى القبطان والمساعد الأول، لكنها كانت غير مسلحة تماما أو مجهزة بأي شكل من أشكال المقاومة، ومع الصعوبات والمخاطر التي تنطوي عليها التجارة البحرية في هذا الوقت، كان من الممكن أن تكون مرغوبة وفريسة للقراصنة المنتشرين في بحر الكاريبي.

الكابتن جاي كان رجلا محترما ذا أسلوب متحضر، وخبرة كبيرة في حركة المرور الجنوبية في الأطلنطي والهادي علَى حد سواء، والتي كرس لها جزءا كبيرا من حياته، غير أنه كان يعاني ضعفا بدنيًا واضحا، وبالتالي، فتور في روح العمل الشاق التي هي هنا ضرورية تماما.

أبحرت جاين جاي من ليفربول في العاشر من يوليو، وعبرت مدار

السرطان في الخامس والعشرين، ووصلت إلى سواحل الرأس الأخضر في التاسع والعشرين، حيث تزودت بالكثير من ضروريات الرحلة، وفي الثالث من أغسطس، غادرت الرأس الأخضر وتوجهت إلى الجنوب الغربي، وأبحرت بمحاذاة ساحل البرازيل، حتى تتمكن من عبور خط الاستواء، وهذا هو المسار الذي عادة ما تأخذه السفن المتجهة من أوروبا إلى رأس الرجاء الصالح متجهة إلى جزر الهند الشرقية، وكانت نية القبطان جاي أن يقوم بتوقف له في جزر كيرجلين بجنوب المحيط الهادي بعد أن يعبر رأس الرجاء الصالح، لاصطياد العديد من كلاب البحر وحيوانات الفقمة للإتجار بفروها ولحومها وأنيابها، وفي اليوم الذي تم التقاطنا فيه كانت السفينة قبالة ميناء كيب سانت في أفريقيا الجنوبية، وهو ما يعني أننا جرفنا علَى متن حطام سفينتنا حوالي خمسة وعشرين درجة إلى الجنوب!!

على متن جاين جاي، تمت معاملتنا بكل اللطف الذي تقتضيه حالتنا البائسة، وفي حوالي أسبوعين أثناء الوقت الذي استمرت فيه في الإبحار إلى الجنوب الشرقي مع النسائم اللطيفة والجميلة، تعافيت أنا وبيترز تماما من آثار الحرمان والمعاناة المروعة، وبدأنا نتذكر ما قد مررنا به من أحداث مخيفة من ما ظنناه حلما استيقظنا منه أخيرا، كابوس مروع من الأحداث، لم نكن نتذكر شيئا عن أي شيء سوى أننا كنا علَى ظهر سفينة مقلوبة!

ومنذ ذلك الحين، عرفنا أن هذه الأنواع من النسيان الجزئي هي عادة ما تنتج عن الانتقال المفاجئ سواء من الفرح إلى الحزن أو من الحزن إلى الفرح. وأن درجة النسيان وشدته تتناسب مع صعوبة الانتقال نفسه.

أجزم بأنني أتذكر الحوادث، ولكن ليس المشاعر التي أثارتها الحوادث

وقت حدوثها، أنا أعرف فقط، أنه حدث في وقت ما، ولكن يبدو أن الرحمة الإلهية لم تجعلني أتذكر كل تفاصيل ما حدث، فقط بعضا منها.

واصلنا رحلتنا لبضعة أسابيع دون وقوع أي حوادث ـ غير التقابل مع سفن صيد الحيتان ـ ومع ذلك، وفي السادس عشر من سبتمبر، عندما كانت السفينة علَى بعد أميال كثيرة من رأس الرجاء الصالح، واجهت أول عاصفة عنيفة منذ مغادرتها ليفربول وكان الإعصار العنيف سيهب في أي لحظة من الشمال أو الشمال الشرقي، ويظهر كأنه بقعة بعيدة من بعيد، وبالتالي يمكن للسفن أن تأخذ الاحتياطات اللازمة.

كانت حوالي السادسة صباحا عندما أتت الضربة بالعاصفة العنيفة وكالعادة من الشمال، وفي الثامنة كانت قد زادت كثيرا، ورأيت للمرَّة الأولى جبلا من الأمواج وواحدا من أعظم البحار التي رأيتها في حياتي.

كل شيء كان جاهزا قدر الإمكان، والبحارة علَى السفينة يعملون باجتهاد، لكن حدة زوايا السفينة كانت عائقا أمام العمل الجيد، ولولا ابتعاد العاصفة وقت غروب الشمس، لما كنا نجونا.

وفي الصباح، كنا نعرف أن معجزة ما حدثت، وأن العاصفة لم تتحول لإعصار مميت، وأن جاين جاي تبدو أكثر قوة مما اعتقدت.

وفي الثالث عشر من أكتوبر، رأينا جزيرة الأمير إدوارد، وبعد ذلك بيومين وجدنا أنفسنا بالقرب من جزر الكروزيت، وفي مساء الثامن عشر كنا قد وصلنا إلى جزر كيرجلين، ورسونا في ميناء عيد الميلاد.

هذه الجزيرة ـ أو بالأحرى أرخبيل الجزر ـ تقع إلى الجنوب الشرقي من رأس الرجاء الصالح، وأول من اكتشفها كان البارون دي كيرجلين في عام ١٧٧٢، الفرنسي الذي اعتقد أن هذه الجزر هي ما يشكل جزءا

من قارة جنوبية جديدة لم يتم الكشف عنها بعد.

وبعد فترة، تولت الحكومة الفرنسية تمويل الحملات، وأرسلت البارون مرَّة أخرى في العام التالي لغرض المزيد من الكشف، عندما تم اكتشاف الخطأ بأنها مجرد أرخبيل من الجزر.

في عام ١٧٧٧، وصل الكابتن كوك إلى الأرخبيل نفسه، وأعطاها اسم جزيرة الخراب، وهو لقب تستحقه بالتأكيد، لأنها شبه مهجورة ولا يمكن الاستفادة منها.

عند الاقتراب من الجزيرة، ترى مجموعة من التلال التي تكسوها الخضرة علَى الشاطي الممتد، لكنه مظهر خادع للأسف، وهذا المظهر المخادع سببه نبات صغير شبيه بنبات ساكسفيراج، والذي ينمو علَى شكل طحالب خضراء فوق الصخور الرخوة، وبجانب هذه النبتة هناك بالكاد بعض النباتات المفيدة علَى الجزيرة، باستثناء بعض الشجيرات الشبيهة بالأعواد المحترقة من النار، وهي ذات فواكه مُرَّة الطعم جامدة البذور.

كان وجه الجزيرة مشرقا باسما، لكنه وجه مخادع لا يمكن وصفه بالمشرق.

جبال الجزيرة مغطاة بالثلج علَى الدوام وهناك العديد من المرافئ لراحة السفن، منها ميناء عيد الميلاد وهو الأكثر ملاءمة، وأول ما يقابل علَى الجانب الشمالي الشرقي من الجزيرة بعد مرور السفن برأس فرانسوا، الذي يشكل الشاطئ الشمالي، ويعمل بشكله الغريب، علَى تمييز الميناء، بينما قاع البحر بالقرب من المرسى يشبه الطين الصلب، ويمكنك بقليل من المراكب أن تقترب لجلب المؤن والتجهيزات اللازمة.

بعض الحيوانات المكسوة بالفرو والشعر لا تزال موجودة في جزيرة الرجلين، وتكثر كلاب البحر علَى نتوئاتها الصخرية.

حينما أثار دهشتنا كثرة البطاريق ـ التي لم يكن بعضنا قد رأها من قبل ـ ومن هذه الكائنات هناك أربعة أنواع مختلفة: البطريق الملكي كبير الحجم جميل الريش مزين بريش ذهبي عند الصدر، بينما البقية كانت من أنواع الروكري، المكروني، والأحمق، لكنها أصغر حجما وأقل تميزا عن الملكي.

إلى جانب البطريق، كان هناك العديد من الطيور الأخرى، التي يمكن العثور عليها هنا، من بينها ذكر الدجاج الأزرق والبط البري والدجاج الساحلي والحمام والنوارس والباتروس.

في الصباح بعد وصولنا، اصطحب المساعد الأول السيد باترسون، أخذت قوارب من السفينة وأبحرنا بها تجاه الساحل، ومعنا الكابتن جاي وقريب له، وأخذ الكابتن جاي معه زجاجة، تحتوي علَى رسالة مختومة، وشق طريقه من النقطة التي رسونا عليها علَى الشاطئ نحو واحدة من أعلى القمم في المكان. من المحتمل أن هدفه كان ترك الرسالة علَى ذلك الارتفاع كنوع من أنواع إثبات وصوله إليها الذي ستكتشفه بعض السفن لاحقا، وهو تصرف غريب لم أجد له أي تفسير وقتها.

ذهبنا أنا وبيترز في جولة حول الساحل، بحثا عن كلاب البحر والفقمة مع بقية العمال، وهذا هو غرض من أغراض هذه الرحلة إلى هذه الجزر الكئيبة، وبالرغم من أن الساحل مشهور بوفرة هذه الحيوانات وخصوصا علَى الساحل الغربي من البر الرئيسي، لكن استطعنا اصطياد عشرين فقط، وهذا بصعوبة كبيرة علَى الجزر الصغيرة.

عدنا إلى السفينة في اليوم الحادي والعشرين، حيث وجدنا الكابتن جاي وقريبه الشاب في حالٍ سيئة للغاية من البقاء ليلتين علَى سطح هذه الجزيرة، واصفين إياها بأكثر الأماكن كآبة علَى الإطلاق، وقد ظلا لهاتين الليلتين في الجزيرة، بسبب سوء فهم من المساعد الثاني الذي لم يرسل مركبا لالتقاطهما كما اتفق.

يالرفاهية البشر!

والآن وقد انتهت رحلة السفينة، فقد استدارت عائدة من جديد محملة بالغنائم من الفرو واللحم.

الفصل الخامس عشر

في الثاني والعشرين أبحرنا من ميناء عيد الميلاد نتتبع طريقنا إلى الغرب، مررنا بجزيرة ماريون، واحدة من أرخبيل الكروزيت، ثم بعد ذلك بجزيرة الأمير إدوارد، ثم اتخذنا طريقنا ناحية أرخبيل تريستان دي أكونا في جنوب الأطلنطي.

هذا الأرخبيل والذي يتألف من ثلاث جزر دائرية، تم اكتشافها لأول مرَّة من قبل البرتغاليين، وزارها بعد ذلك الهولنديون في عام ١٦٤٣، ومن قبل الفرنسيين في عام ١٧٦٧. الجزر الثلاثة معا تشكل مثلثا، وهي بعيدة عن بعضها بعضا حوالي عشرة أميال، وهناك ممرات بحرية مفتوحة بينها.

هذا هو أكبر أرخبيل جزر في المحيط الجنوبي، حيث يبلغ محيطه خمسة عشر ميلا، ومرتفعة جدا بحيث يمكن رؤيتها في طقس صافٍ علَى مسافة ثمانين ميلا، وهناك جزء من الجزر نحو الشمال يرتفع أكثر من ألف قدم عموديا من البحر، وهناك تلال في هذا الارتفاع تمتد

إلى ما يقرب من مركز الجزيرة، ومن هذه التلال تنشأ قمم مثل قمم تينيريف، النصف السفلي منها تملؤه الأشجار من حجم كبير نوعا ما، ولكن المنطقة العليا هي صخرة جرداء، وعادة ما تكون مخبأة بين الغيوم أو الثلوج خلال الجزء الأكبر من السنة.

ليس هناك أخطار أخرى حول الجزيرة، الشواطئ عميقة الماء ومدببة، وعلى الساحل الشمالي الغربي خليج مع شاطئ من الرمال السوداء حيث يكون الرسو بالقوارب سهلا للغاية، بشرط أن تكون الرياح جنوبية حتى لا تصنع تيارا معاكسا، ويمكن الحصول بسهولة علَى الكثير من المياه العذبة الممتازة هنا المنحدرة من النبع الجبلي، كما أن سمك القد وغيره من أنواع السمك تصاد فقط بالخطاف.

الجزيرة التالية من حيث الحجم في جزر الأرخبيل بعد تريستان، علَى الطرف الغربي من الأرخبيل، هي التي تدعى بـ «الجزيرة التي لا يمكن الوصول إليها» فعلى جميع الأطراف شواطئها مدببة وغير صالحة لرسو القوارب أو السباحة؛ بسبب الصخور العنيفة، قمتها مسطحة تماما، ولا شيء ينمو عليها إلا بضع شجيرات يابسة، بينما جزيرة العندليب، الأصغر منها ناحية الجنوب، جزيرة وعرة الأرض غير منتظمة وعقيمة من أي حياة، وهناك وادٍ عميق يفصلها جزئيا إلى منطقتين.

تكثر كلاب البحر والفقمة غزيرة الفراء والجلد علَى شواطئ هذه الجزر، جنبا إلى جنب مع تشكيلة كبيرة من الطيور المحيطية، والحيتان أيضا كثيرة في محيطها، ونظرا للسهولة التي كانت بها هذه الحيوانات المختلفة قد أخذت سابقا؛ فقد زار الأرخبيل الكثير من السفن منذ اكتشافها.

الهولنديون والفرنسيون يترددون عليها في وقت مبكر جدًّا من عام ١٧٩٠، بينما ذاع صيت الكابتن باتن من اتحاد صناع السفن في فيلادلفيا، والذي زار أرخبيل تريستان، حيث بقي تسعة أشهر من أغسطس ١٧٩٠ إلى أبريل ١٧٩١ لغرض جمع جلود وفراء كلاب البحر والفقمة، وفي هذا الوقت جمع ما لا يقل عن خمسة آلاف وستمائة قطعة من جلود الحيوانات، وقال إنه لن يكون عنده صعوبة في تحميل سفينة كبيرة من سفن النفط في ثلاثة أسابيع!!

وفي اعتقادي لم يمر وقتٌ طويلٌ علَى غزوة الكابتن باتن، حتى وصل قائد البارجة الأمريكية بيتسي، الكابتن كولكوهون إلى الأرخبيل، وقام بزراعة البصل والبطاطا والكرنب والكثير من أنواع الخضار، وهو ما نما بكثرة في هذه الأجواء القريبة من خط الاستواء وأصبح متوفرا بفعل الطبيعة لتموين ركاب السفن العابرة بالأرخبيل.

في العام ١٨١١ زار الأرخبيل الكابتن هايود قبطان السفينة نيرسيس، وقد وجد هناك ثلاثة مواطنين أمريكيين يشتغلون بصيد كلاب البحر والتجارة بجلودها وبفرائها.

أحد هؤلاء الرجال، ويدعى لامبرت، كان يسمي نفسه سيد الجزيرة، والذي قام باستصلاح ما يتعدى الستين هكتارا، وزرعها بقصب السكر ونباتات القهوة والكوكا بمساعدة كبيرة من سفير الولايات المتحدة في ريو دي جانيرو، ولكن في العام ١٨١٧ استعادت الحكومة البريطانية السيطرة علَى الجزيرة من جديد بعد أن استولت حملتها ـ المرسلة من رأس الرجاء الصالح ـ علَى الأرخبيل.

وبعد إخلاء الجزيرة وبسط السيطرة البريطانية، انتقلت ثلاث عائلات

بريطانية للحياة هناك بشكل مستقل.

وفي الخامس والعشرين من مارس عام ١٨٢٤، وصلت إلى الأرخبيل السفينة البريطانية بيروك وقائدها الكابتن جيفري، قادمة من لندن، ووجد طاقم السفينة رجلا بريطانيا يسمي نفسه جلاس، والذي راح يدعي أنه الحاكم الأعلى للجزيرة، ومعه واحد وعشرون رجلا وثلاث سيدات يتبعون أوامره أيا كانت.

وتنامت الكثافة السكانية في الجزيرة شيئا بشيء، حتى وصلت إلى خمسة وستين فردا في طول الجزيرة، وحامية صغيرة من سبعة أفراد تعيش في أصغر جزر الأرخبيل.

لذا، لم تواجهنا أي صعوبات في العثور علَى الإمدادت المطلوبة للسفينة، من منتجات الدواجن والخضروات والفاكهة والأسماك ومن الأنواع والأصناف كافة، بل إن الكابتن جاي اشترى من السيد جلاس خمسمائة قطعة جلد من جلود كلاب البحر، ومائتي قطعة من العاج المستخرج من أنياب الفقمة.

بقينا مدة أسبوع في الجزيرة الكبرى، خلال سوء حالِ الطقس التي قد تؤثر علَى إبحارنا، وفي الخامس من نوفمبر أبحرنا إلى الجنوب الغربي؛ للبحث عن جزر تدعى أرورا، وهو موضوع طالما أثار اختلافا كبيرا في وجهات النظر بين الجميع.

يقال إن جزر أرورا تم اكتشافها في أوائل عام ١٧٦٢ بواسطة قائد البارجة أرورا، ولكن في العام ١٧٩٠ أبحر الكابتن مانويل دي أورافيدو، قائد السفينة الأميرة من شركة الفلبين الملكية البرتغالية، قد أبحر بالقرب منهم وأنه اكتشف أجزاء أكبر من الجزر.

في العام ١٧٩٤ قامت البحرية الإسبانية الملكية برحلات مكثفة لاكتشاف وضع الجزر وبسط السيطرة عليها، وفي وثيقة نشرت بواسطة الجمعية الهيدروجرافية الملكية في مدريد، وصفت كالتالي:

«وقد درست السفينة الملكية أتربيدا، في الجوار المباشر للجزر، من الحادي والعشرين إلى السابع والعشرين من يناير، جميع الملاحظات اللازمة، وقاست بفارق خطوط الطول بين هذه الجزر وميناء سوليداد في المانيلاس، ووجدت أن الجزر هي ثلاث جزر، وهي تقريبا في خط الطول نفسه؛ الجزيرة الأولى منخفضة إلى حد ما، ويمكن رؤية الاثنتين الأخريين علَى بعد تسعة فراسخ بحرية».

في السابع والعشرين من يناير عام ١٨٢٠، قام الكابتن جيمس ويدل، من البحرية البريطانية بالإبحار من ستاتن بحثا عن هذه الجزر، وأنه قام بالإبحار إلى خطوط الطول والعرض التي رسمتها سفن البحرية الملكية الإسبانية، بل قام بالإبحار في كل اتجاه ممكن في دائرة قطرها مائة ميل، ولم يعثر علَى أي أثر لأيّ جزر أو أي أراض في هذه المنطقة!!

تسببت هذه التصريحات المتناقضة بين البحريتين في تشجيع فضول المستكشفين البحريين، ومن الغريب أن نقول أن الكثيرين أنكروا وجود أيّ جزر في هذه المنطقة، لكن الكثيرين أيضا أعطوا رأيا إيجابيا مؤيدا لرأي البحرية الإسبانية، بل وصفوا الجزر وشكلها وتخطيط سواحلها كذلك!

لذا، فقد عزم الكابتن جاي علَى خوض هذه الرحلة، والإجابة بنفسه عن هذا التساؤل الذي طالما حير البحريين في جنوب الأطلنطي.

هل توجد جزر تدعى أرورا في هذا المكان؟؟

استمر إبحارنا في الاتجاه نفسه، الجنوب الغربي، مع طقس متغير الحالات بين ليلة وضحاها، حتى اليوم العشرين من الشهر، عندما وصلنا إلى المنطقة محل الخلاف حسب خطوط الطول ودوائر والعرض.

لم نجد أيّ أثر لأيّ أرض، فاستمرينا في الإبحار ناحية الغرب حتى وصلنا إلى نهاية خط الطول المذكور في الوثائق، ثم أبحرنا ناحية الشمال حتى وصلنا إلى نهاية دائرة العرض، ثم أبحرنا ناحية الشرق من جديد، وبقينا نبحر في كل الاتجاهات حتى عدنا إلى نقطة البداية نفسها عند تلاقي خطوط الطول ودوائر العرض المذكورة، ورحنا ندور في دوائر منتظمة تشبه الحلزون داخل المنطقة، مدة ثلاثة أسابيع كاملة بلا ملل أو كلل، في طقس جميل ومستقر نوعا ما، واستقرينا في النهاية بعد هذا البحث المطول، على أنه من المستحيل أن تكون هناك جزر في هذا المكان، وأنه ربما - كما يقول علماء الجغرافيا - كانت هناك جزر في هذه المنطقة لكنها اختفت بفضل عوامل عديدة.

يجب أن أذكر أنني عندما عدت إلى ميسوري، قابلت الكثيرين مما يؤكدون بعض الروايات، وهم بشكل ما يشيرون إلى روايات السفن: سان ميغيل، في عام ١٧٦٩، والسفينة أورورا في عام ١٧٧٤، البارجة بيرل في عام ١٧٧٩، والسفينة دولوريس في سنة ١٧٩٠، وجميعهم يتفقون علَى أن الجزر تقع عند الإحداثيات نفسها، المذكورة في الوثائق، بينما في العام ١٨٢٢، توصل الكابتن جونسون والمتخصص الأميركي هنري، والكابتن موريل علَى متن السفينة واسب الأميركية إلى النتيجة التي توصلنا إليها.

لا أحد يعرف إجابة هذا السؤال بكل تأكيد!!

الفصل السادس عشر

كانت رغبة الكابتن جاي ـ بعد أن فشل في العثور علَى جزر أرورا ـ هو الإبحار عبر مضيق ماجلان، إلى الساحل الغربي من بتاجونيا، ولكن الأخبار والمعلومات عن تلك الجزر الغامضة، غيرت من تفكيره في محاولة الوصول إليها.

ولما فشل في الوصول إلى أي من هذه الجزر، فقد عزم علَى اتخاذ الفرصة المناسبة، والإبحار باتجاه قطب الأرض الجنوبي.

وبناء علَى ذلك، فقد بدأنا نبحر في هذا الاتجاه صباح الثاني عشر من ديسمبر، وفي الحادي والعشرين بدأنا نتجه جنوبا ناحية القطب الجنوبي، في طقس ممتع وهادئ نوعا ما .

قبل أن أكمل حكايتي، أعتقد أنه من الواجب علي أن أسرد بعض المعلومات عن المحاولات الاستكشافية التي خرجت ناحية القطب الجنوبي سابقا، وذلك فقط للقراء الذين يهتمون بمعرفة هذه المعلومات.

كان الكابتن كوك أول من قام بأي عمل مميز يخص هذا الأمر، ففي

عام ١٧٧٢ أبحر إلى الجنوب برفقة الملازم فورنو، وفي ديسمبر التقى بحقول جليدية ضيقة، سمكها حوالي ثماني أو عشر بوصات، تتحرك في اتجاه شمال غرب وجنوب شرق.

كان هذا الجليد علَى شكل كعك كبير، وعادة ما كان متماسكا جدا ومتقاربا حتى إن السفينة واجهت صعوبة كبيرة في المرور. في هذه الفترة يفترض أن الكابتن كوك رأى عددا كبير من الطيور، ومن خلال مؤشرات أخرى، أنه كان قريبا جدا من أرض مأهولة، فبقي إلى الجنوب، حيث الطقس بارد جدا، حتى بلغ منطقة كان لها طقس معتدل مع نسائم بحرية هادئة، لمدة خمسة أيام، وكانت الحرارة ٣٦ درجة علَى مقياس فهرنهايت.

وفي يناير ١٧٧٣، عبرت السفن الدائرة القطبية الجنوبية، ولكنها لم تنجح في اختراق أكثر من ذلك؛ فعند بلوغهم منتصف المسافة بين حدود الدائرة ونقطة القطب، وجدوا أن التقدم أبعد من ذلك يعرقله جسمٌ جليديٌّ هائلٌ، يمتد عبر الأفق الجنوبي حتى أقصى ما تبلغه العين.

كان هذا الجليد يمتد لأميال بعيدة، علَى شكل كتلة صغيرة، ترتفع فوق الماء بمقدار ثمانية عشر أو عشرين قدما. وفي وقت متأخر من الموسم، ومع استحالة شق طريقه، ارتد الكابتن كوك الآن علَى مضض نحو الشمال.

وفي نوفمبر من العام نفسه، جدد بحثه في منطقة القطب الجنوبي، وفي ديسمبر عندما كانت السفن قريبة من حدود دائرة القطب هطلت أمطار ثقيلة، وكان البرد مفرطا مع ضباب كثيف ثقيل.

وهنا أيضا ـ مثل المحاولة الأولى ـ كانت الطيور وفيرة: القطرس،

والبطاريق. وعندما توغل قليلا واجهته بعض الجزر الجليدية الكبيرة، وبعد ذلك بوقت قصير شوهدت السحب إلى الجنوب وهي شبيهة ببياض الثلج، وكما في السابق، فوجئ البحارة بمساحات هائلة مجمدة، ملأت كامل منطقة الأفق الجنوبي.

الحافة الشمالية من هذا الامتداد العملاق كانت مشتعلة وكأنها شمس متوهجة، ومتشابكة بقوة بحيث تكون محصنة تماما، وممتدة حوالي ميل إلى الجنوب، ووراءها كان السطح المتجمد سلسا نسبيا لمسافة ما، إلى أن انتهى في الخلفية بسلاسل هائلة من الجبال الجليدية، التي تتصاعد بعضها فوق بعض.

وخلص الكابتن كوك إلى أن هذا الحقل الشاسع الذي وصل إليه هو قارة جديدة انفصلت عن إحدى القارات.

إلا إن السيد ج. ن. أن رينولدز، الذي نجحت طاقاته الكبيرة ومثابرته في الوصول إلى تمويل بعثة وطنية إلى هذه الأراضي المتجمدة، لأغراض منها استكشاف هذه المناطق.

وفي عام ١٨٠٣، أرسل القبطان الروسي الكابتن كروتزنر وليسكي ألكسندر بغرض استكشاف هذه المنطقة بشكل موسع، وقد واجهوا تيارات قوية تتجه نحو الشرق، وكانت الحيتان وفيرة، لكنهم لم يروا جليدا.

وفيما يتعلق بهذه الرحلة، يلاحظ السيد رينولدز أنه إذا كان كروتزنسترن قد وصل إلى المكان الذي وصل إليه في وقت سابق من الموسم الشتوي، فلا بد أنه واجه الثلج، وقد حملت الرياح، كما هي سائدة، من الجنوب والغرب، الكتل المتجمدة، بمساعدة تيارات البحر، إلى تلك المنطقة

الجليدية التي تقع في شرق جزر ساندويتش وأوركنس الجنوبية، والغرب من جزر شتلاند الجنوبية.

في عام ١٨٢٢، تسلل الكابتن جيمس وودل، من البحرية البريطانية، بصحبة سفينتين صغيرتين جدا، إلى الجنوب أكثر من أي ملاح سابق، وهذا أيضا، دون أن يواجه صعوبات غير عادية. ويقول إنه علَى الرغم من أنه كثيرا ما كان يصطدم بالجليد، إلا إنه لم يتم اكتشاف أي جبال جليدية في المكان نفسه، لم تكن هناك حقول ولا تظهر سوى ثلاث جزر مسطحة من الجليد فقط.

ومن الجدير بالملاحظة ـ إلى حد ما ـ أنه علَى الرغم من رؤية قطعان كبيرة من الطيور، وإشارات أخرى معتادة عن الأرض، ورغم ملاحظة السواحل غير المعروفة جنوب جزر شيتلاند التي تميل إلى الاستقرار، إلا إن وودل لم يؤيد نظرية كوك عن وجود الأراضي في المناطق القطبية الجنوبية.

في الحادي عشر من يناير ١٨٢٣، أبحر الكابتن بنجامين موريل، قائد السفينة الأمريكية واسب، من أرض كيرجيلين بهدف الوصول إلى أقصى الجنوب، وفي أول فبراير وجد نفسه في المنطقة نفسها التي وصل إليها وودل، وكتب قائلا: «سرعان ما عادت الرياح إلى نسيم إحدى عشرة عقدة، فتوغلنا قليلا إلى الجنوب، حتى عبرنا الدائرة القطبية الجنوبية، ولم يكن هناك جليد، وعدد قليل جدا من الجزر الجليدية في الأفق. وفي تاريخ الرابع عشر من مارس، وجدت أيضا هذا المدخل بين الجزر، وكان البحر الآن خاليا تماما من أي حقول جليدية أو أي أراضٍ متجمدة، ولم يكن هناك أكثر من اثنتي عشرة جزيرة جليدية صغيرة علَى مرأى البصر، وفي الوقت نفسه درجة حرارة الهواء والماء

على الأقل ثلاث عشرة درجة أعلى من المعدل، مما كان لدينا من أي وقت مضى، وتوغلت عدة مرَّات داخل الدائرة القطبية الجنوبية علَى مختلف خطوط الطول، فوجدت حرارة كلا من الهواء والماء، تصبح أكثر وأكثر اعتدالا، ونحن في العادة كنا نجد صعوبة كبيرة في العثور علَى ممرٍّ آمن للسفن بين عدد لا يحصى من الجزر الجليدية التي كانت مساحة الواحدة منها من واحد إلى اثنين كيلومتر في محيط أكثر من خمسمائة قدم فوق سطح الماء».

وبما أن الوقود والماء كادا ينفدان منه، ودون الأدوات المناسبة، فقد اضطر الكابتن موريل ـ الآن ـ إلى التراجع، من دون أي محاولة للتقدم، بالرغم من أن البحر كان مفتوحا تماما أمامه، وقد أعرب عن إحباطه من ذلك، وأنه لو لم تجبره هذه الاعتبارات علَى التراجع، لكان قد توغل أكثر، إن لم يكن إلى القطب نفسه.

لقد قدمت أفكاره حول هذه الأمور بشكل مطول، حتى إن القارئ قد تتاح له فرصة معرفة مدى تأثيرها من خلال تجربتي اللاحقة.

في عام ١٨٣١، أبحر الكابتن بريسكو، المكلف من شركة ميسيريس اندنبري في لندن، في الباخرة لايفلي نحو البحار الجنوبية، برفقة القاطع البحري تولا، وفي الثامن والعشرين من فبراير، كان يصف هذه الأرض وصفا بالغ الدقة، واكتشف بوضوح من خلال الثلج القممَ السوداء لسلسلة من الجبال تنتصب في المنطقة الشرقية. وقد بقي في هذه المنطقة خلال الشهر التالي، ولكنه لم يستطع الاقتراب من الساحل أكثر من عشرة فراسخ بحرية؛ بسبب حال الطقس القاسية. ولما تعذر عليه تحقيق مزيد من الاكتشافات خلال هذا الموسم، عاد شمالا ليقضي الشتاء في جزيرة فان ديمين.

وفي بداية عام ١٨٣٢، تقدم مرَّة أخرى إلى الجنوب الغربي، وفي الرابع من فبراير شاهد كتلة من الأرض الواضحة، وسرعان ما تبين أن هذه جزيرة تقع بالقرب من أراضي الموقع الذي اكتشف لأول مرَّة، وفي الحادي والعشرين من الشهر نجح في الهبوط علَى هذه الأرض، واستولى عليها باسم وليام الرابع، وأطلق عليها اسم جزيرة أديلايد؛ تكريما للملكة الإنجليزية.

وهذه التفاصيل التي تعرفها الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، خلص إليها ذلك الجهاز أن هناك قطعة أرض مستمرة، تمتد داخل الدائرة القطبية الجنوبية، وفيما يتعلق بهذا الاستنتاج، يلاحظ السيد رينولدز: «إننا لا نوافق علَى ذلك بشكل كبير، ولا تبرر اكتشافات بريسكو أي شيء من ذلك».

وستجدون أعزائي القراء، أن خبرتي الشخصية تشهد مباشرة علَى زيف النتيجة التي توصلت إليها الجمعية الملكية.

كانت هذه هي المحاولات الرئيسية التي جرت لاختراق المنطقة القطبية الجنوبية، وبالطبع كان هناك مجال واسع أمامنا لاكتشاف جديد، حيث لم تقطع هذه المحاولات نصف المسافة نحو القطب الجنوبي. ومع مشاعر شديدة الحماسة، سمعت الكابتن جاي يعلن عن قراره بالتقدم بجرأة نحو الجنوب.

نحو القطب الجنوبي.

الفصل السابع عشر

كنا مستمرين في الإبحار بالاتجاه الجنوبي الغربي مدة أربعة أيام كاملة، وفي السادس والعشرين عند وقت الظهيرة وصلنا إلى حدود الدائرة القطبية، ورأينا العديد من الكتل الثلجية والجزر السابحة فوق مياه المحيط، ولكن ليست بأحجام كبيرة كما تصورنا.

رياح لطيفة كانت تهب من الجنوب الشرقي، ومعها يأتي بعض الثلج القليل، والثرمومتر ظلَّ ثابتا علَى درجة ٣٥ فهرنهايت حتى اليوم السابع والعشرين من الشهر.

سأعود لكتابة حكايتي بطريقة اليوميات، حتى ألخص ما حدث في الأيام التالية في بدايات العام ١٨٢٨

الأول من يناير:

وجدنا أنفسنا محاطين بشكل كامل بالكتل الثلجية، وكان من الصعب علينا تحقيق أي تقدم بسبب هذا الوضع، وفي وقت الضحى، هبت رياح قوية من الشمال الشرقي يدعمها تيار مائي قوي، حتى إن الكتل كانت

تصطدم بالسفينة ببعض العنف، وهو ما جعلنا قلقين ومتوترين من العواقب التي قد تنجم عن ذلك.

وعند المساء استمرت الرياح العنيفة في الهبوب علينا، ولكن انقسام كتلة من الثلج إلى قسمين سمح لنا ببعض المجهود المضاعف في إيجاد ممر للإبحار من بينها، حتى وصلنا أخيرا إلى منطقة لا تحيطها الكتل، فاستقرينا قليلا حتى تتوقف الرياح العنيفة أو تخف حدتها.

الثاني من يناير:

الطقس تحسن بشكل كبير، وعند الظهيرة وجدنا أنفسنا قد تجاوزنا حدود الدائرة القطبية وأصبحنا في مدار المنطقة التي وصل إليها الكابتن كوك سابقا، حتى إننا رأينا الثلج بكميات أقل ناحية الجنوب، وخلفنا كانت هناك كتل كبيرة تصل إلى حجم جزيرة صغيرة، وتمكنا من شق طريقنا بواسطة عمود حديدي تم ربطه في مُقَدَّم السفينة؛ ليتغلب علَى الكتل المرتفعة التي قد تقابلنا ونحن نبحر في اتجاه الجنوب الغربي من جديد. درجة حرارة الهواء كانت تقارب ٣٣ درجة فهرنهايت.

الخامس من يناير:

لا زلنا عالقين في مكاننا دون تقدم كبير، ولكن في الصباح الباكر، وجدنا طريقا يمكن أن يصلنا إلى الماء قليل الكتل الثلجية، وبعد الإبحار بسرعة بسيطة، تمكنا من إيجاد ممر بعرض ميل كامل جهة الجنوب الغربي، وبعد أن عبرناه عند الغروب، وجدنا أنفسنا في محيط مغطى بطبقة سميكة من الثلج، ليست متماسكة بشكل كبير لذا يمكننا أن نعبر من خلالها بسهولة إذا بذلنا بعض الجهد.

لم يتغير الطقس كثيرا، الحرارة ثابتة نوعا ما، الثلج يتساقط علينا من السماء علَى فترات، وبعض النوارس بدأت تطير حول السفينة في نهاية اليوم.

السابع من يناير:

لا زالت حالُ البحرِ كما هي، مناسب للملاحة بلا كتل صلبة، وفي اتجاه الغرب رأينا بعض الجبال الثلجية العائمة، كبيرة الحجم بشكل غريب، وعند عبورنا بجوار أحدها، اكتشفنا أن قمة هذا الجبل الجليدي لا تقل ارتفاعا عن أربعمائة باع من سطح المحيط، أي ما يعادله ألفان وأربعمائة قدما، وقاعدة لا تقل عن فرسخ كامل.

بقينا حوالي يومين إلى جوار هذا الجبل، ثم تكثف الضباب ولم نستطع العثور عليه من جديد.

العاشر من يناير:

صباح هذا اليوم، فقدنا رجلا ممن كانوا معنا علَى سطح المركب.

رجل أمريكي يدعى: بيتر فريدنبرو، من نيويورك، وأحد أهم البحارة علَى سطح المركب، والذي انزلق خلال عبورنا لأحد الكتل الثلجية، وسقط بين كتلتين كبيرتين ولم يظهر بعدها من جديد.

الطقس الآن أكثر برودة، والتيارات البحرية صارت أكثر قوة، تحديدًا من الشمال الشرقي، وخلال إبحارنا رأينا بعض الجبال الثلجية من جديد، واتجاه الشرق ظهر وكأنه مغلق بالكامل بالكتل الثلجية المتكونة علَى شكل مصاطب، واحدة فوق الأخرى، والتي ارتفعت حتى عنان السماء.

وفي قرب الغروب، ارتفعت فوق رؤوسنا العديد من طيور النورس والقطرس، وبعض البجع مبهج المنظر، بينما لم يكن انحراف البوصلة كبيرا مثل أول دخولنا للدائرة القطبية.

الثاني عشر من يناير:

الجبال والكتل الثلجية تسد طريقنا من جديد ناحية الجنوب

الرابع عشر من يناير:

التففنا حول أكبر الكتل الثلجية من ناحية الغرب، ومع حلول الظهيرة وصلنا إلى طريق لجزء من المحيط، مغطى ببعض القطع الثلجية الخفيفة، والتي من الممكن الإبحار من خلالها.

درجة حرارة الهواء ارتفعت إلى ٤٧ فهرنهايت، ودرجة حرارة الماء صارت ٤١.

أبحرنا في اتجاه الجنوب دون أن تواجهنا أي عقبات إضافية، وحرارة الهواء الآن صارت ترتفع حتى وصلت إلى ٥١ درجة علَى الثرمومتر، وهو ما جعلنا موقنين أننا لن نواجه أي عقبات ثلجية جديدة، وأننا علَى وشك الوصول بنجاح إلى القطب الجنوبي للأرض.

السابع عشر من يناير:

كان هذا اليوم ممتلئا بالأحداث

العديد من الطيور حامت حولنا من جهة الجنوب، وبعد أن اصطاد الطاقم واحدا أو اثنين منها، تبين أنها نوع من البجع طيب المذاق قليل الدُّهن، وعند انتصاف النهار ظهرت بقعة من الثلج في الماء، والتي تبين أنها حيوان كبير الحجم لم نره من قبل، يتحرك بهدوء في الماء.

أمر الكابتن جاي بقاربين ليكتشفا ما هو هذا الكائن، فتطوعت أنا وديرك بيترز لمصاحبة المساعد الأول في أحد القوارب.

وعند وصولنا إلى تلك الكتلة العائمة، اكتشفنا أنها دب من فصيلة الدببة القطبية شاهقة البياض، إلا إن حجمه كان أكبر بكثير من أي دب من هذه الفصيلة، وبالرغم من تسلحنا المحكم، لم نقترب منه ولم نحاول الهجوم عليه.

لكن الرصاصات أطلقت عليه من القارب الآخر، بلا أي تأثير يذكر، حتى ما أطلق منها ناحية الرأس وأعلى الجسد، مما أغضب الوحش العملاق وجعله يقفز سابحا وفاتحا فكيه في غضب، إلا إنه اتجه ناحية القارب الذي كنت فيه مع بيترز.

تجمدنا في أماكننا من الصدمة، ولكن هذا لم يوقف الحيوان الهائج من محاولته رد الهجمة، وقبل أن تطلق أي رصاصة أخرى، كان قد أردى أحد الرجال علَى قاربنا قتيلا بضربة بسيطة من ذراعه العملاقة.

ولولا حكمة ديرك بيترز وسرعة تصرفه المذهلة، لكنا جميعا قتلى هذا الحيوان.

بيترز، بشجاعة بالغة، قفز علَى ظهر الحيوان الغاضب مشهرا سكينه، وبضربة واحدة غرز السكين في مُؤَخَّرِ رقبة الحيوان الغاضب العملاق، الذي سقط في الماء فورا وبلا أي حراك ساحبا بيترز معه، لكن الأخير كان قد أفلت الحيوان واستعاد سيطرته علَى جسده، وتسلق الحبل الذي ألقاه له المساعد الأول عائدا إلى القارب، وعدنا أدراجنا فورا بلا أي تأخير.

هذا الحيوان الغريب، كان طوله يتعدى الخمسة عشر قدما، وخطمه

يشبه كلب البولدوج أكثر من الدببة، في حين أنَّ أنيابه تناهز طول إ شخص بالغ، وعينيهِ حمراوان كبيرتان، أكبر من عينيّ الدببة القطبية المعتادة.

وبعد سحب الحيوان العملاق إلى المركب، تم تقطيعه واستخدامه كطعام للبحارة الجائعين، وكان لحمه طريا لكنه شديد الدهنية وكثير الزفارة، كأنه لحم الحيتان.

لم يكد البحارة يبدأون في تمزيق اللحم حتى ارتفعت صرخة فرح من ناحية الصاري، والصوت المبتهج يردد: «أرض علَى امتداد البصر، اليابسة علَى امتداد البصر».

انتفض الجميع، وبدأ الإبحار يسرع وتزداد وتيرته ناحية الشمال الشرقي، حتى اقتربنا من الساحل في النهاية.

أرض صخرية مالحة، تبلغ فرسخا تقريبا من الارتفاع، وعند الاقتراب منها ظهر نتوء صخري كبير ممتد داخل الماء، وإلى جوارهِ خليج صغير ضحل المياه، يمكن أن يكون مرسى جيد للغاية لقواربنا.

لم نأخذ وقتا طويلا لاستكشاف الجزيرة، لكننا أحبطنا عندما وجدنا أنها مكان قاحل ليس به أي شيء يمكن أن يثير الاهتمام؛ مجرد حجارة وبعض الأخشاب الباقية من سفن قديمة ربما، وقليل من الأشكال المستديرة من حجارة مصقولة بعناية، أشياء مملة لا تثير اهتمام أحد.

الكابتن جاي لم يكن في حالتنا نفسها؛ كان منتشيا سعيدا بالرغم من أنه لم يجد ما يمكن الاستفادة منه في هذه الجزيرة الصغيرة، ومن ثم أطلق عليها جزيرة بينيت؛ تكريما لشريكه في ملكية السفينة التي وصلت بنا إلى هنا.

وعندما عدنا للإبحار من جديد، لم نجد أي كتل ثلجية عملاقة أو أي شيء يعيق طريقنا، نحن الآن أبعد ببضعة أميال من أي مكان قد يكون مكتشف آخر وصل إليه قبلنا، الغريب في الأمر أن درجة حرارة الماء والهواء أصبحت أعلى من ذي قبل، والطقس كان ربيعيا رائعا بالرغم من أننا في منتصف يناير.

لكن الأمر لم يخلوا من بعض الصعوبات، فوقودنا يوشك علَى النفاد، وعلامات داء الإسقربوط بدأت في الظهور علَى بعض أفراد الطاقم، وهو ما دعا الكابتن جاي إلى طرح إمكانية العودة إلى الخلف بدلا من التوغل أكثر إلى الأمام.

ومن جهتي، كنت واثقا من أننا في وقت قريب قد نصل إلى الأرض بشيء من الإبحار المستمر علَى المسار نفسه، الذي كنا نبحر عليه، وكان لدي كل الأسباب التي تدعوني إلى الاعتقاد بصحة ذلك، لذا فقد انضممت إلى الفريق الذي كان يصر علَى استمرار التوغل ومحاولة إتمام هذا الكشف.

إن الفرصة المغرية لحل هذه المعضلة الكبرى فيما يتعلق بوجود قارة متجمدة في القطب الجنوبي لم تطأها قدما إنسان من قبل، كانت دافعا مهما في هذه الحال، وأعترف بأنني شعرت بالغضب الشديد من اقتراحات قائدنا المخجلة التي تطالب بالعودة أدراجنا.

وعلى الرغم من كل الأحداث الدموية المؤسفة التي تلت اقتراحي هذا، وإصراري عليه بشكل مزعج، إلا إنه لا بد لي أن أشعر بشيء من الفخر لكوني كنت مؤثرا ولو عن بعد، في فتح عين العلم علَى كشف جديد، وعلى أحد أكثر الأسرار إثارة للاهتمام علَى الإطلاق.

ولذلك قصة طويلة.

الفصل الثامن عشر

الثامن عشر من يناير:

في صباح اليوم، استمرينا في الإبحار إلى الجنوب، مع الطقس الجميل نفسه.

البحر كان سلسا تماما، والهواء دافئا بشكل مقبول ويهب من اتجاه الشمال الشرقيّ. درجة حرارة المياه كانت في حدود ٥٣ درجة.

كنا نتحرك أحيانا مدفوعين بقوة التيار البحري وبسرعة الرياح إذا ما اشتدت نحو الجنوب، لكن الكابتن جاي لم يبد مهتما علَى الإطلاق؛ في الواقع كان الجميع قلقا من إمكانية أن يجرفنا التيار في اتجاه غير الذي كنا نبتغيه، لكن القبطان لم يكن كأنه يسمعنا من الأساس!

الكابتن جاي ـ لمن يعرفه جيدا ـ كان حساسا جدا تجاه السخرية والمزاح المبالغ فيهما، لكني كنت أنجح دائما في رسم الابتسامة علَى وجهه؛ عندما أسخر من هدوئه المبالغ فيه وعدم مبالاته من الأحداث حولنا.

عقله كان مشتتا بين رغبة التقدم إلى القطب الجنوبي، وبين مخاوفه

من نفاد الوقود وضياعنا في هذه البقعة المجهولة من العالم.

في غضون ذلك اليوم رأينا العديد من الحيتان الكبيرة من النوع المعتاد المنتشر في البحار، وعددًا لا يحصى من طيور القطرس، مرَّت عبر السفينة.

كما التقطنا في طريقنا علَى إحدى الجزر ـ عند حلول الظهيرة ـ شجيرة مليئة بالتوت الأحمر، لكنه يشبه حبات التين ذات الأشواك، وجثة حيوان يمشي علَى أربع، طوله ثلاثة أقدام، وارتفاعه ست بوصات، مع أربعة أرجل قصيرة جدا، والأقدام مسلحة بمخالب طويلة بلون قرمزي رائع، وتشبه المرجان في الشكل واللمعان، بينما كان الجسم مغطى بشعر مستقيم، لونه أبيض تماما، والذيل مثل ذيل الفأر، والرأس يشبه رأس القطة، باستثناء الأذنين ـ حيث كانت هذه مثل أذن الكلب ـ كما كانت الأسنان من اللون القرمزي الرائع نفسه، مثل المخالب.

في الواقع، أود أن أنوه إلى أنه لا يجب أن تؤخذ توقيتاتي الصباحية والمسائية التي أستخدمها ـ لتجنب الخلط في روايتي قدر الإمكان ـ بالمعنى العادي، فعلى مدار أيام طويلة لم يكن لدينا أي ليل علَى الإطلاق. كان ضوء النهار دائما والشمس مشرقة طوال الوقت، ونحدد التواريخ في جميع المناطق وفقا للزمن البحريّ فقط، وبحساب مسافة الساعات والأميال التي قطعناها، وأود أيضا أن أنوه ـ في هذا المناسبة ـ إلى أنني لا أستطيع أن أدعي الدقة الشديدة في قياسات المسافات وخطوط الطول ودوائر العرض والأزمنة، وأنني ـ في الحقيقة ـ في العديد من الحالات اعتمدت كليا علَى الذاكرة فقط.

التاسع عشر من يناير:

اليوم، وصلنا إلى ما يمكن أن نسميه أرضا، في الحقيقة كانت مجموعة من الجزر التي تبدو جيدة صالحة للحياة، يحيط بها بحر ثقيل مظلم لونه يقترب من الأسود، شواطئها حادة لا تصلح بشكل كبير للرسو بالقرب منها، لكن رؤية أرض ممتلئة بالأشجار سبب لنا فرحة عارمة.

صدرت الأوامر فورا من الكابتن جاي بإخراج القوارب، والتسلح بشكل جيد، وسأكون أنا وبيترز ضمن الفرقة التي ستستكشف الجزيرة.

وبعد أن بدأت القوارب في التحرك، رأينا أربعة قوارب تبدو كبيرة في الحجم تخرج من شاطئ الجزيرة وتبحر في اتجاهنا، وكانت مليئة برجال داكني البشرة ويبدو أنهم مسلحون جيدا.

كانت القوارب تتحرك بسرعة كبيرة، حتى إنها في وقت قصير كانت قد وصلت إلى محيطنا، وفي ظرف لحظات كانوا يحيطون بنا.

كعلامة علَى السلام وإظهار الاحترام، رفع الكابتن جاي منديله الأبيض فوق نصل السكين الصغير، فبدأ الغرباء البدائيون داكنو البشرة يتحدثون بصوت مرتفع صاخب، وأصوات مختلطة متقطعة، ميزنا فيها فقط كلمات مثل: أناموMو ولاما لاما!

واستمروا في هذا الفعل علَى الأقل لنصف ساعة، بدونا فيها جميعا كالصم لا نفهم شيئا من كلامهم، ولكن بالرغم من ذلك أتيحت لنا الفرصة لمراقبتهم بشكل جيد.

كان هناك نحو مائة بدائي أسمر، لكنهم يملكون البنية العادية للأوروبيين البيض، ولكن في إطار أكثر عدوانية وشجاعة. بشرتهم

سوداء داكنة، مع شعر صوفي سميك وطويل، ويلبسون جلد حيوان أسود غير معروف، ملائم بشكل ممتاز لأجسامهم، وشعر أجسادهم منتشر في كل مكان عدا حول العنق، المعصمين، والكاحلين.

كانت أسلحتهم تتكون أساسا من أعمدة من خشب داكن مظلم، ويبدو أنه ثقيل جدا، لكننا ميزنا بعض الرماح الحادة في أيدي بعض منهم، والغريب أنهم يملئون قعر القارب بالحجارة السوداء التي تقترب من حجم بيضة كبيرة.

وقف أحدهم ـ الذي علَى ما يبدو أنه الزعيم ـ في جوف قاربه، ورفع لنا لافتات تطلب منا بالرسم أن ننزل إلى قواربنا ونذهب معه.

تظاهرنا بعدم الفهم، معتقدين أن الخطة الأكثر حكمة، هي أن نحافظ ـ إن أمكن ـ علَى الفاصل بيننا وبينهم؛ لأن عددهم يزيد على أربعة أضعاف عددنا، ولما تبين الزعيم أننا لا نفهم منه شيئا، أمر القوارب الثلاثة الأخرى بأن تتراجع، بينما تقدم نحونا بقاربه، وبمجرد أن وصل إلينا قفز علَى متن أكبر قواربنا، وجلس إلى جانب الكابتن جاي، مشيرا في الوقت نفسه إلى السفينة، وردد كلمات أنامو مو! ولاما لاما! ففهمنا أنه يريد منا العودة إلى السفينة، لذا فقد أطعناه والقوارب الأربع البدائية تتبعنا من مسافة قريبة.

وعند الاقتراب من السفينة، ضحك الزعيم بصوت مرتفع، وظهرت عليه أعراض البهجة، وراح يصفق بيديه ويصفع فخذه وصدره، ويضحك بغرور وثقة، وانضم إليه أتباعه في بقية القوارب، ولبضع دقائق كان الاحتفال مفرطا إلى الحد الذي جعل ضجيجه يصم الآذان تماما.

وحيث إن الكابتن جاي قد عاد بهدوء، فقد أمر برفع القوارب

الخاصة بنا، كإجراء وقائي ضروري، وأعطى الزعيم إشارة لحاول جعله أن يفهم أنه لا يمكننا قبول أكثر من عشرين من رجاله على ظهر السفينة في وقت واحد، ولدهشتنا فقد فهم هذه الإشارة وبدا راضيا تماما، وأعطى بعض التوجيهات إلى القوارب ليقترب أحدها، بينما بقي البقية علَى بعد خمسين ياردة.

والآن، كان هناك عشرون من البدائيين علَى السفينة، وتقدموا نحو كل جزء من سطح السفينة، وراحوا ينتشرون في كل أرجائها كأنها منزلهم الرحب، وفحصوا كل شيء بفضول شديد.

وكان من الواضح تماما أنهم لم يروا من قبل أي شخص من العرق الأبيض، بل كانوا يعتقدون أن جين جاي ـ السفينة ـ مخلوق حي، وبدا أنهم يخافون من أن يؤذونها برماحهم، بل وراحوا يحركون رماحهم عليها بحرص.

كان طاقمنا متعجبا جدا من هذا السلوك، بل تصادف أن الطاهي كان يقسم بعض الأخشاب بالقرب من الممر، وبالمصادفة، ضرب فأسه في سطح السفينة، مما صنع شرخا بعمق كبير في أحد الألواح، فركض الزعيم فزعا علَى الفور، ودفع الطاهي بقوة وهو يربت بهدوء علَى اللوح المشروخ، ثم قام بترقيع الشرخ بيديه، ثم غسله بدلو من مياه البحر!

كانت هذه درجة من الجهل والبدائية لم نكن مستعدين لها، ومن جهتي لم أستطع أن أفكر في أي نتائج أو تبعات قد تنتج عن ذلك.

وعندما أشبع الزائرون الغرباء ـ قدر استطاعتهم ـ فضولهم في ما يتعلق بالسطح والقمرة الرئيسية، نزلوا إلى الأسفل حين تجاوزت دهشتهم كل الحدود.

بدت دهشتهم الآن عميقة جدا وغير قابلة للوصف، لأنهم كانوا يقرون في صمت، يراقبون تلك الأسلحة النارية والسيوف والسكاكين المملاقة، يراقبون في دهشة انعكاس ضوء المشاعل عليها، ويلمسونها بحرص شديد وكأنهم يلمسون قدورا من الماء المغلي.

كانت هناك مرآتان كبيرتان في المقصورة، وهنا كانت قمة دهشتهم.

كان الواحد منهم إذا دخل المقصورة ورأى انعكاس وجهه في المرآة، أصيب بدهشة تكاد تخرج عينيه من محجريهما، ثم إذا التفت وراءه رأى انعكاسه في المرآة الأخرى فيزيد اندهاشه ويصدر عنه ما يشبه الصرخة.

بدأ القلق يدب فينا من تأثير رد فعلهم الهمجي علَى المَرائي، وربما علينا كذلك، لربما ظنوا أن هذا درب من دروب السحر وقاموا بقتلنا جميعا، لكن الواحد منهم كان يغطي وجهه وهو يئن، ونضطر للتربيت عليه وسحبه خارج المقصورة في هدوء.

وعلى هذه الوتيرة، كان عشرون من البدائيين يصعدون إلى سطح السفينة في كل مرَّة، ويقومون بالأفعال نفسها؛ المندهشة الجاهلة، ولم نر أي فعل قبيح منهم طوال زيارة كل فوج منهم، بل ولم نفقد أيا من أدوات أو مؤن السفينة، كانوا في قمة الود والأمانة.

ولكن، كانت هناك بعض النقاط في سلوكهم والتي وجدنا أنه من المستحيل فهمها: علَى سبيل المثال، لم يجرؤا علَى الاقتراب من عدة أشياء غير مؤذية للغاية، مثل: قطع من الجبس علَى السفينة، أو بيضة بريئة المظهر، أو أي كتاب مفتوح، أو عربة مخزون الدقيق، أشياء بسيطة من هذا القبيل.

وبعد انتهاء الزيارة، اصطحبوننا معهم إلى الجزيرة.

ولكن ما أذهلنا كثيرا أن الجزيرة كانت فقيرة عجفاء، وأن السكان يأكلون الأعشاب وسلحفاة الجالياباجوس، التي رأينا إحداها في يد أحد البدائيين، والذي يأكلها بخشونة في حالتها الطبيعية بلا طهي، بينما كان الكابتن جاي متحمسا للغاية، فلقد وقع بين يديه كشف جديد لا يمكن تفويته، ولم يحققه أحد قبله علَى مرِّ العصور.

من جهتي، لم أكن متلهفا لمعرفة شيء أكثر عن هذه الجزر، كنت أكثر رغبة في استكمال الرحلة إلى الجنوب دون تأخير، فلدينا الآن طقس جيد، وقد لا يدوم كثيرا وكوننا بالفعل علَى بعد أميال قليلة من القطب الجنوبي وببحر مفتوح أمامنا نحو الجنوب، فلم أستطع أن أستمع بأي صبر إلى اقتراحات التوقف لفترة أطول مما كان ضروريا لراحة الطاقم وأخذ وقود كافٍ ومؤن طازجة.

تكلمت مع الكابتن، وأخبرته أنه من السهل أن نقابل هذه المجموعة من جديد في طريق عودتنا، واستمع مناقشة آرائي ـ لأنه بطريقة ما كنت قد اكتسبت قدرا كبيرا من الاحترام والنفوذ لديه ـ وأخيرا تقرر أنه حتى في حال اكتشاف أي شيء مهم في هذه الجزر المقفرة، ينبغي لنا أن نبقى هنا مدة أسبوع علَى أقصى تقدير، ثم نمضي إلى الجنوب بينما نستطيع أن نفعل ذلك الآن.

وبناء علَى هذا قمنا بكل الاستعدادات اللازمة، وبتوجيه من الزعيم تووـ وت قدنا جاين جاي عبر الشعاب المرجانية بأمان، ورمينا المِلب لتثبيتها علَى نحو ميل من الشاطئ، في خليج ممتاز، علَى الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة الرئيسية، ذي القاع الرمليّ الأسود، وفي رأس هذا

الخليج كان هناك ثلاثة ينابيع عذبة من المياه، ورأينا وفرة من الأخشاب في الجوار. وقد لاحقتنا القوارب الأربعة، بمسافة جيدة وغير ملتصقة بنا، وبقي الزعيم نفسه علَى متن السفينة معنا، ثم ـ بعد الرسو ـ دعانا إلى مرافقته إلى الشاطئ وزيارة قريته في الداخل. وافق الكابتن جاي، وترك تووـ وت عشرة من رجاله علَى سطح السفينة كرهائن لنا لابداء حسن نيته، ونزلت حملة منا مكونة من اثني عشر شخصا، وحرصنا علَى أن نكون مسلحين جيدا، ولكن دون أن نبدي عدم الثقة في مضيفنا ورجاله، ولم يبق مع المساعد الأول سوى بضع أشخاص مع تعليمات محددة، في حال إذا لم نعد في غضون اثنتي عشرة ساعة، أرسل فريقا مسلحا تسليحا جيدا، مع الدوران حول الجزيرة بالكامل بحثا عنا.

وفي كل خطوة نخطوها داخل الجزيرة، كانت تجبرنا علَى الاقتناع علَى أننا كنا في بلد لا يمكن أن يكون شهد أي زيارة حتى الآن من رجال متحضرين أو شهد أي نوع من أنواع الحضارة الحديثة.

لم نر أي شيء مما ألفناه سابقا في أي جزيرة، ولم تكن الأشجار تنمو نمو المناطق الجبلية أو المعتدلة أو المناطق الشمالية، بل كانت تماما علَى خلاف تلك الموجودة في المناطق الجنوبية السفلى التي زرناها بالفعل، والصخور مختلفة في تكوينها وتركيبها عن أي صخور رأها أي منا في حياته، وحتى الماء، جداول الماء كانت عكرة بشكل مبالغ فيه، مما جعلنا نشك تماما في أنها صالحة للشرب أو يمكن تناولها تحت أي ظرف من الظروف.

في وادٍ صغير عبر طريقنا، تووـوت واثنان من رجاله توقفوا لشرب الماء بكثافة ودعانا للشرب، ولكن بسبب الطبيعة الفريدة والغريبة

للماء، رفضنا تذوقه، وافترضنا أنه تلوث بفعل المخلفات أو شيء من هذا القبيل.

لكن بعد فترة، بدأنا نفهم أن هذا هو مظهر الماء الطبيعي في جميع أنحاء الجزيرة!!

سوف أكون في حيرة من أمري لأعطي فكرة واضحة عن طبيعة هذا السائل، ولا أستطيع أن أفعل ذلك دون كلمات كثيرة. وعلى الرغم من أنه تدفق بسرعات كما يفعل الماء العادي النقي ذلك، في الواقع عندما تتناول منه قليلا في أي وعاء فإنك تراه كأنه ماء عادي، إلا إنه داخل الجداول كان عكرا داكن اللون، كأنه تدفق من النبع في الجبل عبر صخور ملوثة أو عبر مجارٍ من الفحم، وهي ما حولت لونه لذلك، داخل الجدول.

لأول وهلة، كان يشبه لو أنك قمت بضخ الصمغ العربي في الماء العادي. ولكن هذا كان أقل ما يمكن ملاحظته من الصفات غير العادية. لم يكن عديم اللون، ولم يكن من لون واحد، كان لونه يتغير مع تغير أشعة الشمس ولون المجرى وحتى مع اختلاف المناطق في المجرى الواحد، وهو ما أثار دهشتنا الشديدة كما فعلت المرآة برجال توووت.

وعندما جمعنا عينة منه في وعاء فخاري، وسمحنا باستقرارها داخل الوعاء بشكل كامل، لاحظنا أن الكتلة الكاملة من السائل مكونة من عدد من الأوردة مختلفة الألوان، كل وريد منها متماسك بشكل كامل منفردا وبشكل غير كامل مع باقي الأوردة المجاورة، وعند تمرير شفرة السكين من خلال وريد واحد، يغلق الماء جزيئاته فورا فوق الشفرة، وكذلك عند سحبها، فقد طمست كل آثار مرور السكين علَى الفور وكأن هذا الماء كائن حي!!

ولكن إذا تم تمرير الشفرة بدقة بين وريدين متجاورين، يتم الفصل الكامل بينهما ويظهر أثر السكين وكأن الماء تحول إلى جزئين منفصلين!

كانت ظاهرة الماء الغريب، هي أول ما واجهني في تلك الجزيرة البدائية، وشكلت أول حلقة في سلسلة من المعجزات والظواهر التي قدر لها أن تطوقني بالكامل، خلال وجودي علَى هذه الجزيرة!

الفصل التاسع عشر

مرَّت تقريبا ثلاث ساعات منذ وصولنا إلى القرية التي يسكنها هؤلاء البدائيون، ووصلنا لها بعد المشي لتسعة أميال كاملة في طريق وعرة عبر الصخور والمرتفعات.

وعند وصولنا كان قوم تووـوت ـ مائة وعشرة من البدائيين ـ يحيطون بنا الآن، بعد أن راح كل اثنين أو ستة من البشر ينضمون إلينا عبر المنعطفات طوال الطريق، بطريقة تبدو كما لو كانت عن طريق الصدفة.

كان هذا الأمر فيه الكثير من النظام، لدرجة أنني لم أستطع الشعور بعدم الثقة في البداية، لكني بعد قليل تحدثت إلى الكابتن جاي عن مخاوفي مما يحدث، ولكن الأوان قد فات الآن للانسحاب، وتوصلنا إلى أن أفضل حلٍّ لنا ألا وهو الثقة التامة في حسن نية تووـوت ورجاله.

لذلك تابعنا بحذر مناورات القوم، وحاولنا قدر المستطاع عدم السماح لهم بتقسيمنا من خلال التدافع بيننا، وبقينا علَى أنفسنا ككتلة واحدة متجمعة، وبهذه الطريقة، وبعد مرورنا عبر وادٍ شديد الانحدار،

وصلنا إلى ما قيل لنا إنه المجموعة الوحيدة من البيوت علَى هذه الجزيرة، وبينما كنا نرى تلك البيوت، رفع الزعيم عقيرته بصرخة عالية، وكرر كلمة كلوك ـ كلوك مرارا، والذي يفترض أن يكون اسم القرية، أو ربما الاسم العام للقرى في لغة هؤلاء القوم.

كانت المساكن من أبشع وصف يمكن تصوره، وعلى عكس المساكن التي يسكنها أدنى الأجناس الوحشية التي تعرفها البشرية، لم تكن ذات هيئة موحدة، فبعضها كان يتألف من شجرة مقسمة، ارتفاعها أربعة أقدام من الجذر، وعليها قطعة جلد سوداء كبيرة، وبعضها قد تكون بواسطة أطراف من الأشجار الخشنة، مكسوة بأوراق شجر جافة مفتتة عليها، قائمة بزاوية ٤٥ درجة على ضفة الطين، مطلية دون شكل منتظم، تصل إلى ارتفاع خمسة أو ستة أقدام، وبعضها كان مجرد حفر في الأرض علَى نحو متقطع، ومغطى بأغصان مماثلة، وقد أزيلت هذه عندما كان صاحب البيت علَى وشك الدخول، ثم تم سحبها خلفه مرَّة أخرى عندما دخل، وقد بُني عددٌ قليلٌ من البيوت من الأشجار التي لا تزال واقفة ثابتة، مع قطع الأطراف العلوية جزئيا من خلالها، حتى تنحني قليلا وتوفر حماية من الطقس المتقلب، ولكن العدد الأكبر كان عبارة عن كهوف صغيرة، نحتت في صخور سوداء داكنة قاسية، وعند باب كل من هذه الكهوف البدائية كانت ترقد صخرة صغيرة وضعها صاحب المنزل بعناية أمام المدخل عند مغادرته، وهو ما بدا غير منطقي لي؛ لأن الحجر نفسه لم يكن بحجم كاف لإغلاق أكثر من ثلث مدخل الكهف!

إن هذه القرية ـ إذا كانت جديرة بوصف القرية من الأساس ـ تقع في وادٍ عميق للغاية، ولا يمكن الوصول إليها إلا من الجنوب، وعبر

وسط الوادي كان يجري مجرى من المياه السحرية نفسها التي وصفتها سابقا، كما رأينا عدة حيوانات غريبة بالقرب من هذه المساكن، كلها تبدو مستأنسة تماما.

أكبر هذه المخلوقات يشبه الخنزير ويشترك معه في بنية الجسم؛ ولكن الذيل كان هائشًا كذيل السناجب، والأرجل نحيلة كأرجل الظبي، وحركته مشوشة للغاية وغير محددة المسار، ولم نر قط أي محاولة للركض من قبل هذا الحيوان، كما لاحظنا العديد من الحيوانات المتشابهة جدا في مظهرها، لكن لها جسم أطول وأكبر، ومغطاة بصوف أسود ناعم.

كان هناك تنوع كبير من الطيور الداجنة التي تجري حولنا، ويبدو أنها تشكل الطعام الرئيسي للسكان الأصليين، ومن فرط دهشتنا رأينا القطرس الأسود بين هذه الطيور في حال من الاستئناس الكامل، يذهب إلى البحر دوريا للحصول علَى الطعام، ولكنه يعود دائما إلى القرية كمنزل ومأوى، ويستخدم الساحل الجنوبي في الجوار كمكان للتبييض، ومن بين الأنواع الأخرى من الطيور الداجنة كان البط، الذي يختلف قليلا جدا عن ما عهدناه في وطننا، وبدا أن هناك وفرة كبيرة من الأسماك، فقد رأينا، خلال زيارتنا، كمية كبيرة من السلمون المجفف، القد الصخري، الدلافين الزرقاء، سمك الفيل، السلال، سمك الباراكوتا، وأنواعا أخرى لا تحصى، ولاحظنا أيضا أن معظمها شبيه بالأسماك الموجودة في مجموعة جزر لورد أوكلاند في المحيط الهادي، وكانت سلحفاة الجاليباجو أيضا وفيرة جدا. لم نر سوى القليل من الحيوانات البرية من الأنواع التي كنا نعرفها، إلا القليل من الثعابين والأصلات، لكن يبدو أن السكان لا يعيرونها انتباها ولا يخشونها كثيرا.

وبينما كنا نقترب من القرية مع تووـوت وجماعته، سارع جمهور كبير

من الناس إلى مقابلتنا، بصيحات صاخبة، لم يكن بوسعنا إلا أن نميز منها ألفاظًا، مثل: أناموو موس ولاما لاما! لقد فوجئنا كثيرا بإدراك أن هذه الجموع ـ باستثناء واحد أو اثنين ـ كانوا عراة تماما، والجلود المستخدمة لتغطية الجسد كان يستخدمها فقط صنف الرجال الذين قابلوننا في القوارب، ويبدو أن جميع أسلحة البلد كانت أيضا في حوزة تووـوت ورجاله، لأنه لم يكن هناك أي مظهر يدل علَى التسليح من بين القرويين، فهناك عدد كبير من النساء والأطفال، لا تحمل النساء أي طابع مما يمكن أن يسمى بالجمال الشخصي، فقد كن مستقيمات القامة فائرات الجسد، ولكن شفاههن مثل شفاه الرجال كانت سميكة صلبة، وكان شعرهن من نسيج ذا لون أفتح من شعر الذكور، ومن بين هؤلاء القرويين العراة كان هناك عشرة أو اثني عشر شخصا يلبسون ثيابا سوداء، مثل رجال تووـوت، ومسلحين بالرماح والأخشاب الثقيلة. ويبدو أن هذه المجموعة كان لها تأثير كبير علَى بقية العامة، وتعرف باسم وامبو، وهؤلاء أيضا كانوا يقيمون في البيوت المصنوعة في قلب الأشجار والمغطاة بالجلود السوداء.

كان موقع منزل تووـوت في وسط القرية، وكان أكبر بكثير وأفضل بناء من غيره، فقد تم قطع الشجرة علَى ارتفاع اثني عشر قدما من الجذر، والغطاء الذي يتألف من أربع قطع من الجلد كبيرٌ جدًّا ومربوط بفروع خشبية، ومُؤمَّنٌ في القاع بكمية كبيرة من لحاء الشجر والأوراق اليابسة المجففة.

إلى هذا الكوخ، قادنا تووـوت بسخاء عظيم، واكتظ المكان حولنا بأكبر عدد ممكن من السكان الأصليين. جلس الزعيم علَى أوراق الشجر، وقدم علامات بيده علَى أننا يجب أن نتبع ما يفعله، وهذا ما قمنا به،

ولقد وجدنا أنفسنا الآن في موقف غير مريح علَى نحو غريب، فقد كنا نجلس علَى الأرض، اثنا عشر شخصا، مع ما يصل إلى أربعين رجلا من البدائيين، جالسين من حولنا، بحيث، لو حدثت أي اضطرابات، سيكون من المستحيل أن نستخدم أذرعنا، أو أن نكون قد نهضنا على أقدامنا!

لم يكن الزحام داخل الخيمة المنزل فقط، بل في الخارج، حيث كان على الأرجح كل فرد في الجزيرة كلها موجودا، لكن أمننا الرئيسي يكمن في وجود تووـوت جالسا بيننا، وقررنا أن نبقى قريبين منه بشكل لصيق، كأفضل فرصة لانتشال أنفسنا من أي مشاكل قد تحدث، وأن نستخدمه كرهينة ووسيلة خروج عند ظهور أول عمل عدائي.

وبعد الكثير من الهمهمات والصراخ من تووـوت، عمت درجة لا بأس بها من الهدوء، عندما ألقى علينا الزعيم خطابا طويلا جدا، وكاد يشبه تقريبا كلماته التي قالها ونحن محاطون بالقوارب، باستثناء كلمة أناموموس! وكان يستخدمها الآن بشكل أكثر تشددا من لاما لاما! واستمعنا في صمت عميق إلى نهاية خطبته، عندما رد الكابتن جاي مطمئنا الزعيم أننا أصحاب سلام وأناس لا نريد شرا، مختتما ما قاله بالإنجليزية بمنح الزعيم هدية من عقد من الخرز الأزرق وسكين أنيق المظهر.

في أول الأمر، فوجئنا برد فعل تووـوت، فقد رفع أنفه وتمتم بعبارات توحي من طريقة نطقها ببعض عبارات الإزدراء؛ ولكنه عندما فحص السكين، انتابه قدر غير محدود من الرضا، فطلب العشاء علَى الفور، والذي يتكون من مائدة من أنواع من الحيوانات غير المعروفة، ربما واحدة من الخنازير الرقيقة الأرجل التي لاحظناها عند وصولنا للقرية. وابتدأ

يشير لنا بيده؛ كي نفعل مثله، فكان يأكل الوعاء بعد الوعاء ويتلمظ في فرحة، لكننا رفضنا المشاركة في الأطعمة المعروضة علينا، وسعينا إلى جعله يفهم أنه ليس لدينا شهية، بعد أن انتهينا لتونا من شرب ذلك الماء المنعش للقلب.

وعندما انتهى جلالته من وجبته، بدأنا سلسلة من الاستجوابات بكل ما نستطيع استنتاجه بلغة الإشارة بهدف اكتشاف ما هو أهم ما ينتجه هذا البلد، وما إذا كان أيا منها قد يتحول إلى ربح في بلادنا، وبمرور الوقت بدا أن عنده بعض الأفكار عن معنى استفساراتنا، وعرض أن يرافقنا إلى جزء من الساحل حيث أكد لنا أن حيوانات خيار البحر موجودة بكثرة في هذه الأنحاء، وذلك عن طريق تلويحه بأحد هذه الكائنات أمام وجوهنا.

سررنا من هذه الفرصة المبكرة للهروب من هذا الحشد، وحاولنا أن نخبره بحرصنا علَى المضي قدما وزيارة الشاطئ الآن، ومن ثَمَّ مواصلة طريقنا.

غادرنا منزله الآن، ورافقنا سكان القرية جميعهم، تبعوا زعيمهم إلى الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة، وليس بعيدا عن الخليج حيث كانت سفينتنا ترسو هناك، وانتظرنا هنا مدة ساعة تقريبا، إلى أن تم إحضار القوارب الأربعة لتقلنا إلى داخل البحر.

رحنا نتحرك علَى طول حافة الشعب المرجانية، حيث شاهدنا كمية أكبر بكثير من حيوانات خيار البحر التي يمكن لأحد أن يكون قد رأها علَى الإطلاق، وبقينا بالقرب من هذه الشعاب المرجانية لفترة كافية ونحن نتخيل مدى سهولة تحميل اثنتي عشرة سفينة من هذا الحيوان إذا

لزم الأمر وكان لدينا هذا العدد من السفن، وعندما أخذنا تووـوت إلى جانب سفينتنا، حصلنا منه علَى وعد بأنه سيجلب لنا، علَى مدى أربع وعشرين ساعة، كل ما يقدر عليه من ذلك البط البري الذي ينتشر في الجزيرة والعديد من سلاحف الجالاباجو.

طوال هذه المدة، لم نر شيئا في سلوك السكان الأصليين قد يبعث علَى أدنى درجة من درجات الشك، باستثناء الطريقة المنهجية المنظمة التي يتجمعون بها تدريجيا في طريقنا من السفينة إلى القرية أو من القرية إلى الشاطئ.

حتى صار عددهم يفوق قدرتي علَى الإحصاء.

الفصل العشرون

كان تووـوت زعيما جيدا ورجلا ملتزما بكلمته، وخلال أقل من أربع وعشرين ساعة، وصلت المؤن إلى السفينة.

وجدنا هذه السلاحف جيدة وصالحة لتكون وجبة طعام، وذلك البط البري كان ذا لحم طري وطيب المذاق، وهو ما سيوفر لنا مؤنا طازجة علَى متن جاين جاي في باقي رحلتنا.

وإلى جانب هذه، جلب لنا البدائيون ـ بعد أن شرحنا لهم مستخدمين الرسم والإشارات ـ كمية كبيرة من الكرفس البني وأعشاب الكوتشلاريا التي تعالج الإسقربوط، مع حمولة قارب من الأسماك الطازجة وبعض الأسماك الجافة.

كان الكرفس مفيدا جدا، وقد أثبتت أعشاب الكوتشلاريا فوائد لا تحصى في علاج أعراض الإسقربوط في طاقمنا، وفي وقت قصير جدا لم يكن بيننا شخص واحد علَى قائمة المرضى، كما كان لدينا الكثير من الأنواع الأخرى من الطعام الطازج، ومن بينها أنواع من المحار تشبه

عضلات الماشية؛ لكنها ذات مذاق يشبه المحار، كان الجمبري أيضا وطيور القطرس وبيض طيور أخرى لكنه ذو قشرة سوداء.

كما استقبلنا مخزونا وفيرا من لحم ذلك الخنزير الغريب الذي ذكرته من قبل، ومعظم الرجال وجدوه طعاما مستساغا، لكني اعتقدت أنه مريب وغير مقبول الطعم.

في مقابل هذه الأشياء الجيدة قدمنا للسكان المحليين بعضا من الحصى، والنحاس والسكاكين وقطعا من القماش الأحمر، كانوا سعداء جدا بهذه المقايضة، وكأننا أنشأنا سوقا نظامية علَى الشاطئ، حيث كانت تصرفاتهم تنم عن النظام والاحترام، لدرجة كبيرة لم نتوقعها من هولاء البدائيين الهمج، سكان قرية كلوك ـ كلوك.

استمرت الأمور علَى الوتيرة نفسها لعدة أيام، والتي كانت خلالها تصعد مجموعة من السكان الأصليين علَى متن السفينة، وينزل مجموعة من رجالنا في كثير من الأحيان إلى الشاطئ، يقومون برحلات طويلة إلى الداخل، ولا يواجههم أي اعتراضات، وكذلك سهولة تحميل السفينة بالمؤن والبضائع، بسبب التصرف الودي لسكان الجزيرة، والحماسة التي يساعدوننا بها، وقد قرر الكابتن جاي الدخول في مفاوضات مع تووـوت لبناء منازل ملائمة لتجميع هذه البضائع، ثم تركها لاحقا لخدمة السكان الأصليين للجزيرة، مثل: المخازن، وأرفف التخزين، وغرف الراحة. وذلك باستخدام معارفنا المتطورة، وقد أبدى تووـوت ـ كما فهمنا ـ مرونة شديدة في هذا الاتفاق، شريطة أن يبقى بعض منا علَى الجزيرة لحين عودة جاين جاي من رحلتها إلى القطب الجنوبي، وذلك لتنظيم الأمور ومحاولة تعليم هؤلاء البدائيين كيفية بناء هذه

المنازل لاحقا، وبدلا من أن نمنحهم سكاكين وأقمشة، سنمنحهم العلم والتقدم

وبعد إبرام اتفاق بهذا الشأن، شرعنا فورا في العمل بكل ما يلزم لإعداد المباني وتجهيز الأرض لذلك الغرض.

وقد تم اختيار مساحة كبيرة مسطحة بالقرب من الساحل الشرقي للخليج، حيث توجد وفرة من الخشب والماء، وفي نطاق مسافة ملائمة من تجمعات الشعب الرئيسية حتى يمكن للسفن الرسو بسهولة قرب الساحل، وبدأنا نعمل جميعا بجدية، وفي ظرف ساعات قليلة ـ وسط دهشة البدائيين ـ قطعنا عددا كافيا من الأشجار لهدفنا، وجمعناها سريعا في إطار البيوت استعدادا لتجميعها معا في بناء منظم، وهي المهمة التي سيكملها رجالنا الثلاثة المتروكين علَى الجزيرة مؤقتا بمعاونة من السكان الأصليين، هؤلاء هم جون كارسون، ألفريد هاريس، وشخص اسمه الأخير بيترسون ـ جميعهم من سكان لندن، علَى ما أعتقد ـ وذلك بعد أن تطوعوا بخدماتهم ورغباتهم في إتمام ذلك العمل الجليل.

وبحلول آخر شهر يناير، كان لدينا كل شيء ضروري لإتمام الرحلة، وكنا علَى أتم استعداد للمغادرة، بيد أننا اتفقنا ـ أو لنقل بصراحة: فقد أجبرنا ـ علَى القيام بزيارة رسمية للقرية، وأصر تووت علَى ذلك، ووافقنا علَى ذلك تجنبا للتعرض لخطر الإساءة إليه بالرفض النهائي، وأعتقد كذلك أن لا أحد منا كان عنده في هذا الوقت أدنى شك في حسن نية هؤلاء البدائيين، فقد كانوا يتصرفون بشكل موحد وبحماس شديد، يساعدوننا في العمل، ويقدمون لنا سلعهم بشكل متكرر دون ثمن، ولا يقومون، علَى أي حال، بطلب أي رد أو محاولة مقايضة، علَى

الرغم من شعورنا بالقيمة العالية لبضائعنا الزهيدة التي كنا نستخدمها في المقايضة، وتلك القيمة كانت واضحة في مظاهر الفرح المسرفة التي تظهر دائما عندما نمنحهم أيا منها!.

كان علينا أن نكون متشككين، كان علينا ألا ننظر لهم بعين شبيهة بما يمكن أن ننظر بها إلى البشر المتحضرين المتطورين، وأن ما حدث لنا لاحقا، أثبت بالدليل القاطع أن سكان هذه الجزر الذين كنا نمنحهم التقدير ونظن أنهم محل احترام، هم أكثر أهل الأرض همجية وإنكارا للجميل والمعروف[1].

ففي الأول من شهر فبراير، ذهبنا إلى الشاطئ بهدف زيارة القرية كما أصر تووـوت، وعلى الرغم من أننا ـ كما قيل من قبل ـ لم يساورنا أدنى قدر من الشك، إلا إنه لم يتم تجاهل أي تدابير وقائية مناسبة، فقد ترك ستة رجال في السفينة مع تعليمات واضحة بعدم السماح لأي من هؤلاء البدائيين بالاقتراب من السفينة أثناء غيابنا، تحت أي ظرف من الظروف ومهما كانت المبررات، والبقاء علَى ظهر السفينة باستمرار، مع التسلح بشكل جيد طوال الوقت، وتجهيز مدافع الكرات المعدنية الصغيرة للانطلاق في أي لحظة.

كانت السفينة ترسو علَى بعد ميل واحد من الشاطئ، وفي اتجاه

---

(١) تمتلئ الرواية بالتعابير العنصرية المتنمرة، بشكل مثير للدهشة بالنظر إلى مجمل أعمال إدجار آلان بو، لكن تعرض بو لها بهذه الطريقة يشبه فتح الجرح وتركه يجف تحت أشعة الشمس، حيث إنه كان من كبار المدافعين عن حقوق وحريات السكان الأصليين والمهاجرين ذوي الأصول الأفريقية، لكن بطل روايته هنا شاب أمريكي متعصب وعنصري كأغلب الأمريكيين في تلك الفترة.
لذا وجب التنويه حفاظا علَى مشاعر من يتضرر من هذه العنصرية، وقد حاولت قدر المستطاع تخفيف حدة هذه التعابير. (المترجم).

يسمح بملاحظة أي تحرك غير معتاد من القوارب البدائية.

بينما انتقلنا إلى الشاطئ، في مجموعة تتكون من اثنين وثلاثين شخصا، مسلحين، بحوزتنا المسدسات والبنادق وبعض السكاكين الكبيرة، ومحاطين بمائة من أصحاب البشرة الداكنة والجلود السوداء بهدف مرافقتنا في طريقنا.

إلا إننا لاحظنا، مع بعض المفاجأة، أن الجميع يمشون الآن بلا أسلحة؛ وعند سؤال تووـوت عن ذلك، أجاب بما يوحي بأن الجميع إخوة وأصدقاء، وأنه لا داعي لاستخدام أي أسلحة، لذا فقد اعتبرناها بادرة خير وأكملنا طريقنا.

كنا قد اجتزنا نبع المياه والمجرى المائي الذي تحدثت عنهما من قبل، وكنا ندخل الآن إلى ممر ضيق يمتد عبر سلسلة التلال التي تقع القرية من بينها، ممر تصل جوانبه في المتوسط إلى سبعين أو ثمانين قدما في ارتفاع متعامد طوال مداها، وفي بعض الأجزاء تصل إلى ارتفاع مذهل يتعدى المائة قدم، لدرجة أن القليل من ضوء النهار قد يصل إلى قاع الممر حيث نمشي، والعرض العام حوالي أربعين قدما، وقد يتقلص أحيانا بحيث لا يسمح بمرور أكثر من خمسة أو ستة أشخاص. باختصار، لا يمكن أن يكون هناك مكانٌ في العالم أفضل من هذا الممر لتدبير كمين محكم، ولكنه لم يكن من الطبيعي ـ بعد مبادرة تووـوت السلمية ـ أن نتوقع أي نية لأي غدر.

عندما أفكر الآن في حماقتنا البالغة، أفكر في أنه كان علينا اتخاذ كل الإجراءات الممكنة لضمان أمننا وسلامتنا وتحت أي ظرف، في مقابلة قوة متوحشين بدائيين مجهولين، لربما لو كنا طلبنا منهم أن يمشوا أمامنا فقط ونحن نراقبهم لكان هذا أسلم من أن يحيطوا بنا بهذا الشكل!!

كان هذا الترتيب نابعا من ثقة مفرطة ـ تصل إلى درجة الغباء المطلق ـ بقوة وضعنا التسليحي وبذكاء عقولنا التي ظننا أنها قد تسبق عقول هؤلاء البدائيين بمراحل، والحال السلمية لـ تووـوت ورجاله، وكذلك الفعالية المحدودة لأسلحتنا النارية ـ بالنظر إلى ضيق الممر وحال إحاطتهم بنا ـ وأكثر من كل شيء، بمدى إمكانية اتخاذ رد فعل حاسم في مواجهة فريق من البدائيين يحيط بنا من أربعة اتجاهات، فقط بمواجهة أسلحة نارية وأيادٍ شبه مغلولة ـ من كثرة الزحام ـ وطاعة عمياء لأي همسة قد يهمسها جلالة الزعيم المبجل، تووـوت.

ديرك بيترز ـ رفيق رحلتي الأبدي ـ ورجل يدعى ويلسون ألن، وأنا، كنا نمشي علَى يمين فريقنا، وكنت أدرس ـ بينما كنا نمضي ـ تلك الشقوق في الصخور الناعمة المكونة من مادة تشبه الصابون، الشقوق التي جذبت انتباهنا بشدة.

كانت تلك الشقوق واسعة بما فيه الكفاية ليدخل شخص بالغ إليها دون ضغط، وتمتد أحيانا إلى نحو ثمانية عشر أو عشرين قدما في مسار مستقيم، ثم تنحدر إلى اليسار، وبارتفاع قد يصل ـ ربما ـ إلى ستين أو سبعين قدما، وهناك بعض الشجيرات التي تنمو بين الشقوق، تحمل نوعا من ثمار الجوز، والتي شعرت ببعض الفضول لفحصها، وهببت في سرعة لهذا الغرض، وجمعت خمسا أو ستًّا من ثمار الجوز، وعندما استدرت، وجدت أن بيترز وألن قد تبعونني إلى هناك، فطلبت منهما العودة مباشرة، إذ لم يكن هناك مجال للابتعاد، لكنهما صرخا قائلين: إن عليهما أن يكون لهما نصيب من هذا الجوز عندما أعود، ثم استدارا عائدين إلى القطيع.

وبينما ألن قريب من فتحة الشق، ارتجت الأرض من تحتي، وأصابني ارتجاج هز رأسي بالكامل، وجعلني أشعر بشعور لم أختبره من قبل، وإن كان عقلي قد فكر في شيء بعدها عن هذه اللحظة، فقد كانت فكرة أن أساسات كوكب الأرض الصلب المصمت، قد تمزقت إلى أشلاء تذروها الرياح.

وأنني أشهد أخيرا يوم تحطيم كل هذه الأساسات!

الفصل الحادي والعشرون

كنت متجمدا في مكاني من فرط الدهشة، وما إن استطعت أن أجمع حواسي المتفرقة حتى كدت أختنق، وأتجول في ظلام دامس بين كمية من الصخور اللينة ـ بشكل غريب ـ والتي كانت تسقط عليَّ بشدة في كل اتجاه، مهددة بدفني تماما، ومع انزعاجي الشديد من هذه الفكرة، ناضلت من أجل محاولة الوقوف علَى قدمي، ونجحت بعد عذاب شديد، ثم بقيت بلا حركة لبعض اللحظات، محاولا تصور ما حدث لي، وأين كنت.

في الوقت الحاضر سمعت أصواتا عميقة كأنها قادمة من نهاية رواق مهجور، تدوي في أذني، وبعد ذلك صوت بيترز الغليظ يناديني طلبا للمساعدة باسم الرب الرحيم، وسرعان ما تقدمت إلى الأمام خطوة أو اثنتين، ثم تعثرت وسقطت مباشرة علَى رأسي وكتفيّ رفيقي، الذي سرعان ما اكتشفت أنه دفن في كتلة لينة فضفاضة من الأرض حتى وسطه، ويناضل جاهدا لتحرير نفسه من الضغط، فرحت أحفر التراب اللين الفضفاض من حوله بكل ما أمكنني من طاقة، حتى نجحت في إخراجه.

بمجرد أن استعدنا ما يكفي من وعينا لنكون قادرين علَى التحاور بعقلانية، توصلنا إلى نتيجة مفادها أن جدران هذه الشقوق التي غمرتنا وابتلعتنا داخلها، انهارت بسبب بعض التشنج في الطبيعة حولنا، أو ربما بسبب عدم تحمل وزننا فوقها، وأنه نتيجة لذلك، فَقَدْ فُقِدَ كلانا إلى الأبد، مهما تشبثنا بحياتنا.

لقد عشنا فترة طويلة من أشد حالات العذاب واليأس والدنو من الهلاك، حال لا يمكن تخيل مدى حدتها وتأثيرها من قبل أشخاص لم يخوضوا التجارب المؤلمة نفسها، مهما وصل خيالهم أو تفكيرهم.

وأعتقد اعتقادا راسخا أنه لا يوجد أي حادث قد يحدث علَى الإطلاق في سياق الأحداث الإنسانية علَى مرِّ تاريخها يمكن أن يسبب ذلك الشعور بالضيق والاختناق واليأس مثل هذا الحادث. الوجود في مكان مجهول شديد الظلام، ظلام يحيط بنا من كل جانب، والضيق الرهيب للرئتين، والأبخرة الخانقة المتصاعدة من الصخور والأتربة، كل هذه ليست ظروف تسمح بوجود كائنات حية، بل هي بالضبط الظروف المخصصة للموتى، كأننا دفنا أحياء في هذا المكان، كأنه القبر، القبر الذي يولد في قلب الإنسان درجة من الرعب لا يمكن أبدا التعايش معها بشكل طبيعي.

واقترح بيترز ـ علَى وجه السرعة ـ أن نسعى إلى تقييم حجم مصيبتنا، وأن نحاول بأي طريقة الخروج من سجننا، وأننا لو حاولنا صعود المنحدر الناعم سنصل إلى المكان الذي سقطنا منه، فأمسكت بشدة بهذا الأمل، وحاولت اجتياز الأرض الفضفاضة اللينة، ولم أكن قد تقدمت خطوة واحدة قبل أن يصبح بصيص من الضوء قابلا للإدراك. عيوننا بدأت تستعيد طبيعتها البشرية وتعتاد علَى الموجودات من بصيص طفيف

من الضوء، كان البصيص يكفي لإقناعي بأنه لا ينبغي علينا في كل الأحوال أن نهلك علَى الفور بسبب عدم وجود الهواء، لأنه من المكان الذي يأتي الضوء منه سيتسرب الهواء أيضا.

والآن حاولنا بشجاعة التغلب علَى تلك العوائق، ومع الوقت والعزم والتحمل، وجدنا صعوبة أقل في التقدم، وتمكنا من الحصول علَى لمحة أوسع عن الأشياء الموجودة حولنا، واكتشفنا أننا قرب طرف الجزء المستقيم من الشق العملاق، وعندما وصلنا إلى قمة منحنى الصعود الصلب، ظهر شق طويل يمتد إلى أعلى بمسافة شاسعة، بزاوية حوالي خمس وأربعين درجة، وفي بعض الأحيان يكون أكثر حدة في انحداره. ولم نتمكن من رؤية مدى اتساع هذا الشق الجديد، ولكن مع سقوط قدر أكبر من الضوء من خلاله، فلم يكن عندنا أدنى شك في العثور علَى ممرٍّ إلى الهواء الطلق، هذا بالطبع إن كنا نستطيع بأي حال من الأحوال الوصول إلى قمة المنحدر.

كل هذا بفضل بعض الأمل الذي دبَّ في قلب ديرك بيترز، الرجل الذي كان له فضل كبير في بقائنا أحياء منذ ذلك التمرد علَى متن جرامبوس.

والآن انتبهنا، إلا إن هناك شيئا ليس علَى ما يرام، وأن رفيقنا ألن، لا يزال مفقودا؛ فعقدنا العزم علَى أن نبحث عنه فورا، وبعد بحث طويل صرخ بيترز بأنه أمسك قدم رفيقنا، وأن جسده كله قد دفن تحت بقايا الأتربة المنهارة بعمق، ولا يمكن إخراج جسده أبدا.

وسرعان ما وجدت أن ما قاله صحيح جدا، وأن الحياة قد خرجت من جسده تماما، لذا تركنا الجثة إلى مصيرها بقلوب حزينة، ثم شققنا طريقنا إلى المنحنى مرَّة أخرى.

ولم يكن عرض المنحدر كافيا للصعود، وبعد جهد في محاولة التسلق، بدأنا مرَّة أخرى نصاب باليأس. لقد قلت لكم أعزائي القراء من قبل أن سلسلة التلال التي يمر عبرها الممر الرئيسي كانت تتألف من نوع من الصخور الناعمة تشبه الصابون، وهي مكونات تلك المادة اللينة نفسها التي كنا نحاول الآن صعودها، مادة زلقة ورطبة للغاية ولن تمكننا من الحصول علَى موطئ قدم بها حتى في أقل الأجزاء التي تبدو سميكة فيها، وفي بعض الأماكن، كان المنحدر متعامدا تقريبا، وكانت صعوبة التسلق شديدة بطبيعة الحال، وفي الواقع كنا نظن أنه ضرب من المستحيل، ولكننا استمدينا الشجاعة من اليأس. ومن خلال قطع خطوات في الحجر الناعم بسكاكينا، ومحاولة التأرجح حتى الوصول إلى نقطة ثابتة أخرى، وبعد جهد جهيد وصلنا إلى منصة طبيعية يمكن الوقوف فوقها، والتي ترى منها ـ عندما ترفع رأسك وأنت واقف عليها ـ بقعة من السماء الزرقاء، علَى طرف الوادي.

بالنظر إلى الوراء الآن، وبعد أن أصبنا بالإنهاك الشديد، وضعفنا لدرجة أننا لم نكن قادرين علَى الوقوف أو الكلام، اقترح بيترز الآن أن نسعى لجلب أصدقائنا إلى هنا علهم يستطيعون إنقاذنا، وذلك بإطلاق المسدسات التي لا تزال مثبتة في أحزمتنا.

ولقد أثبتت الأحداث اللاحقة أننا فعلنا شيئا يجب أن نندم عليه وبشدة!

بعد أن استرحنا مدة ساعة تقريبا، دفعنا أجسادنا ببطء إلى أعلى حيث الوادي، ولم نمضِ شوطا طويلا حتى أطلق بيترز سلسلة من الصيحات الهائلة الصاخبة، فقد وصلنا إلى ما يمكن تسميته سطح

الأرض؛ فقد قمنا بالزحف بحذر شديد علَى حافة ضيقة شبه مستقيمة تفرعت من المنصة التي استرحنا عليها، حتى وصلنا إلى بقعة استطعنا أن نرى منها مشهدا واضحا لما في الخارج، مشهدا لقمم تلك التلال اللزجة الصابونية في الخارج.

لم تكن البقعة التي ننظر إليها الآن بعيدة عن أعلى قمة في سلسلة جبال الصابون، فالممر الضيق الذي مرَّ فيه طاقمنا، البالغ اثنان وثلاثون شخصا، كان علَى مسافة خمسين قدما إلى يسارنا. ولكن علَى الأقل بارتفاع مائة ياردة، كانت القناة أو قاع هذا الممر ممتلئ بالكامل بالخراب الفوضوي لأكثر من مليون طنا من التراب اللزج والحجر الذي انقطع داخلها بشكل صناعي ليس من فعل الطبيعة، حتى إن أثاره تبدو ظاهرة للعين بشدة، ويدل علَى عمل إجرامي تم في هذا المكان، وفي عدة نقاط علَى طول الجزء الشرقي من الممر ـ نحن الآن في الغرب ـ يمكن رؤية قطع من الخشب قد دفنت بالكامل في الأرض جراء الانهيار.

وعند أطراف الجرف المنهار، يمكنك أن تلاحظ بالعين المجردة تلك الأثار الناجمة عن الانهيار، والتي قد تكتشف ـ إذا دققت قليلا ـ أنها صنعت بواسطة آلة لها قمة مصنوعة من الصخور، وذلك لتعطي التأثير الطبيعي نفسه، لما قد تفعله الصخور المنهارة فوق هذا الجرف، بينما قطع الخشب المتناثرة ـ إذا أمعن النظر إليها جيدا ولأصحاب الذاكرة القوية ـ هي قطع الخشب نفسها التي كانت متناثرة علَى طول الساحل لمسافة تزيد عن ثلاثمائة ياردة عندما اقتربنا من الجزيرة، بالقرب من الخليج الذي ترسو فيه سفننا! وقد تم تثبيت أسلاك قوية من نباتات الكرم حول هذه القطع، والذي لا تزال آثاره موجودة أعلى التل، وكان من الواضح أن هذه الأسلاك كانت مربوطة أيضا بقطعة خشب أخرى

علَى الجانب الآخر من الممر.

لقد تحدثت بالفعل عن ضيق هذا الممر وطبيعة الصخور المحيطة به وطبيعة تكوين جدرانه، حتى إن أي تشنج طبيعي قد يحدث للأرض أو حتى القفز عليها بقوة عند أطراف الممر من الأعلى، سيتمكن تقريبا من تقسيم التربة إلى طبقات متعامدة أو منحدرات تجري بالتوازي مع بعضها بعضا. وبجهد فني معتدل جدا ومعرفة بطبيعة المكان، سيكون هذا كافيا لتحقيق الغرض نفسه، أن يظهر الأمر وكأنه انهيار عادي، يَدفِن أسفله تسعةً وعشرين شخصا، وبتدبير ممن؟ لا نحتاج إلى ذكاء كبير لنعرف الإجابة!

نرى الآن ذلك الانهيار الجزئي والذي تكونت فوقه الأتربة اللزجة من جديد، والذي ـ غالبا ـ ما تم عن طريق سحب البدائيين لقطع الأخشاب من قمة التل من الناحيتين، فتنتج قوة اهتزاز كبيرة تؤدي إلى تمزيق الحوائط الرملية وانهيارها علَى طول مسافة المائة ياردة، قوة قادرة علَى إلقاء وجه التل بأكمله عند إشارة معينة، ودفن كل من يقف في هذا النطاق.

لم يعد مصير رفاقنا الفقراء مسألة شك، لقد هربنا وحدنا من ذلك الدمار الساحق برحمة الرب علينا. والآن مما نراه بالأسفل، تأكدنا أننا كنا الرجال البيض الوحيدون الأحياء علَى أرض هذه الجزيرة. كما بقينا وحدنا أحياء علَى حطام جرامبوس.

الفصل الثاني والعشرون

إن وضعنا، كما يبدو الآن، لم يكن أقل سوءا مما حدث معنا عند سقوطنا في قاع الجرف، ولم نر أمامنا حلولا سوى الموت علَى يد الهمج البدائيين، أو الوقوع المزري في الأسر بينهم، لذا لا بد من أن نخفي أنفسنا لفترة من الوقت عن أعينهم بين قمم التلال أو في منصة الهوة التي خرجنا منها للتو كملاذ أخير، وساعتها إما أن نموت في الشتاء القطبي الطويل من خلال البرد والمجاعة أو أن نستطيع الوصول إلى وسيلة نصل بها إلى السفينة طلبا للعون والمساعدة من بقية الطاقم.

بدت الجزيرة كلها حولنا الآن تمتلئ بحشود من البدائيين، ويظهر لنا طرف الشاطئ الآن من هذا المكان، ولاتزال السفينة ترسو بهدوء في الخليج، ويبدو أن الذين كانوا علَى متنها لم يفهموا أي خطر ينتظرهم، وهؤلاء البدائيون يزحفون نحو قواربهم من الطرف الآخر من الخليج.

لقد تمنينا في تلك اللحظة أن نكون معهم! إما أن نساعدهم في الفرار أو أن نباد معهم في محاولة الدفاع عن جاين جاي، ولم يكن

لنا أي فرصة حتى لتحذيرهم، حتى وإن أطلقنا طلقة من مسدس في الهواء، فلن تصل لهم رسالتنا؛ إن السبيل الوحيد لسلامتهم يكمن في الخروج من الميناء والإبحار علَى الفور، ولن نتطرق في تفكيرنا لأي مبدأ من مبادئ الشرف التي بالتأكيد لم تعد تلزم هؤلاء الناس بالبقاء حتى يعود رفاقهم أحياء.

ظللنا نفكر كثيرا، لكننا أحجمنا في النهاية عن إطلاق طلقة واحدة، فلربما اكتشف هؤلاء الأوغاد مكاننا وفقدنا فرصتنا الأخيرة في النجاة، وكما قلت، مبادئ الشرف الآن لا مكان لها، فلندعو لهم أن يتدبروا أمورهم وأن ينجوا من المكيدة، أو فلنحاول بأي طريقة أن نصل لهم، علنا نجد وسيلة للنجاة جميعا!

ولتحقيق النجاح في هذه المحاولة، لا بد أن نحاول الاستيلاء علَى أحد القوارب الأربعة التي كانت على رأس الخليج ومحاولة الوصول إلى السفينة بعيدا عن أعين السكان الأصليين، ولكن استحالة النجاح في هذه المهمة اليائسة سرعان ما أصبح واضحا، فقد كانت الجزيرة تمتلئ بالسكان الأصليين الذين يزحفون الآن نحو الشاطئ، وفي الجوار القريب لنا خاصة، فإنهم يحاصرون المسار الوحيد الذي نأمل من خلاله في أن نصل إلى الشاطئ في النقطة الصحيحة لسرقة القارب، فقد تمركز كل المحاربين السود، وعلى رأسهم الزعيم تووـوت، وعلى ما يبدو ينتظرون فقط بعض التعزيزات حتى يمتطوا القوارب ويهجموا علَى جاين جاي، بينما إذا نظرنا إلى القوارب الأربعة، لوجدناها حاليا محتلة من قبل مجموعة من البدائيين، وإن كانت غير مسلحة، ولكنها بالتأكيد ليست في متناول يد رجلين مرهقين يحملان مسدسين بدائيين فقط.

ولذلك، أجبرنا، بغض النظر عن إرادتنا، علَى البقاء في مكاننا الآمن حاليا، كمجرد متفرجين في هذا الصراع الدامي، والذي حدث لاحقا.

في حوالي نصف ساعة رأينا حوالي ستين أو سبعين قاربا شبه مسطحة، مملوءة بتلك الوحوش البدائية، تبحر من الجزء الجنوبي من الميناء. وبدا أنهم لا يملكون أي أسلحة إلا قطع الأخشاب الصغيرة والحجارة التي تملأ قاع القوارب، أما القوارب الأربعة أيضا فقد امتلأت بسرعة بالمحاربين، وهكذا، في وقت أقل مما كنت قد أتوقعه ، وكما لو كان درب من دروب السحر، رأى الرجال الباقون علَى سطح جاين جاي أنفسهم محاطين بمجموعة هائلة من البدائيين العتاة عديمي الرحمة، ومن الواضح أنهم عازمين علَى احتلالها بأي ثمن.

ولا شك أن النجاح في تحقيق هذه الغاية لن يكون بالأمر محل الشك ولو للحظة، فالرجال الستة الذين تركوا في السفينة ـ بغض النظر عن تصميمهم ورغبتهم في الدفاع عنها ـ كانوا غير متكافئين تماما مع هذه الأعداد المهولة، ومهما استخدموا البنادق فلن يقهروا سكان الجزيرة بأكملهم.

لم أكن أتخيل أنهم سيقاومون علَى الإطلاق، ولكن خدعت في هذا الأمر وقدرتهم غير تقديرهم؛ لأني أراهم في الوقت الحاضر يحتمون بألواح النحاس علَى جوانب القارب، ويطلقون الطلقات والمدافع ذات الكرات ناحية القوارب، لكن دون تحقيق أي نجاح أو إحداث أي إصابة بالغة بأي من الزوارق، وأنا من مكمني أكاد أصرخ بأعلى صوتي: «اهربوا الآن أيها الأغبياء، ارفعوا المرساة وارحلوا من هنا ولا تكترثوا لأمرنا».

ثم بدأوا في استخدام المدافع الثقيلة علَى جانبي السفينة.

نتيجة ليست بالسيئة، فقد مزقت طلقات المدافع سبعة أو ثمانية من القوارب إلى أشلاء، وقتلت ربما ثلاثين أو أربعين من المهاجمين المتوحشين، بينما ألقت مائة منهم علَى الأقل في الماء، معظمهم مصابون بجروح مخيفة، وبدأ الباقون في التراجع علَى الفور، ولم ينتظروا حتى التقاط رفاقهم المشوهين، الذين كانوا يسبحون في كل اتجاه، ويصرخون طلبا للمساعدة، ولكن هذا النجاح العظيم جاء متأخرا جدا، فقد كان فريق من المحاربين قد وصل بالفعل إلى السفينة، حتى وصل عدد البدائيين الذين يهاجمونها إلى أكثر من مائة وخمسين، وقد نجح معظمهم في تسلق السلاسل، وبدا أن لا شيء يستطيع الآن أن يتحمل غضبهم الغاشم. كان رجالنا الآن في مرمى رماحهم وحجارتهم، يداسون بالأقدام ويمزقون إلى أشلاء في لحظات قصيرة.

وبرؤية هذا، استعاد المتوحشون علَى القوارب قدرتهم في التغلب علَى مخاوفهم، وصعدوا إلى سطح السفينة الآن، وفي غضون خمس دقائق كانت جاين مسرحا سيئا حقا للفوضى والغضب الصاخب. كانت ألواح السطح مقسمة ومحطمة، وهدمت الصواري ومزقت الأشرعة وكل ما يمكن أن يكون علَى ظهر السفينة تحول إلى خراب، وكأنه السحر الأسود كلون وجوه وأسنان هؤلاء المتوحشين، بينما من خلال دفع السفينة بمئات القوارب، سلمت السفينة إلى الشاطئ، وبينما تووت يراقب ما يحدث طوال فترة الغزو مثل الجنرال الماهر، علَى موقعه الأمني والاستطلاعي بين التلال، ولكنه الآن ـ بعد أن اكتمل له النصر ـ بدا راضيا مبتسما منفرج الأسارير، ونزل إلى الغنيمة مع محاربيه من ذوي البشرة السوداء، وأصبح شريكا في الغنائم.

بينما علَى جانبنا، فلقد منحنا نزول تووـوت الحرية لنترك مكان اختبائنا ونحاول إيجاد طريق علَى التل القريب من الهوة، وعلى بعد خمسين ياردة تقريبا من فمها رأينا نبعا صغيرا من الماء، حيث ذبحنا العطش المحترق في أحشائنا، فشربنا حتى ارتوينا، ووجدنا العديد من الأشجار التي تشبه الجوز، وكان طعمها ليس بعيدا عن الجوز الذي عهدناه في بلادنا.

لذا، فجمعنا كمية كبيرة علَى الفور، وأودعناها في مكان الاختباء في الوادي، ورجعنا للمزيد. وبينما كنا نشتغل في جمع هذه الأشياء، أزعجنا صوت حفيف في الأدغال، ثم حلق طائر أسود كبير من فصيلة الوقواق ببطء شديد فوق الشجيرات.

كنت مندهشا جدا لدرجة أنني لا أستطيع فعل شيء، لكن بيترز كان لديه ما يكفي من العقل والحكمة ليركض إلى الأمام باتجاه الطائر قبل أن يتمكن من الهرب، ويحزه من الرقبة في مرونة وسرعة.

كان ارتجافه وصراخه هائلين، لكنه قضى نحبه دون أن ينبه صراخه البدائيين المحتفلين علَى الشاطئ، وسحبناه إلى الوادي، مهنئين أنفسنا لأننا حصلنا علَى كمية من الطعام تكفي مدة أسبوع علَى الأقل.

وخرجنا الآن مرَّة أخرى لاستكشاف المكان، وتعمقنا بمسافة كبيرة من أسفل الميل الجنوبي للتل، لكننا لم نلتقي بأي شيء آخر يمكن أن ينفعنا للغذاء. لذلك جمعنا كمية من الخشب الجاف، وأثناء عودتنا إلى مخبأنا كنا نرى جحافل السكان الأصليين بجوار التل يعودون إلى القرية محملين بالغنائم من أثر غزو جاين جاي.

كان اهتمامنا التالي هو جعل مكاننا آمنا قدر الإمكان، ولهذا الغرض

رفعنا بعضا من الأحجار علَى الفتحة التي سبق أن رأينا من خلالها رقعة السماء الزرقاء، وللوصول إلى المنصة ـ مكان اختبائنا ـ من داخل الصدع، لم نترك سوى فتحة صغيرة جدا، تتسع بما يكفي فقط كي نلج منها ونستطيع مشاهدة ما يحدث عند الخليج، دون أن نُكتشف من الأسفل.

ومن خلال الفتحة، رأينا البدائيين وقد أنهوا بالفعل تحطيم السفينة بالكامل، وهم يستعدون الآن لإضرام النار فيها، وخلال فترة وجيزة رأينا الدخان يتصاعد في أحجام ضخمة، وبعد ذلك بوقت قصير، انفجرت كتلة كثيفة من اللهب من علَى متن السفينة، وسرعان ما انتشر الحريق بسرعة علَى طول ألواحها.

ومع ذلك، فقد احتفظ عددٌ كبيرٌ من المتوحشين بمراكزهم حولها، يرجمونها بالحجارة كأنها الشياطين، وبعد فترة ليست بالكبيرة راحت النيران تنتشر في الأخشاب كلها وقطع الحديد والنحاس، وراحت السلاسل تذوب، وبينما نتوقع أنا وبيترز حدوث الكارثة ـ أو لنقل نتمنى حدوثها ـ عندما تصل النيران إلى براميل النفط أو إلى الخزان الرئيسي، جاء الارتجاج في غضب تام، حتى أننا سقطنا بعنف علَى المنصة، في حين رددت التلالُ الصدى وصوت الضجيج، وغمرنا بكمية كثيفة من الأجزاء الصغيرة من الأنقاض، والتراب يثور في كل اتجاه حولنا.

وكانت النتيجة كارثة كاملة الأركان بين الهمجيين البدائيين، تجاوزت إلى حد بعيد توقعاتنا القصوى، وقد حصدوا الآن بالفعل ثمار خيانتهم الكاملة.

ربما لقي ألف شخص منهم حتفهم جراء الانفجار، في حين تعرض عدد مماثل علَى الأقل لضربات موجعة. كان سطح الخليج بأكمله مغطى

بالحريق والجثث، وكانت الأمور علَى الشاطئ أسوأ، وبدا أنهم يشعرون بالفزع التام إزاء ما حدث، حتى إن الفرد منهم كان يركض علَى غير هدى، ولم يبذل أي جهد لمساعدة الآخرين.

وفجأة، ازدادت دهشتنا مما يحدث، فلقد شهدنا تغيرا كاملا في سلوكهم، من الغباء المطلق، إلى التجمع والتنظيم من جديد، وهرعوا إلى نقطة معينة علَى الشاطئ، مع أغرب علامات الرعب والغضب والفضول الشديد التي ترتسم علَى أعينهم، ويصيحون بأعلى صوت لديهم: تيكيلي لي! تيكيلي لي!

ثم رأينا جسما كبيرا يتحرك فوق قطع الخشب الملقاة علَى الشاطئ، والمزيد منهم يذهبون ويعودون بالخشب، ولاحظنا شيئا أبيضَ مستلق علَى الأرض، لكن لم نستطع أن نستوضح ما هو فورا. وبإمعان النظر رأينا أنه كان جثة الحيوان الغريب ذي الأسنان القرمزية والمخالب، الذي التقطناه من البحر في الثامن عشر من يناير.

كان الكابتن جاي قد أمر بحفظ الجثة بغرض سلخ الجلد ونقله إلى إنجلترا، أتذكر أنه أعطى بعض التوجيهات عن ذلك قبل أن نقوم بالنزول علَى الجزيرة، وقتها تم جلبها إلى المقصورة وتم وضعها في إحدى الخزائن. والآن ألقى بها الانفجارُ علَى الشاطئ؛ ولكن سبب هذا القلق الشديد بين البدائيين كان أكثر مما كنا نستطيع فهمه.

وفي دقائق بسيطة، اجتمع كل من كان علَى الجزيرة وهم يهرعون في توتر ورعب، حتى وصلوا إلى مكان الجثة، وراحوا من جديد يصرخون بأصوات صاخبة:

تيكيلي لي! تيكيلي لي!!!

الفصل الثالث والعشرون

خلال الستة أو السبعة أيام التي تلت مباشرة هذه الحادثة، بقينا في مخبأنا علَى التل، نخرج من حين لآخر، مع أكبر قدر من الحيطة؛ من أجل الماء أو قضاء الحاجة.

لقد قمنا بصنع بيت بسيط علَى المنصة، حيث قمنا بتزويده بسرير من الأوراق الجافة، ووضعنا فيه ثلاثة أحجار مسطحة كبيرة، والتي كانت تساعدنا علَى تناول طعامنا كأنها المائدة، كما أضرمنا نارا ـ دون صعوبة ـ بفرك قطعتين من الخشب الجاف معا، إحداهما ناعمة والأخرى صلبة، وكان الطائر الذي أخذناه يمثل مصدرا غذائيا ممتازا، بالرغم من أنه قاسي اللحم بعض الشيء؛ لأنه لم يكن داجنا. وبعد ذلك رأينا ثلاثة من النوع نفسه في المنطقة المجاورة للوادي، ويبدو أنهم يبحثون عن رفيقهم الذي اصطدناه؛ فحاولنا اصطياد أحدهم، ولكن لم تسنح لنا الفرصة قط.

ثم استهلكنا المواد التي لدينا بالكامل، لحم الطير وكل حبات الجوز التي استطعنا التقاطها، وأصبح من الضروري تماما أن نبحث عن

الطعام، فهواجس الجوع بدأت تهاجمنا في نهاية اليوم السابع.

ثم تذكرنا أمرا؛ فلقد شاهدنا العديد من السلاحف الكبيرة بالقرب من شاطئ البحر باتجاه الشرق من التل، وتعلمنا من السكان أنها قد تؤخذ بسهولة، فإذا استطعنا الوصول إليها دون مراقبة السكان الأصليين، ستوفر مصدرا جيدا للطعام، ولذلك، تقرر القيام بمحاولة للنزول.

لذا بدأنا بالرجوع إلى أسفل الميل الجنوبي، الذي بدا وكأنه يقدم لنا حلا أقل خطورة من غيره بسبب بعده عن قرية البدائيين، ولكننا لم نمضِ قدما أكثر من مائة ياردة، حتى حوصرنا من قبل الانهيار الذي دفن فيه رفاقنا.

حاولنا من خلال الحافة الأخرى، ولم يمضِ ربع ميل علَى تحركنا، عندما توقفنا مرَّة أخرى بسبب جرف هائل العمق، ولم نتمكن من شق طريقنا علَى حافة الهاوية لضيق وخطورة المسافة المتاحة، لذا فقد اضطررنا إلى النزول من الوادي الرئيسي، محاولين أخذ كل الإجراءات التي تضمن سلامتنا.

اتجهنا إلى الشرق، ولكن مع الحظ العاثر نفسه للأسف.

وبعد ساعة من التخبط ومحاولة النزول تحت خطر كسر أعناقنا، اكتشفنا أننا نزلنا إلى حفرة واسعة ذات جوانب من الجرانيت الأسود، مكسوة بغبار دقيق في القاع، ليس لها أي مداخل سوى المدخل الوحيد الذي نزلنا فيه، ولا مخارج لها.

والآن، جربنا الحافة الشمالية من التل، وهنا اضطررنا إلى استخدام أكبر قدر ممكن من الحذر في تحركاتنا، لأن أقل قدر من عدم الحذر قد يجعلنا مكشوفين تماما من هذا الارتفاع لكل سكان الجزيرة البدائيين، ويعرضنا للتمزيق إربا بين أيديهم.

ولذلك زحفنا علَى أيدينا وركبتنا، وأحيانا أُجبرنا علَى التدحرج أو الزحف كالزواحف، وبهذه الطريقة الحريصة كنا قد تقدمنا ولكن لياردات قليلة، عندما وصلنا لحظتها إلى هوة أعمق بكثير من أي شيء شهدناه حتى الآن في هذه الجزيرة، وتقود مباشرة إلى المدخل الرئيسي لممر التلال ذي الصخور الصابونية، وهكذا تأكدت مخاوفنا ووجدنا أنفسنا معزولين تماما.

ولأننا كنا منهكين نافذي الطاقة، فقد بذلنا قصارى جهدنا للعودة إلى المنصة حيث نختبئ، واستلقينا فوق فراش الأوراق الجافة ونمنا عدة ساعات بلا أحلام أو توتر، علَى الأقل كي نُصفي أذهاننا لنقدر علَى البحث عن أي حل لمعضلة الخروج من هنا.

ولأيام عديدة بعد هذه المحاولات غير المثمرة، رحنا نستكشف كل جزء من قمة التل، علَى الأقل حتى نكتشف الموارد المتاحة لدينا والتي ستشكل المدة التي يمكننا البقاء فيها هنا، ووجدنا أنها لن توفر لنا أي طعام، باستثناء أنواع من العشب القصير الذي نما في رقعة صغيرة لا تزيد عن أربعة أقدام مربعة، وسوف يستنزف قريبا.

وفي الخامس عشر من فبراير، نفذ لحم الطير تماما، وكل حبات الجوز، وبدأت الأعشاب تندر؛ ولذلك، فإن وضعنا لا يمكن أن يكون أكثر مدعاة للقلق مما هو عليه الآن، لذا وفي السادس عشر، ذهبنا مرَّة أخرى لاستكشاف وسيلة للهروب، حتى أننا نزلنا بالقرب من الممر الذي انهار وتسبب في سقوطنا في تلك الهوة، لكن بلا أي وسيلة للخروج قد تبدو واضحة لنا.

ثم جاء اليوم السابع عشر من الشهر، وهو يوم سأظل أتذكره ما حييت، أكثر من أي يوم مرَّ عليَّ قبله.

ففي السابع عشر، نزلنا من جديد إلى الحفرة ذات الجرانيت الأسود، لنفحصها بشكل أكثر شمولا، وهذه المرَّة لاحظنا أن أحد الصدوع في جوانب هذه الحفرة يمكن النظر منه جزئيا إلى ممرٍّ داخلها، لذا فقد كنا حريصين علَى استكشافه، حتى مع يقيننا من أننا لن نعثر علَى شيء خلفه، وأن الطرق مسدودة أو خطرة، في كل اتجاه.

لم نجد صعوبة كبيرة في الوصول إلى أسفل الحفرة كما كان من قبل، وكنا الآن هادئين بما فيه الكفاية لفحص الحفرة ببعض الدقة والانتباه.

لقد كانت بالفعل واحدة من أكثر الأماكن الفريدة من نوعها، والتي لم أرَ مثلها في حياتي، ولم يكن بوسعنا أن نصدق تماما أنها من عمل الطبيعة.

كان طول الجرف من شرقه إلى غربه حوالي خمسمائة ياردة، والمسافة من الشرق إلى الغرب في خط مستقيم ليست أكثر من أربعين أو خمسين ياردة ـ حسبما أفترض؛ فليس عندي وسيلة قياس دقيقة ـ وعند النزول إلى الهوة بسهولة فوق أطراف حجارة الجرانيت، أي علَى بعد مئات الأقدام من قمة التل، والوصول إلى قاع الجرف، كان جانبي الجرف يبدوان كأنهما حائطين منفصلين وضعا إلى جوار بعضهما بعضا، ويبدو أنهما لم يكونا مرتبطين في أي وقت ككيان واحد، أحد الجوانب كان من نوعية السطح الصابوني الزلق وآخر من الحجر الجيري الطباشيري المختلط ببعض المواد المعدنية من حجم متوسط، وكان الفاصل بين الجانبين ستون قدما، لكن يبدو أنه لا يوجد انتظام في التشكيل الحجري، ومع ذلك، وبعد المشي بضع ياردات انكمش الممر داخل الجرف، وبدا الجانبان متوازيان، علَى الرغم من أنهما لا يزالان غير متماثلين في المادة المكونة أو شكل السطح، وعند الوصول إلى مسافة خمسين قدما من بداية القاع، بدا الجانبان في انتظام كامل ومتجانسان تماما في المادة المشكلة

وفي الألوان، يتشكلان من جرانيت لامع أسود، والمسافة بين الجانبين، في جميع النقاط التي تواجه بعضهما بعضا، هي عشرون ياردة بالضبط، ولحسن حظي كان معي مفكرتي الصغيرة وقلمي الرصاص، واللذان حافظت عليهما بحرص شديد خلال هذه السلسلة الطويلة من المغامرات والأحداث، والتي لولا مفكرتي الصغيرة، لكانت ضاعت وانمحت من ذاكرتي إلى الأبد، أو بدت كأطياف مما يراه النائم في أول نومه بين الأحلام والحقيقة.

يعطي الرسم الكروكي رقم (١) أدناه مسقطا أفقيا يبين شكل الجرف، دون التجاويف الصغيرة في الجانبين، والتي كانت كثيرة العدد، وكل تجويف له مقابل في الجانب الآخر من الجرف.

الرسم رقم (١)

كان قاع الجرف مغطى بمسحوق غريب بعمق ثلاث أو أربع

بوصات، ووجدنا من تحته الجرانيت الأسود نفسه، بينما إلى اليمين، عند الطرف السفلي، لاحظنا ظهور فتحة صغيرة تشبه الصدع الذي ألمحت إليه أعلاه، لذا قمنا بمحاولة توسعته، وقطعنا كمية كبيرة من الحجر الأسود، وأزلنا كومة هائلة من حجر الصوان الحاد، تشبه رؤوس الأسهم بشكل ما، حتى رأينا ضوءًا يأتي في النهاية عبر الفتحة الموسعة.

وجدنا أنفسنا في طريق من الجرانيت الأسود نفسه، ومشينا فيه مطولا نحو ثلاثين قدما، فوجدنا أن هذا الممر الجديد كان يشبه قوسا منخفض الشكل، بشكل منتظم، وله قاع ممتلئ من المسحوق نفسه الذي في الجرف الرئيسي، ثم سطع علينا ضوء قوي، ووجدنا أنفسنا، بعد مسافة قصيرة، في جرف ضيق آخر، يشبه الذي خرجنا منه من كل جوانبه، ولكن في شكل حاد مثل الرسم رقم (٢) أدناه.

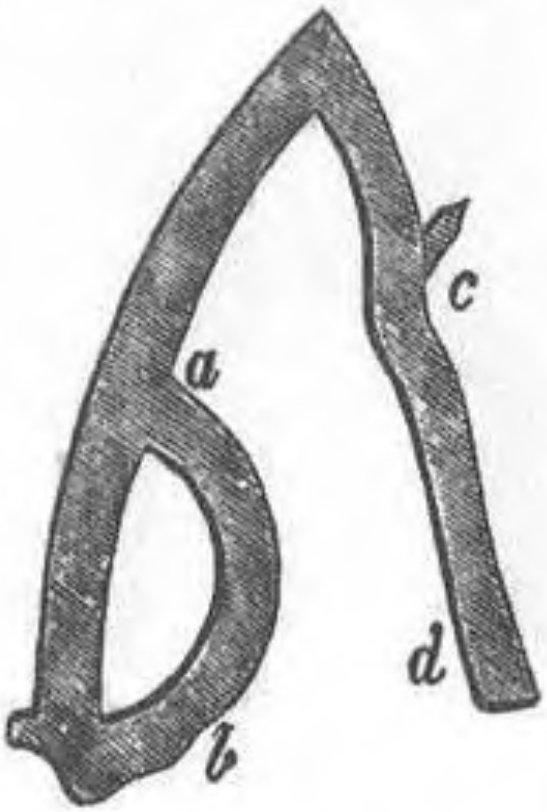

الرسم رقم (٢)

ويبلغ الطول الإجمالي لهذا الجرف ـ والذي يبدأ عند الافتتاح (a) ويسير حول المنحنى (b) إلى الطرف الأقصي (d) ـ خمسمائة وخمسين ياردة.

الرسم رقم (٣)

في البروز عند الشكل (c) اكتشفنا فتحة صغيرة تشبه تلك التي دخلنا من خلالها من الجرف الرئيسي إلى هذا الجرف الفرعي، وكانت مسدودة ومضيقة بالطريقة نفسها من الحجر الأسود وكمية من حجر الصوان ذي الرأس الشبيه بالسهم واللون الأبيض، وبعد أن شققنا طريقنا من خلالها، وجدنا جرفا ثالثا بطول أربعين قدما، إلا إن هيئته الطولية كانت كما الرسم رقم (٣).

وجدنا أن طول الجرف الثالث يبلغ تقريبا ثلثمائة وعشرين ياردة، وفي تلك البقعة كانت الفتحة علَى ارتفاع ستة أقدام، وتمتد طولا لخمسة عشر قدما داخل الصخرة، وتنتهي بمجموعة من الانحناءات مثل سابقيها، كما توقعنا.

كنا علَى وشك ترك هذا الجرف، عندما لفت بيترز انتباهي إلى مجموعة من العلامات ذات المظهر المتفرد علَى سطح الحجر في نهاية الجرف الثالث،

ومع إطلاق بسيط جدا للخيال، يمكن أن ترى تمثيل شخصية بشرية واقفة، بذراع ممدودة، وبعض الشروخ أو العلامات التي لا يمكن أن تكون ـ من وجهة نظري ـ من صنع البشر، وأنها بالتأكيد أشياء من صنع الطبيعة ولا تنتمي إلى أي أبجدية معروفة، بينما كان بيترز يخالفني الرأي تماما، وراح يحاول تبرير وجهة نظره من أن هذه الأشكال ما هي إلا أبجدية قديمة توحي بكلمات من صنع البشر!!

رحت أقنعه بسذاجة نظريته وبخطأها، وأن ما يقوله هو درب من دروب الخيال ليس إلا، وربما خرافات من أثار الجوع والعطش.

لفت انتباهنا وقتها لمعان في قاع الجرف بين المسحوق الغريب، فالتقطنا قطعة بقطعة، عدة قطع كبيرة من شيء يشبه اللؤلؤ، التي كان من الواضح أنها قد كسرت من مكان تلك النقوش المزعومة أثناء انهيار أرضي أو شيئا من هذا القبيل؛ وهكذا تثبت نظريتي علَى أنها كانت عمل خالص للطبيعة.

الرسم رقم (٤) يوضح تصورا كاملا لهذه النقوش أو التصدعات

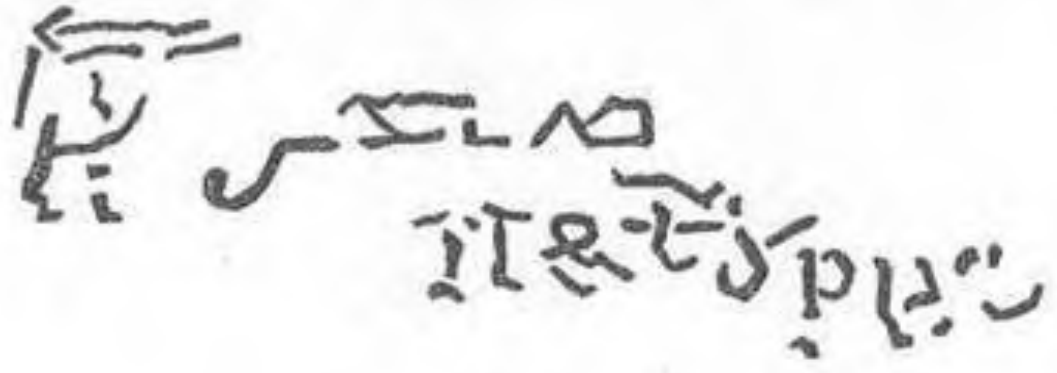

الرسم رقم (٤)

وبعد أن تأكدنا أن هذه الأجراف مجتمعة، لا تمنحنا أي وسيلة

للهروب من سجننا، عدنا إلى قمة التل ومنه إلى مخبأنا داخل المنصة القابعة بين التلال.

لم يحدث شيء جدير بالذكر خلال الساعات الأربع والعشرين التالية، إلا إننا عند دراسة الأرض من جديد ناحية الشرق من الجرف الثالث عند النقطة ((a، وجدنا ثقبين مثلثين ذوي عمق عظيم من جانب الجرانيت الأسود، وفي هذه الثقوب لم نرَ أي منفذ للهرب أو الخروج، بل إنها كانت تبدو مجرد آبار طبيعية، دون أي منفذ، وكان كل منها علَى بعد عشرين ياردة من محيطه، ويظهر شكلها، فضلا عن وضعها النسبي فيما يتعلق بالجرف الثالث في الرسم رقم (٥).

الرسم رقم (٥)

الفصل الرابع والعشرون

في اليوم العشرين من الشهر، وجدنا أنه من المستحيل تماما أن يكون الوضع أسوأ من الآن، وأنه مهما حدث فسيكون ذلك أفضل من الموت محبوسين هنا كالفئران، فعقدنا العزم علَى القيام بمحاولة يائسة للنزول من الجزء الجنوبي إلى المنحدر الجنوبي للتل.

وكان وجه التل هنا من أنعم المناطق المغطاة بالحجر الصابوني، وفي اتجاه عمودي تقريبا في كامل عمقه، البالغ حوالي مائة وخمسين قدما علَى الأقل.

وبعد بحث طويل اكتشفنا حافة ضيقة علَى بعد عشرين قدما أسفل حافة الهاوية الجرانيتية، واستطاع بيترز أن ينزل إلى طرف هذه الحافة بصعوبة بالغة، وبصعوبة أكبر، نزلت أيضا، ورأينا بعد ذلك إمكانية التداعي ـ عكس التسلق ـ علَى طول الطريق من خلال الطريقة نفسها التي اتبعناها في تسلق ذلك الحائط الصابوني عندما انهار التل من تحتنا، وذلك بصنع خطوات في سطح الصابون بسكاكينا.

ولا يمكن تصور الخطر الشديد الذي تنطوي عليه هذه المحاولة؛

ولكن نظرا لعدم وجود حل آخر، فقد عقدنا العزم علَى القيام بها أيا كانت النتائج.

على الحافة حيث نقف هناك تنمو بعض الشجيرات، وفي واحدة من هذه الشجيرات صنعنا بسرعة حبلا من المناديل والقمصان. طرف مربوط بالشجرة والطرف الآخر مربوطا حول خصر بيترز، وقمت بإنزاله إلى حافة الهاوية حتى كان الحبل المصنوع ممدودا، ثم شرع الآن في حفر حفرة عميقة في الصابون في الحجر الصابوني تبلغ ثماني بوصات من العمق، ثم غرس مسدسه من فوهته في الصخرة إلى ارتفاع قدم، أو إلى أعلى من ذلك؛ لكي يسمح له بالتمسك أثناء النزول، ثم مددت جزعي أربعة أقدام تقريبا لإنزال بيترز قليلا، فصنع فتحة مماثلة للفتحة التي صنعها، وغرس المسدس من جديد بقوة بعد أن نزل.

والآن قمت بفك الحبل العشوائي من الشجيرة مربوطا بعدة أغصان، وقذفته ناحيته بحرص، فغرز الغصن في الفتحة القديمة في مكان يمكن أن يكون محطة جديدة، ثم وصل بجسده إلى أقصى مدى يمكن أن يصله الحبل، هنا حفر ثقبا آخر، وغرز غصنا جديدا رابطا فيه الحبل، ثم أنزل جسده قليلا، وربطه من جديد محاولا ألا يتأرجح جسده أو تنزلق يداه من داخل الحفر الصابونية، أو ينخلع الغصن من مكان تثبيته، وبهذه الوسائل ـ التي لم تكن لتخطر علَى بالي قط ـ التي كنا مدينين بها بالكامل لبراعة بيترز ومهارته في التسلق، نجح أخيرا في الوصول إلى القاع، سليما بلا أي حوادث.

مرَّ وقتٌ ليس بالقليل قبل أن أستطيع أن أتخذ قراري بمتابعته؛ وبعد ربط قمصاننا ومناديلنا وكل ما نملك من ثياب عدا البناطيل القماشية، ربطت الحبل بالشجيرات، وأسرعت إلى النزول مستخدما الفتحات نفسها التي صنعها بيترز داخل الحجر الصابوني، نزلت مسرعا وأنا

ألهث، مجاهدا لتهدئة الهلع الذي لم أستطع التغلب عليه، وكان هذا التصرف الأخرق مناسبا للخطوات الأربع أو الخمس الأولى؛ لكنني وجدت في الوقت الحاضر أن خيالي يعبث مع عقلي، ويظل يرسم صورا للعمق الشاسع الذي لم أصل له بعد، وصورا لتلك الطبيعة غير المستقرة للأقمصة الصوفية والمناديل القطنية، وأفرع الشجر الضعيفة، والتي كانت داعمي الوحيد في هذه المحاولة الانتحارية. سعيت عبثا إلى إبعاد هذه الخيالات والصور المرعبة عن عقلي، وإبقاء عيني مثبتة أمامي أو تنظر إلى سطح الهاوية، وكلما ناضلت بجدية أكثر لعدم التفكير، أصبحت أشعر بارتياح أكثر وعزيمة أقوى.

لكن الخيال المريض، والخوف، والهلع الذي راح يبسط أشرعته فوق سفينة عزيمتي، زاد من الضغط علَى أعصابي الموشكة علَى الانهيار، ورحت أتخيل لحظات الإفلات، ثم التأرجح ثم السقوط متدحرجا، والكفاح كي أتمسك بأي شيء ثم السقوط في قلب الهاوية جثة هامدة.

والآن، أصبحت هذه الأوهام والخيالات قادرة علَى أن تخلق واقعها، شعرت بركبتيّ ترتجفان بعنف معا، بينما كانت أصابعي تخفف من قبضتها علَى الحبل، ورنين في أذني كأنه ألف جرس لألف كنيسة، همست لنفسي مستسلما: «هذه هي لحظات الدنو من الموت!».

والآن غالبتْ عقلي خيالاتي، وشرعت في النظر إلى الأسفل، ولحظتها لم أستطع أن أمنع ذلك الرعب الوحشي الذي يجتاح وعيي، وبعيني تحولت كل رؤيتي إلى الهاوية، للحظة من اللحظات، كانت أصابعي تتشنج علَى الحبل، وبدأت أشعر بأنني كالظل، وكانت تنتشر في روحي تلك الرغبة العارمة بترك نفسي حرَّة طليقة نحو السقوط؛ تلك الرغبة: الشوق، الشغف، اللذان لا يمكن التحكم بهما تماما.

تركت نفسي الآن، يداي ترتخيان عن الحبل، وجسدي يتأرجح

صادما الحائط ذي الحجر الصابوني، وعيناي مغمضتان، وأنفاسي تتسارع مع ضربات قلبي الذي يدق كموسيقى الطبول العسكرية، والتف جسدي نصف دورة في الهواء، وأنا أسمع صوتا جافا صلبا يصرخ عليَّ من بين خيالاتي، صوت يأتي من قاع هوة كالتي أسقط فيها الآن، ثم أشعر بذراعين قويتين تتلقفاني وبتسارع السقوط يخف، كأن يدي الشيطان تتلقفاني علَى بوابة حفرة الجحيم، وفقدت وعي والصوت الرخيم يصرخ فيَّ من جديد.

لم تكن ذراعا شيطان، وإنما ذراعا ذلك البحار الذي لا زلت أدين له بالكثير والكثير، فقد أمسك بي بيترز عندما سقطت.

لاحظ بيترز طريقتي في النزول وهو قابع في مكانه في قاع الهوة؛ وبعد أن أدرك الخطر الوشيك وأنني بدأت أضعف وأستسلم لفكرة السقوط، فقد سعى جاهدا إلى الصراخ فيَّ بشجاعة؛ لكي أحاول التماسك. ومع أن تخبطي كان عظيما إلى حد منعي من سماع توجيهاته، وعندما رآني أترك الحبل وأوشك علَى السقوط، أسرع إلى نقطة النزول التالية لإنقاذي، وبفضل مهارته في التسلق كقرود البابون، وصل في الوقت المناسب؛ لكي يمسك بي وأنا موشك علَى السقوط.

نزل بي بهدوء وروية محاولا استخدام يد واحدة، وعندما وضع جسدي الفاقد للوعي علَى أرضية قاع الهاوية، تلاشى خوفي تماما. شعرت بأنني ولدت من جديد، وأن لي حياة أخرى لا يزال مقدرا لي أن أعيشها.

تسلق بيترز بضع خطوات حتى منتصف المسافة، وكأنه أصبح معتادا علَى هذا المسار الخطير، وسحب الحبل المصنوع من القمصان، فارتدينا قمصاننا ودبت الحياة من جديد في أوصالنا الغارقة في عرق التعب.

والآن لم نجد أنفسنا بعيدين عن الوادي الذي أصبح قبر رفقائنا

بعد انهيار التل فوقهم، حيث المكان يعد واحدا من الأماكن الفريدة التي يمكن رؤيتها، وجوانبه وحوائطه أعادت إلى بالي الأوصاف التي قدمها المسافرون إلى تلك المناطق التي تشرف علَى موقع حطام بابل المندثرة، فسطح الأرض في كل اتجاه مغروس فيه ما يبدو كأنه حائط ضخم، كأنه حطام بعض الهياكل الفنية الضخمة، علَى الرغم من أنه لا يمكن ملاحظة أي مظهر واضح من مظاهر الفن بها، فقد كانت كالكتل الكبيرة من الجرانيت الأسود، مختلطة مع غيرها من البازلت والحجر الجيري، وبها بعض القطع المعدنية الغريبة، ولا توجد أي آثار علَى الإطلاق لأي نباتات ـ على عكس أغلب مناطق الجزيرة ـ في جميع أنحاء هذه المنطقة المقفرة التي تقع في الأفق، كما شاهدنا عدة عقارب كبيرة الحجم والعديد من الزواحف التي لا توجد في أي مكان آخر في هكذا دوائر عرض، لا شيء يدل علَى أي علامات تمت للقطب الجنوبي بصلة!!

بازلت أسود، ومجرى مياه أسود، وبشرات وأسنان سوداء، حتى الحجر الجيري لونه أقرب إلى الأسود.

لماذا لا توجد ألوان فاتحة أو بيضاء علَى هذه الجزيرة؟!

وبما أن الطعام هو قمة اهتمامنا الآن، فقد عزمنا علَى شق طريقنا إلى شاطئ البحر، بعيدا عن مسافة لا تزيد عن نصف ميل، مع صيد إحدى السلاحف المنتشرة، والتي لاحظنا العديد منها من مكان اختفائنا علَى التل، تمشى في هدوء علَى شاطئ البحر.

قطعنا حوالي مئات الياردات، وقمنا بحذر بالمشي في طريقنا بين الصخور الضخمة، وعند الدوران في إحدى الزوايا، قطع طريقنا خمسة من البدائيين خرجوا من داخل كهف صغير، وقذف أحدهم بيترز إلى الأرض بضربة من عصا خشبية سميكة كان يحملها، ثم هجم عليه

الآخر بأحد الرماح واشتبكوا في مشاجرة يدوية.

هرعت نحو بيترز، إلا إنني لم أحاول الاشتباك يدويا معهم، مفضلا الثقة بمسدسي الذي حافظت عليه بعناية، لذا فقد أخرجته ملوحا به، فهاجمني أحدهم غير عابئ، فأطلقت النار عليهم أرديهم صرعى واحدا تلو الآخر بسرعة، فقفز الذي كان يتصارع مع بيترز علَى قدميه محاولا الهجوم عليَّ، ليعطيه فرصة سانحة كي ينهض مسرعا ويجندل أحد البدائيين مستخدما رمحه المصادر.

أطلقت النار من جديد، فسقط المهاجم صريعا، بينما بيترز ينهي حياة آخرهم بضربة محكمة من الرمح، في الواقع لم يكن بيترز يحتاج لمسدسه، فهو يمتلك ثقة كبيرة وشجاعة مفرطة وإقداما عاليا علَى الصراعات اليدوية، من واقع بيئته الصعبة التي تربى بها، وتقاليد قومه سكان الولايات الأصليين.

كنا الآن نقف فوق جثث الموتى في نوع من التأمل غير مصدقين أننا أنهينا الأمر بهذه السرعة، عندما تناهى إلى أسماعنا صوت الصيحات الغاضبة القادمة من بعيد، فقد كان من الواضح أن البدائيين قد انزعجوا بسبب صوت إطلاق النار، وأن فرصتنا الآن أصبحت ضئيلة لتجنب اكتشاف أمرنا، ولكي يتسنى لنا أن نعود إلى الهاوية لنختبئ بين الحوائط الحجرية السوداء، فسوف يكون من الضروري أن نمر في اتجاه قريب من القرية. وحتى لو نجحنا في الوصول إليها، فلن نقدر علَى الاختباء كثيرا، ومع استبعاد حل الصعود من جديد إلى قمة التل، فقد كان وضعنا في غاية الخطورة، وكنا مترددين في أي طريق نتخذه الآن، عندما ـ وفجأة ـ نهض أحد البدائيين الذين أطلقت النار عليهم غارقا في دمائه ـ والذي من المفترض أن يكون ميتا ـ واندفع مسرعا علَى قدميه محاولا الهرب. لكننا لحقنا به قبل أن يتقدم بعدة خطوات، وكنا علَى وشك أن

نقتله نهائيا، عندما اقترح بيترز أننا قد نجد بعض الفائدة من إجباره علَى مرافقتنا في محاولتنا للهروب.

لذلك فقد سحبناه معنا، وأوضحنا له بلغة الإشارة أننا سنطلق النار عليه إذا قاوم، وفي بضع دقائق كان خانعا تماما، ومشى معنا مسرعا ناحية شاطئ البحر.

وعندما وصلنا إلى الشاطئ، هلعنا مما شاهدناه أمامنا الآن، فقد كان حشدا من البدائيين يتجمعون منطلقين نحو الشاطئ، وهم في حالٍ من الغضب الشديد والذعر مثل الوحوش البرية.

كنا عند نقطة فكرنا فيها في تحويل خطواتنا للخلف، ونحاول أن نتراجع الآن داخل الأحراش والصخور البارزة، عندما اكتشفت بعيني قاربين بدائيين يرسوان خلف صخرة كبيرة في الماء، فأشرت إليهما مناديا بيترز الذي فهم قصدي مباشرة، ثم ركضنا نحوهما فوجدناهما بلا حراسة، وعليه فقد حملنا ثلاث سلاحف خانعة من علَى الشاطئ إلى أحد القوارب، وأجبرنا الأسير علَى الصعود معنا متن القارب، ودفعنا القارب إلى البحر بكل ما نستطيع من قوة.

لكننا لم نبتعد أكثر من خمسين ياردة من الشاطئ قبل أن ندرك أننا كنا مخطئين بترك القارب الآخر صالحا لاستخدام البدائيين في اللحاق بنا! فقد كانوا يبحرون خلفنا تقريبا بمسافة خمسة وعشرين ياردة، وكانوا يتقدمون بسرعة في مطاردتنا!.

ولم يعد هناك وقت للتفكير في شيء سوى الإبحار بقوة وبعنف، لم يكن لدينا شيء آخر نخسره، وإذا حاولنا الآن الاستدارة ومحاولة قتل هذا الكم من البدائيين المحتلين للقارب الآخر، لكي يكفوا عن اللحاق بنا، فسوف نخاطر بأن نقع ضحايا لمذبحة لا يعلم نتيجتها إلا الرب الرحيم ـ وإن كانت الحسابات تخبرنا بذلك بشكل واضح ـ ولذلك،

لم يكن أمامنا سوى محاولة الهروب بأي شكل كان.

رحنا نجدف بكل ما نملك من قوة، بل وأجبرنا الأسير علَى التجديف بعد أن أوضحنا له أننا لن نتوانى عن قتله بلا رحمة إذا توقف، مما أكسبنا قوة إضافية.

لكن الهمج ممتلئي العضلات كانوا أكثر عددا وأكثر صحة، واقتربوا منا بشكل كبير حتى أصبحت المسافة لا تتجاوز بضع ياردات قليلة، وتأهب أحدهم للقفز علَى قاربنا محاولا اخلال توازنه.

لكنه لم يكمل مسعاه، فقد فوجئنا ببيترز يترك المجداف وينتزع المسدس من حزامي ثم يطلق النار عليه في الرأس فيرديه قتيلا في البحر.

إلا إن هذا لم يفتر عزيمتهم، ووجدنا ثلاثة أشخاص يسبحون في اتجاهنا ويتعلقون بالقارب، ثم تبعهم آخرون، إلا إن بيترز راح يضرب بذلك الرمح ـ الذي صادرناه من أحد البدائيين القتلى علَى الشاطئ ـ ويلقي بعضهم في البحر، ثم راح يضرب برأس الحجر الصلب جانب قاربهم حتى نجح في إحداث شرخ بالغ، سيؤدي إلى سقوط جزء من هيكل القارب نتيجة ثقل وزنهم فوقه، ومحاولا إخلال توازنه، وكان اثنان من السكان الأصليين في ذلك الوقت قد أمسكوا بنا من جديد، رافضين بعناد ترك القارب، حتى أخرج بيترز سكينه وراح يطعن أيديهما القابضة، بينما كنت أجدف كالمجنون وأصرخ في أسيرنا البدائي كي يجدف بلا توقف.

لقد كنا الآن نبعد، ونخرج إلى البحر، بينما بيترز يتناول تلك الحجارة السوداء من قاع القارب، ويوجه ضربات ناجعة إلى رؤوس المجدفين من البدائيين، فقد استهدفهم بذكاء حتى يقلل من قوة تجديفهم. وعندما ابتعدنا مقدارا لايقل عن مائة ياردة، ارتفعت صرخة مرعبة من قائد قارب الهمجيين، صرخة مليئة بالغضب وخيبة الأمل لأنهم أوشكوا

علَى فقدنا، والآن وقد انضم بيترز لنا مجدفا بسرعة وعنفوان، فيمكن القول أننا علَى وشك النجاة الكاملة من هؤلاء الوحوش.

من الواضح أنهم لم يكونوا ليرحموننا لو سقطنا في أيديهم، لقد قاموا بمحاولة مجنونة لملاحقتنا مستخدمين قاربهم المكسور، لكنهم وجدوه عديم الفائدة، فارتفعت صرخاتهم الوحشية الغاضبة من جديد، واستداروا الآن عائدين إلى الشاطئ.

لقد نجونا، في وسط هذه الحرب المحمومة، نجحنا أنا وبيترز من جديد في النجاة!

وهكذا شعرنا بالارتياح لزوال الخطر المباشر، ولكن وضعنا ما يزال قاتما بما فيه الكفاية، فقد كنا نعلم أن قاربين آخرين من النوع نفسه الذي كنا فيه لا يزالان في حوزة الهمج البدائيين، ولم نكن علَى علم بحقيقة؛ أخبرنا بها الأسير لاحقا بمحاولته الشرح بالهمهمات ولغة الإشارة، بأن القاربين الباقيين قد احترقا في انفجار جاين جاي الذي حدث منذ أيام!

ولذلك، حسبنا أنهم لن يأخذوا الكثير من الوقت للحاق بنا، فالمسافة الآن لا تتعدى الثلاثة أميال ولا يمكننا مواصلة التجديف القوي طوال اليوم، ولكننا في حوالي نصف ساعة، وبمواصلة التجديف الثلاثي القوي، كنا قد ابتعدنا تقريبا خمسة أو ستة أميال إلى الجنوب، ولكننا رأينا ما يبدو أنه مجموعة من القوارب المسطحة، علَى متنها البدائيون الغاضبون في محاولة للحاقِ بنا، علَى بعد ميلين أو ثلاثة إلى الشمال الشرقي!

الخطر لم يزل بعد، كما كنا نظن.

الفصل الخامس والعشرون

والآن، وجدنا أنفسنا من جديد في المحيط القطبي الجنوبي العريض المقفر، في قارب هزيل، ولا يوجد به سوى السلاحف الثلاث المستكينة، وفصل الشتاء القطبي الطويل لم يكن بعيدا، بل لم يكن هناك سوى بضعة أيام ويبدأ الشتاء القطبي الطويل المقفر.

لذا، فقد أصبح من الضروري أن نتناقش حول الطريق الذي يجب اتباعه، فقد كانت هناك ست أو سبع جزر في الأفق تنتمي للأرخبيل نفسه الذي تنتمي له جزر البدائيين، وتبعد كل منها عن الآخرى حوالي خمسة أو ستة فراسخ؛ ولكن لم يكن عندنا أي نية للمجازفة بأن نجد البدائيين منتشرين هناك أيضا، خاصة وأنهم بدأو يفقدون أثرنا بعض الوقت.

عندما كنا نبحر من الشمال في جاين جاي، كنا نترك وراءنا تدريجيا أشد مناطق الجليد خطورة، لذا فإن محاولة العودة إلى الوراء ستكون حماقة، خاصة في وقت متأخر جدا من الموسم الخريفي الجنوبي ومع دخول الشتاء القطبي المقفر، ويبدو أن مسارا واحدا فقط ربما يحمل

لنا الأمل في النجاة، لذا فقد عقدنا العزم علَى التوجه بجرأة أكبر نحو الجنوب، حيث كان هناك علَى الأقل احتمال لاكتشاف أراضٍ أخرى صالحة للحياة، وأكثر من احتمال لإيجاد مناخ أكثر اعتدالا، أو أكثر دفئا.

حتى الآن وجدنا منطقة القطب الجنوبي، مثل المحيط القطبي الذي خبرناه سابقا، خال بشكل غريب من العواصف العنيفة أو المياه الهائجة والأمواج العالية؛ لكن قاربنا كانت بنيتة ضعيفة، وبالرغم من أنه كبير الهيكل والحجم نوعا ما، إلا إننا أسرعنا في العمل بهدف جعله آمنا باستخدام الوسائل المحدودة في حوزتنا.

كان القارب كبير الحجم يصل إلى خمسين قدما، منحوتا بمهارة من جذع شجرة غير معروفة لنا، ولكنها صلبة اللحاء، مربوطا بأغصان من اللبلاب القوي، ومجمعا بمهارة لا تضاهيها سوى مهارات صناع السفن في العالم المتحضر، حتى إننا لم نصدق قط أن هؤلاء البدائيين الهمج يمتلكون تلك المهارات في تصنيع القوارب بهذا الشكل المتقن!

وبعد أيام من هذه الفترة اكتشفت من خلال محاولة استجواب أسيرنا، أن هذه القوارب صنعت من قبل أهالي أرخبيل جزر آخر يقع إلى جنوب غرب جزيرتهم، وأن هذه القوارب المتقنة سقطت بالمصادفة في أيديهم، ولهذا قصة أخرى سوف أحكيها لاحقا.

ما يمكننا فعله من أجل أمن قاربنا الآن كان قليلا جدا ومحدودا، فقد اكتشفنا قطعتين من ذلك الخشب الصلب في قاع القارب بجوار الحجارة، ثم قمنا بكسر أحد المجاديف وربطناه في القطعتين وغرسناه مدعما بالحجارة، ليكون لدينا صاري بدائي جدا، وإلى هذا الصاري قمنا بربط ما يمكن أن يكون شراعا صنعناه من قمصاننا ـ بصعوبة بالغة ـ وكل هذا دون أي مساعدة من أسيرنا البدائي، فبالرغم من نشاطه

وقوته البدنية، إلا إنه كان يهاب مظهر قمصاننا الفاتح، وبدا أن مظهر الكتان يؤثر عليه بطريقة فريدة جدا، بل ولم يكن من الممكن أن يقوم بلمسه أو حتى مجرد الاقتراب منه، بل كان علَى وشك قتل نفسه عندما حاولنا إجباره علَى مد الشراع معنا، وانكفأ علَى وجهه وهو يصرخ في رعب شديد بلفظة سمعناها من قبل:

تيكيلي لي، تيكيلي لي!!

وبعد أن أكملنا ترتيباتنا فيما يتعلق بأمن القارب وتسهيل إبحاره، كنا نبحر الآن إلى الجنوب الشرقي، ولا يمكن اعتبار الطقس سيئا بأي حال من الأحوال، فقد كان لدينا رياح لطيفة جدا تهب من ناحية الشمال، والبحر ناعم هادئ، وضوء النهار الدائم يجعل الإبحار ممتعا وسهلا، كما أنه لا يوجد جليد، والواقع أن درجة حرارة الماء هنا دافئة للغاية، وبعد أن ذبحنا أكبر السلاحف، حصلنا علَى الطعام، بل أيضا علَى كمية هائلة من الماء المخزن في كيس الرقبة، وواصلنا السير في طريقنا، من دون أي حادث يذكر، ربما لمدة سبعة أو ثمانية أيام، حيث قطعنا مسافة شاسعة باتجاه الجنوب، والريح تهب باستمرار معنا، وتيار قوي جدا في البحر يتحرك في الاتجاه الذي نسير فيه باستمرار.

أعتقد أنني سأعود للكتابة بصيغة اليوميات حتى أجمع أفكاري بخصوص ما حدث في الأيام التالية

الأول من مارس:

نشهد اليوم العديد من الظواهر غير العادية وشديدة الغرابة، فقد ظهر ضباب مشكل من بخار رمادي خفيف بشكل مستمر في الأفق الجنوبي، ويتصاعد أحيانا في شقوق رفيعة كأنه ينقسم علَى نفسه، والآن ينتشر من الشرق إلى الغرب، ثم من الغرب إلى الشرق، ثم يتجمع مرَّة

أخرى في الوسط وينشق علَى نفسه من جديد!

وكان متوسط ارتفاع هذا البخار، كما يتضح من مكاننا، حوالي خمس وعشرين درجة ميل عن سطح البحر، ودرجة حرارة البحر بدت في الازدياد بشكل ملحوظ، وكان هناك كذلك تغير ملحوظ جدا في لونه.

ولأسباب واضحة، لا أستطيع أن أدعي الدقة في هذه التواريخ، إلا إنني كتبتها تسهيلا للسرد، كما هو مبين في مفكرتي المكتوبة بالقلم الرصاص، والتي كنت أسلم نسخا منها للسيد إدجار ألان بو.

الثاني من مارس:

اليوم، من خلال محاولاتنا المتكررة لاستجواب أسيرنا، عرفنا الكثير من التفاصيل فيما يتعلق بجزيرة البدائيين وأهلها وعاداتهم، بالطبع لم نكن متأكدين مما فهمناه، لكنني سوف أشرك القارئ معي فيما عرفته.

قد أقول إننا علمنا أن هناك ثماني جزر في هذا الأرخبيل، وعرفنا أن لهم ملكا مشتركا، يدعى تساليمون أو ساليمون، وهو يقيم في إحدى أصغر الجزر التي يكون منها الأرخبيل، وأن الجلود السوداء التي تشكل لباس المحاربين جاءت من حيوان ضخم الحجم عثر عليه في وادٍ قريب من جزيرة الملك، وأن سكان الجزر لم يعرفوا القوارب من قبله سوى تلك القوارب المسطحة؛ فالقوارب الأربع الكبيرة تم الحصول عليها عن طريق الصدفة من بعض الجزر الكبيرة التي تقع إلى الجنوب الغربي منهم، وأن اسم أسيرنا هو نوـنو، وأنه لا يعلم شيئا غير ما قاله، وأن تسمية أرخبيل الجزر الذي يحكمه هذا الملك هي تسلال، وقد بدأ ينطق كلمتا: تساليمون وتسلال بصوت ممطوط يكثر فيه الهسيس، وكأنه هسيس الحية، ووجدنا أنه من المستحيل محاكاته في نطق الكلمات، حتى بعد سماعها بشكل متكرر.

الثالث من مارس:

كانت حرارة الماء مرتفعة الآن بشكل ملحوظ، وكان لونه يشهد تغيرا سريعا، لم يعد شفافا، بل أصبح أقرب إلى الحليبي الأبيض!!

كما لا يزال البخار الرمادي يملأ السماء في الأفق.

الرابع من مارس:

اليوم، هدأ النسيم القادم من الشمال، وارتفعت الحرارة حولنا بشكل كبير، وعندما أخذت المنديل الأبيض من جيبي لأمسح عرقي، كان نو ـ نو جالسا بالقرب منِّي، وعندما رأى الكتان الأبيض أمام وجهه بالمصادفة، وظهر علَى وجهه تعابير الاشمئزاز والتطير، وراح يردد الكلمة في غضب: تيكيلي لي!

الخامس من مارس:

توقفت الرياح تماما، ولكن كان من الواضح أننا لا نزال نتسارع إلى الجنوب، تحت تأثير تيار بحري قوي لا نعلم مصدره.

والآن، يبدو من المعقول حقا أن نشعر ببعض الانزعاج إزاء الأحداث التي بدأت تحيط بنا، لا هواء، والحرارة ترتفع بشكل كبير، ولا مؤن متبقية سوى بعض المياه من السلحفاة.

وجه بيترز لم يزل جامدا صلبا لا يدل علَى أي شيء، بالرغم من تعابير الدهشة التي تعلو وجهه أحيانا بشكل خاطف ثم تختفي فجأة.

وعلى الرغم من الحالِ المحيطة بنا، إلا إني شعرت بأن جسدي خفيف، وروحي هفهافة مشرقة تستمتع بما يدور، فقط العرق وقلة الهواء هما ما يزعجاني.

السادس من مارس:

ازداد الآن البخار الرمادي، وأصبحنا نرى درجات أخرى كثيرة من الرمادي فوق الأفق، بل كان يفقد تدريجيا صبغته ويتحول إلى لون قريب من الأبيض.

كانت حرارة الماء شديدة، لدرجة لا نقدر معها علَى لمسه أحيانا، وظهر الآن بذلك اللون الأبيض الحليبي أكثر من أي وقت مضى، وقد سقط اليوم مسحوق أبيض ناعم، يشبه الرماد، فوق رؤوسنا، ولكنه بالتأكيد ليس كذلك، وهذا بالتزامن مع تخفيف البخار شبه الرمادي من حدته، حتى أصبحت السماء وكأنها تمطر ذلك المسحوق الأبيض القريب في شكله من الدقيق!

ألقى نو ـ نو بنفسه منكفئا علَى وجهه في قاع القارب، ولم نقدر بأي شكل من الأشكال أن نجعله يرفع وجهه أو ينهض من هذه الجلسة الغريبة!

السابع من مارس:

وفي هذا اليوم استجوبنا نو ـ نو بشأن دوافع مواطنيه البدائيين لقتل رفاقنا؛ ولكن يبدو أن الإرهاب الأبيض قد تغلب عليه تماما بحيث لم نخرج منه بأي رد عقلاني، ولا يزال مستلقيا بعناد منكفئا علَى وجهه في قاع القارب. وعند تكرارنا للأسئلة المتعلقة بالدافع، رفع وجهه نحونا وأشار إلى أسنانه ؛ والتي بدت الآن في هذا الأبيض المحيط بنا قاتمة السواد

كنا نظنها فقط داكنة من عدم الاهتمام بها، لكن البياض المحيط أظهر لنا الآن أن الأسود هو لون أسنان سكان تسلال!!

الثامن من مارس:

اليوم رأينا واحدا من تلك الحيوانات البيضاء التي تسبب ظهورها علَى الشاطئ في تسلال في فوضى عارمة بين البدائيين، ذلك الحيوان الغريب الشكل والذي قتله بيترز سابقا وحملناه علَى ظهر جاين جاي.

لا تزال حرارة الماء تزداد، ولم يعد بالإمكان لمسه نهائيا.

لم يتحدث بيترز إلا قليلا، ولم أكن أعرف ما الذي يفكر به، وبدا أن نونو يتنفس بثقل وبطءٍ، وهو لا يزال منكفئا علَى وجهه في قاع القارب.

التاسع من مارس:

لا يزال المسحوق الأبيض يتساقط من حولنا، وبكميات هائلة، ونطاق البخار شبه الرمادي يميل إلى البياض ويزيد إلى الجنوب عند الأفق، وبدأ يشكل مظهرًا أكثر تميزًا.

لا أستطيع أن أشبهه بشيء سوى أنه عدسة عين تغطيها المياه البيضاء، شيء لا يشبه سوى ذلك!!

الحادي والعشرون من مارس:

ظلام كبريتي من فوقنا، ومن أعماق المحيط نشأ توهج مضيء أشع ضوءا علَى طول ثقوب القارب، بينما أمطار المسحوق الأبيض تغمرنا بالكامل.

الماء يوشك علَى الغليان الآن، والأبخرة تتصاعد حولنا لا ندري من الماء الذي يغلي أو من العين الكبريتية العظيمة في الأفق!

ثم جاءت رياح عاتية؛ لكن بلا صوت يشبه هبوب الرياح، تمزق المحيط المحترق في مسارها.

القارب الآن يهتز كأنه ريشة سقطت فوق قدر من الحساء الأبيض.

الثاني والعشرون من مارس:

ظلام دامس بدأ يحيط بنا!

ظلام يزداد بشكل مادي خانق، لم يكن يعكره سوى توهج المياه أسفلنا من خلال البحر الحليبي الأبيض. كثير من الطيور البيضاء العملاقة تطير باستمرار الآن من وراء الحجاب الكبريتي، والغريب أنها جميعا تصرخ بصوت واحد علَى اختلاف أنواعها

تيكيلي لي، تيكيلي لي!!

هذا صوت صرخات الطيور، والصوت الذي راح نو-نو يهمس به في رعب حتى هدأ تماما.

حاول بيترز تحريك نو - نو في قاع القارب؛ ولكن عندما لمسه وجد أن روحه قد ذهبت إلى الجانب الآخر. والآن نحن نندفع بتيار بحري قوي، ناحية هوة سحيقة أسفل العين الكبيريتية العظيمة، حيث لا أفق يظهر الآن، وحيث الهوة مفتوحة علَى مصراعيها لاستقبالنا.

ولكن في طريقنا، خرجت من قلب الهوة شخصية بشرية هائلة الحجم، أكبر من أي بشري قد رأيناه في حياتنا، كثيف الشعر يرتدي الأسمال، وجسده وثيابه وعيناه وشعره، كلها من لون أبيض شاهق البياض، يبدو وكأنه ينبت من قلب البحر.

كل شيء صار أبيضَ..

تيكيلي لي

تيكيلي لي!!

ملحوظة
بقلم محرر رسول الأدب الجنوبي

إن الظروف المحيطة بالوفاة المفاجأة والمحزنة للسيد بيم، معروفة جيدا للجمهور من خلال الصحافة اليومية.

ونخشى أن تكون الفصول القليلة المتبقية التي كان من المقرر أن تكمل حكايته المثيرة، والتي احتفظ بها جميعها، قد فقدت ولن يمكننا الحصول عليها، وذلك من جراء الحادث الذي أودى بحياته، بينما كانت الفصول المذكورة أعلاه قد سلمت لنا من قبله لغرض المراجعة، ولكننا نعد القارئ العزيز، إذا تم العثور علَى الأوراق في نهاية المطاف، فإنها سوف تنشر بلا تردد منا.

ولم يعد هناك من سبيل لمعالجة هذا النقص، فالرجل المحترم الذي ذكر اسمه في المقدمة والذي يفترض ـ من البيان الذي أدلى به السيد بيم ـ أن يكون قادرا علَى ملء الفراغ، قد رفض المهمة، وذلك لأسباب مرضية، وكذلك لعدم تصديقه لحقيقة ما ورد في الأجزاء الأخيرة من السرد، لذا فقد نحي السيد إدجار ألان بو عن إتمام المهمة كما بينا.

وبخصوص السيد ديرك بيترز ـ والذي قد نتوقع منه بعض المعلومات ـ فهو لا يزال علَى قيد الحياة، وهو من سكان ولاية إلينوي حاليا، ولكن لا يمكن مقابلته في الوقت الحالي لعدة أسباب نتعفف عن ذكرها هنا، ولكننا نتطلع إلى مقابلته في المستقبل، فربما قد يمنحنا فكرة عما حدث بعد توقف حكاية السيد آرثر جوردن بيم.

والواقع إن فقدان الفصلين الأخيرين أو الثلاثة فصول ـ بسبب تصريحات السيد بو بوجود فصلين أو ثلاثة فقط ـ هو أكثر ما يدعو إلى الأسف، لأنه من المفترض احتوائه علَى مادة مهمة، تتعلق بالقطب الجنوبي ذاته، أو علَى الأقل بالمناطق القريبة جدا منه؛ وكما هو الحال أيضا، فإن تصريحات السيد بيم فيما يتعلق بهذه المناطق يمكن التحقق من صحتها أو تناقضها قريبا، عن طريق البعثة الحكومية التي تعد العدة الآن للابحار إلى المحيط الجنوبي.

وفي إحدى النقاط في السرد، وجدنا بعض الملاحظات مكتوبة بشكل جيد؛ ويسر المحرر في هذا الملحق الأدبي أن يعرب عن تمنيه بأن تكون هذه المعلومات صحيحة بالفعل أو تتمتع بأي قدر من الدقة والأمانة، مثل المعلومات المذكورة عن الجرف البازلتي الأسود المعثور عليه في جزيرة تسلال، وكذلك الرسوم من الرقم (١) إلى الرقم (٥).

وقد أعطى السيد بيم رموز وأشكال الجرف دون تعليق، ويتكلم بلا شك عن أن النقوش التي رأها، علَى أنها مجرد تشابه وهمي مع الأحرف الأبجدية، وباختصار، فهي ليست كذلك من وجهة نظرنا، لكننا نرى في حجته بعض الإقناع، خاصة عندما ذكر أمر تلك الزوائد الشبيهة باللؤلؤ والملقاة علَى أرضية الجرف، لدرجة أن هذه الحجة قد تجعلنا نضطر إلى تصديق الكاتب؛ ولكن بما أن الوقائع المتعلقة بجميع الرسوم وبعد تحليلها من قبل محررينا ومثقفينا الأفاضل، فقد يكون من الممكن أيضا أن نقول كلمة أو كلمتين بشأن هذه الأمور، وهذا أيضا، لأن السيد بو لم يلتفت إلى هذه الدلالات، بل وتجاهلها في مقابل اقتناعه برأي كاتب الحكاية وراويها.

فالرسم رقم (١) والرسم رقم (٢) والرقم (٣) والرقم (٥) عندما

تتلاقى مع بعضها بعضا في الترتيب الدقيق الذي قدمه السيد بيم، في تحركاته داخل الجرف، وعندما نحذف الفروع أو الأقواس الصغيرة ـ التي نظن أنها لا تستخدم إلا كوسيلة للتواصل بين الدوائر الرئيسية، وذات طابع مميز تماما ـ تشكل مصدرا لُغَويًّا لفعل أثيوبي هو (أن تتحول إلى ظل أو أن تكون ظلا قائما) أي أن تكون أنت بالكامل مكونا من الظل أو أن تكون أنت الظلام.

وفيما يتعلق بالشكل رقم (٤) فمن المحتمل جدا أن يكون رأي بيترز صحيحا، وأن هذه النقوش ما هي إلا حروف من النقوش الأبجدية، وهو عمل من أعمال الفن البشري، ومن الواضح أن الجزء الأعلى هو الجذر اللفظي العربي العتيق لفعل (يبيض أو مبيض من اللون الأبيض)، أي أنه يحتوي علَى كل أنواع البلاغة المعاكسة لما يكونه المصدر الأثيوبي سابق الذكر.

أما النطاق الأدنى فهو ليس سهل التفسير، فالنقوش مكسورة نوعا ما ومفككة، ومع ذلك، ومع القليل من التدقيق والفحص، فإنها تشكل الكلمة المصرية العتيقة الكاملة «ولاية الجنوب».

وتجدر الإشارة إلى أن هذه التفسيرات تؤكد رأي بيترز فيما قاله، وفيما يبدو أن السيد بيم لم يوله اهتماما كبيرا، ومن بعده محرره الراحل عن ملحقنا الأدبي، السيد إدجار ألان بو.

إن مثل هذه الاستنتاجات تفتح مجالا واسعا للتكهنات والمناقشات المثيرة، وربما كان من الواجب أن ننظر إليها فيما يتصل ببعض أكثر أحداث الرواية وضوحا وتفصيلا؛ علَى الرغم من عدم اكتمال سلسلة الاتصال هذه بشكل واضح.

تيكيلي لي! كان صراخ أهالي تسلال عند اكتشاف جثة الحيوان الأبيض، والشبيه قليلا بما يروي عنه أهل الشمال عن إنسان الجبال الأبيض، وكان هذا اللفظ أيضا الصراخ المروع والهمهمات المرعبة للأسير المختطف من جزر قوم التسالاليان، عندما رأى المواد البيضاء التي بحوزة السيد بيم، وكان هذا هو صياح الطيور العملاقة السريعة البيضاء، التي حلقت من الستار الرمادي المبيض في الجنوب.

لم يكن هناك شيء أبيض في تسلال كما فهمنا، وليس من المستحيل أن يتم العثور علَى جزر تسلال في ضوء التقدم التي تتمتع به رحلاتنا الحكومية المتجهة إلى القطب الجنوبي قريبا، إلا إن تسمية الجزيرة ـ وعند التدقيق اللُّغويّ الدقيق للغة الأثيوبية القديمة ـ توحي بمعان عن خيانة تحالف ما مع القوم الذين صنعوا الجرف البازلتيّ الأسود، أو ربما إشارة إلى الأشكال الأثيوبية التي صنعت علَى هيئتها الجرف.

أو لنتذكر تلك الكلمات التي وجدت منقوشة في معابد أثيوبية قديمة:

«لقد دفنت هذه الأرواح في قلب التلال، ونقمتي ستخرج من التراب داخل الصخرة».

النهايـة

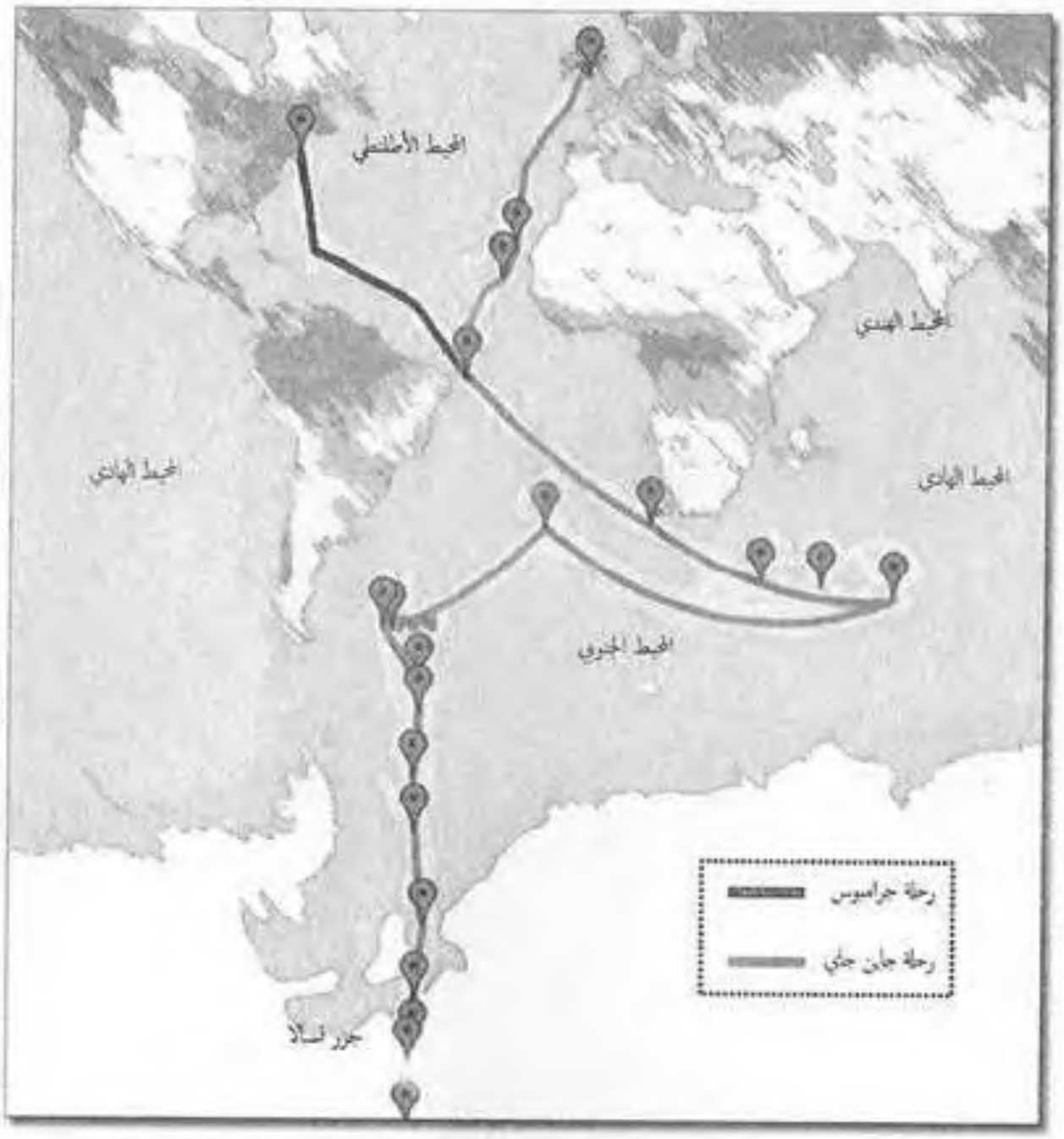

خريطة رحلة آرثر جوردن بيم

حكاية آرثر جوردن بيم

رحلة بحرية عادية لصيد الحيتان، تتحوّل في أيام قليلة إلى أكثر الأحداث إثارة وتشويقًا ورعبًا وغرابة في حياة الشاب الأمريكي البسيط آرثر جوردن بيم، وستتحوّل هذه المغامرة المثيرة إلى واحدة من علامات الاستفهام الأكثر إثارة للجدل في نهايات القرن التاسع عشر.

هذه هي الرواية الطويلة الوحيدة التي كتبها رائد أدب التشويق الأمريكي وأحد علامات الأدب العالمي قاطبة.

هذه رواية لإدجار ألان بو.

ميسره الدندراوي

روائي ومترجم مصري من مواليد القاهرة عام 1980، يعمل مهندسًا في مجال صيانة وإدارة المنشآت. قام بترجمة رواية "دراسة في القرمزي" عام 2019، كما نشرت له روايات "آثار جانبية" عام 2015، "صمت مزعج" عام 2016، "العنصر التاسع" عام 2017، و"العشاء الأخير" عام 2020.